

الإغتراب في الشعر العربي المعاصر

الدكتور
محمد راضي جعفر



الاغتراب في الشعر العربي المعاصر

الدكتور
محمد راضي جعفر



دار المعتز للنشر والتوزيع

الأردن- عمان- شارع الملكة رانيا العبدالله- الجامعة الأردنية

عمارة رقم ٢٣٣ مقابل كلية الزراعة الطابق الأرضي

تلفاكس: ٥٣٧٢٠٣٥ ٦ ٩٦٢ ٠٠ ص.ب: ١٨٤٠٣٤ عمان: ١١١١٨ الأردن

e-mail: daralmuotaz@yahoo.com e-mail: daralmuotaz.pup@gmail.com



لتحميل المزيد من الكتب

تفضلوا بزيارة موقعنا

www.books4arab.me

الإغتراب في الشعر العربي المعاصر

حقوق الطبع والنشر للنشر

استناداً إلى قرار مجلس الإفتاء رقم ٣/٢٠١١ بتحريم نسخ الكتب وبمسما دون إذن الناشر والمؤلف، وعملاً بالأحكام العامة لحماية حقوق الملكية الفكرية فإنه لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو استنساخه بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

رقم الإيداع 2012/12/7585

الطبعة الأولى

2013 م - 1434 هـ



دار المعتز للنشر والتوزيع

الأردن - عمان - شارع الملكة رانيا العبدالله - الجامعة الأردنية

عمارة رقم ٢٣٣ مقابل كلية الزراعة الطابق الأرضي

تلفاكس: ٥٢٧٢٠٢٥ ٦ ٩٦٢ ٠٠ ص ب: ١٨٤٠٢٤ عمان ١١١١٨ الأردن

e-mail: daralmuotaz@yahoo.com e-mail: daralmuotaz.pup@gmail.com

الإغتراب في الشعر العربي المعاصر

الدكتور
محمد راضي جعفر

الطبعة الأولى
2013 م - 1434 هـ رقم التسجيل

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	9
مقرب من مفهوم الغربة والاعتراب	13
الغربة والاعتراب: .	13
اللغة والمصطلح	13
الاعتراب... الظاهرة	15
العرب والغربة والاعتراب	17
الاعتراب... القضية	25
هيجل والاعتراب السياسي	27
فيورباخ والاعتراب الديني	28
ماركوس والاعتراب الاجتماعي	29
الغزلة في منهج مدرسة علم الطباق الفرنسية	31
هل الاعتراب خاص بالفنان العبقرى ؟	33
الغربة والاعتراب عند الشعراء القدامى	36
الاعتراب المثقف العربى المعاصر	41
الفصل الأول	45
أنماط الاعتراب عند الشعراء الرواد	45
تمهيد	45

46	الاغتراب الاجتماعي
61	الاغتراب العاطفي
69	الاغتراب السياسي
84	الاغتراب المكاني والموقف من المدينة
97	الاغتراب الروحي
105	المنهج التعويضي
109	استعادة الماضي والمدينة الحلم
115	استلهام التراث
120	صنع تعويضية أخرى
120	السياب والتشبث بالحياة
122	نازك والعودة الى الايمان
125	البياتي وصيغة الثورة
127	بلند ومرحلة المجون والصعلكة
	الفصل الثاني
131	البنية اللغوية
131	القصيدة موضوعا لغويا
134	المعجم الشعري
136	الفاظ الغربة
139	الفاظ الطبيعة
144	الفاظ الصوت
150	التجسيد والتشخيص
152	مستويات الأداء اللغوي

152	الاداء بالكلام المحكي
160	الاداء بالموروث
167	التكرار ظاهرة أسلوبية
175	الفصل الثالث
	البنية التصويرية
175	الصورة في البناء الشعري
175	ما الصورة الشعرية ؟
176	الصورة والمجاز
177	الصورة والخيال
179	الصورة والاسطورة
182	التشكيل بالقصة
196	التشكيل بالموروث
195	التشكيل بالرمز الاسطوري
200	التشكيل بالرمز الادبي
207	التشكيل بالقناع
213	الفصل الرابع
	البنية الايقاعية
213	عضوية الموسيقى
216	تكرار الاصوات
220	اصوات المد
222	التدويم
223	التوقع القافوي

224	تكرار التخصيص
225	تردد النسق الايقاعي
227	تجزئة الوزن
228	موسيقى الاطار
237	القافية
241	تنوع الاوزان في القصيدة الواحدة
247	التناوب
253	خاتمة البحث
255	مراجع البحث ومصادره

المقدمة (*)

الاغتراب موضوع مثير بالنسبة لي في اكثر من جانب ففضلا عن كوني شاعرا ، أحسست بالاغتراب عما حولي ، وعمن حولي في مختلف مراحل حياتي ، وفي اكثر من ميدان عملت فيه ، فإن اغتراب الشعراء الرواد بالذات كان موضع تساؤلي المستمر عن دواعي اغترابهم ذاك ، وآفاقه ، وعلاقته بالمصائر الفردية التي آلوا اليها .

وهكذا وجدتني مأخوذا بارتياذه على الرغم من قلة المصادر العربية حوله ، وتداخل الفلسفة فيه بالاجتماع والادب ، والاقتصاد ، والسياسة وغير ذلك ، الامر الذي قد لا يغري في معالجته بالسهولة التي يتصورها البعض .

يتكون البحث من مقرب ، واربعة فصول : وخاتمة :

أما المقرب فقد اشتمل على عدة عناوين ضمها عنوان رئيس هو مقرب من مفهوم الغربة والاغتراب وقد تناولت الغربة والاغتراب لغة ومصطلحا ، ثم الاغتراب ظاهرة في الحياة البشرية ، كما تطرقت الى مفهوم الغربة والاغتراب عند العرب : حديثا شريفا ، ومصطلحا ، وأدبا ، وتناولت الاغتراب قضية منذ وروده في مؤلف العقد الاجتماعي لجان جاك روسو ، مروراً بالاغتراب السياسي عند هيجل ، والاغتراب الديني عند فيورباخ ، والاغتراب الاجتماعي عند ماركس ، كما تناولت ظاهرة العزلة في منهج مدرسة علم الطباق الفرنسية لا سيما عند العصبيين والعاطفيين ، واستعرضت الغربة والاغتراب في نماذج من الشعر العربي القديم ، وختمت باغتراب المثقف العربي المعاصر عموما

(*) اصل البحث رسالة ماجستير تقدم كما الباحث الى كلية التربية ، ابن رشد في جامعة بغداد باشراف الدكتور علي عبد الرازق ونالت درجة الامتياز .

واغتراب الشاعر خصوصا ، مستشهدا ببعض الشعراء منذ مطلع هذا القرن حتى الوقت الراهن .

اختص الفصل الاول بانماط الاغتراب التي عاشها الشعراء الرواد الاربعة بدر شاكر السياب ، ونازك الملائكة ، وعبد الوهاب البياتي ، وبلند الحيدري ، وهي : الاغتراب الاجتماعي ، والعاطفي ، والسياسي ، والمكاني ، والروحي ، ثم استعرضت المنهج التعويضي الذي استعان به الشعراء للرد على الاغتراب والذي اشتمل على العودة الى الطفولة والماضي ، وتأسيس المدن الحلمية واستلهام التراث ، فضلا عن صيغ اخرى تفرد بها الشعراء .

وحمل الفصل الثاني عنوان 'البنية اللغوية' وقد تحدثت فيه عن القصيدة موضوعا لغويا ، وعن مكونات المعجم الشعري عند الرواد وهي الفاظ الغربة ، والفاظ الطبيعة ، والفاظ الصوت فضلا عن ظاهرة التجسيد والتشخيص ، وقد ختمت الفصل بالحديث عن مستوى الاداء اللغوي عند الرواد وهما : الاداء بالكلام المحكي ، والاداء بالموروث ، على صعيد اللفظة وعلى صعيد التركيب .

اما الفصل الثالث فقد خصص للبنية التصويرية ، وقد تناولت في مستهلة المهاد النظري للصورة الشعرية ، وموقع الصورة في البناء الشعري ، ثم علاقتها بكل من المجاز والتشكيل الموروث ، والتشكيل بالرمز الاسطوري ، والتشكيل بالرمز الادبي ، والتشكيل بالقناع .

وفي الفصل الرابع الذي اختص بالبنية الايقاعية ، تحدثت عن أثر الموسيقى في البناء الفني ودورها في تثبيت الانفعال ، وكيف تعامل الشعراء الرواد ، في موضوع الاغتراب ، مع الايقاع الداخلي ، عبر وسائل تحقيقه وهي : تكرار الاصوات وأصوات المد والتدويم ، وتجزئة الوزن العروضي ، والباس

الالفاظ ايقاع النواة ، وكذلك من خلال موسيقى الاطار ، ودور الوزن في البناء الشعري ، كما تحدثت عن أثر القافية الموسيقي ، وموقف الرواد منها ، مستشهدا بامثلة تطبيقية محددة ، وفي ختام الفصل تناولت ظاهرتين موسيقيتين لفتتا نظري تلکما هما تنوع الاوزان ، وتناوب شعرا لبيت وشعر التفعيلة في القصيدة الواحدة لضرورات فنية وانفعالية اجتهدت في تفسيرها بعدد من الامثلة التطبيقية .

ازعم اني استخدمت المنهج التحليلي الفني مركزا على النص بالدرجة الاولى مع الاستعانة - كلما دعت الحاجة - باقاويل الشاعر ونقاده . في تحليل النص وفهمه ، أو في تحليل الموقف وفهمه شريطة أن لا يتعارض ذلك مع روح النص الذي هو جوهر العملية النقدية بما يمتلكه من عناصر التكامل اللغوي والفني والجمالي ، ولا ينكر الباحث انه استفاد من بعض الرسائل الجامعية التي بحثت في الغربة والاغتراب ومنها : رسالة منى علام الموسومة بـ ((الغربة في الشعر العربي الحديث - رواد الشعر الحر⁽¹⁾))

والتي تناولت فيها اربعة عشر شاعرا عدتهم جميعا من رواد الشعر الحر ، كما تسميه ، ورسالة احمد حاجم محمد الموسومة بـ ((الغربة والحنيني في الشعر الاندلسي⁽²⁾))

ورسالة عبد الامير محسن عودة الموسومة بـ ((الغربة والاغتراب في الشعر الكويتي والبحريني⁽³⁾))

(1) كلية الآداب - جامعة دمشق .

(2) كلية الآداب - جامعة بغداد .

(3) جامعة البصرة ، مركز دراسات الخليج العربي .

كما يشير الباحث عن غنى مبحث ((الاغتراب)) في رسالة عبد الكريم راضي جعفر للدكتوراه الموسومة بـ((البنية الموضوعية والفنية للشعر الوجداني الحديث في العراق)) وثناء فصل "ظاهرة الاغتراب في شعر الرواد" في⁽¹⁾ رسالة سلام كاظم الاوسي الموسومة بـ"ألزمن في شعر الرواد"، اذ قدمنا بعض المفاتيح الاساسية في⁽²⁾

الموضوع ، وكان على الباحث امام فيض الدراسات التي تناولت الشعراء الرواد أن يقف موقف الشك امام بعض الآراء والمواقف التي كانت وليدة الذاتية ، فيفند البعض منها ، ويستكمل البعض الآخر وصولاً الى الموقف الموضوعي الذي يقتضيه البحث العلمي .

ولا يزعم الباحث بعد ذلك انه استكمل الموضوع فما زال فيه الكثير مما لم يُدرس ، او مما لم يُتعمّق في دراسته ، وحسبه أن يكون بحته لبنة واحدة في بناء يتكامل تباعاً بجهود الآخرين ، معتذراً عن تواضع بحته لسعة موضوعه.

(1) كلية الآداب - جامعة بغداد .

(2) كلية التربية - جامعة بغداد .

مقترَب من مفهوم الغربة والاغتراب

الغربة والاغتراب

اللفظة والمصطلح :

عربيا : لا يختلف المعنى اللغوي عن المعنى الاصطلاحي لكلا المفردتين
جاء في اللسان :

"العُربُ : الذهاب والتنحي عن الناس

العُربة والعُربُ : النوى والبعد ، وقد تغرب

التغربُ : البعد

العُربة والعُربُ : النزوح عن الوطن والاغتراب

الاغتراب : افتعال من الغربة " .⁽¹⁾

وجاء في الحديث الشريف :

"اغتربوا ولا تضربوا" اي لا تتزوجوا القرابة القريبة .⁽²⁾

يتضح مما تقدم ان كلا من الغربة والاغتراب يعني التنحي ، والنوى ،
والنزوح ، ولا يتصور الباحث ان صيغة ((افتعال)) تمنح مصطلح
((الاغتراب)) ، سعة وشمولية لا تتوافر عليها ((الغربة)) كما يرى احد
الباحثين ، فرما كان وراء هذا⁽³⁾

⁽¹⁾ مادة "غرب" .

⁽²⁾ الفائق في غريب الحديث ، الزمخشري ، 1-350 .

⁽³⁾ ينظر : الزمن في شعر الرواد ، سلام كاظم الأوسي ، رسالة ماجستير الآلة الكتابة ،
هامش الصفحة 54 .

الاعتقاد هو اقتصار ((الغربة)) على البعد عن الاوطان والمدن في الكلام المتداول من جهة ، وتداول الاغتراب تداولاً واسعاً في الفلسفة والعلوم الاجتماعية ، وعلم الاقتصاد ، في الغرب مقترناً بوضع الانسان المعاصر في المجتمع الصناعي الحديث من جهة اخرى ، ومما يؤكد ما ذهبنا اليه أن شيخ الاسلام الهروي الانصاري يضع الغربة والاغتراب بمستوى واحد ، فحين يفرغ من تعريف الاغتراب يضيف انه ((على ثلاث دراجات)) .. هي " الغربة عن الأوطان" و"غربة الحال" و"غربة الهممة".⁽¹⁾

وها هو باحث معاصر يذكر مانصه :

"المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للاغتراب واحد : الغرب والغربة والاغتراب كلها في اللغة بمعنى واحد هو الذهاب والتنجي عن الناس ، وكذلك في المعنى الاصطلاحي". اي اننا نستطيع ان نُحلّ مصطلح⁽¹⁾ "الاغتراب المكاني" بدل مصطلح "الغربة المكانية" و"الاغتراب الروحي" محل "الغربة الروحية" وهكذا .

اما اوروييا ، فإن الكلمة اللاتينية ((alienation)) هي الأصل الذي اشتقت منه الكلمة الانجليزية alienation وفعليها هو alienation والفرنسية Alienation ويعني : ينقل أو يحوّل أو يسلم أو يبعد ، وقد وردت⁽²⁾

الكلمة اللاتينية ضمن السياقات : القانوني ، والنفسي الاجتماعي ، والديني .⁽³⁾

⁽¹⁾ ينظر : منازل السائرين ، ص 88 .

⁽²⁾ حول مشكلة الاغتراب ، د . فتح الله خليف ، مجلة عالم الفكر ، مج 10 ، 1979 ، ص 114 . ندوة

⁽³⁾ ينظر : الاغتراب ، د . محمود رجب ، 1:33 .

يعني السياق القانوني : نقل الملكية أو تحويلها أو تسليمها بوجهيها : القانوني الحر ، والاجباري (الاستحواذ) . فهو فعل حركي طرفاه : الوجود من اجل الذات ، والوجود من اجل الآخر . وقد توافرت المرحلة الاقطاعية على هذا السياق حين كان السيد الاقطاعي وحده من يستطيع البيع أو النقل أو التسليم أو التحويل وهو ما قاد الى ما يعرف بتشويء العلاقات الانسانية .

ويشير السياق النفسي الاجتماعي الى الشرود الذهني وغياب الوعي ، كما كان يعني ايضا غياب العقل والجنون بسبب تركيز اهتمام الفرد في شيء معين بذاته يشغله حتى عن نفسه ، والتوتر النفسي هو انعكاس لوضع الفرد في المجتمع نتيجة ما يوقعه الاخير بالانسان من عقوبات العزل أو النبذ بسبب الخروج على المعتقدات والتقاليد السائدة فالمغترب هو من خرج على المؤلف الاجتماعي أو الديني .

اما السياق الديني فقد ارتبط بفكرة خروج الانسان على نعمة الله اي انفصاله عن الذات الالهية وسقوطه في الخطيئة فهو اذن مغترب عن الله .

الاغتراب - الظاهرة

الاغتراب ، ظاهرة ، قديم قدم الانسان في هذا الوجود ، فمنذ أن تكونت المجتمعات الاولى نشأت معها وفي ظل سننها وتقاليدها المشاكل والأزمات التي كانت تتمخض بشكل أو بآخر ، عن أنواع من الاغتراب عانى منها الفرد ، وكانت تقوده حيناً الى التمرد والعصيان ومواجهة المجتمع ، وحيناً الى الاستسلام والانعزال والانكفاء على الذات .

(1) ينظر : نفسه ، ص 34-42 .

وتأسيسا على ذلك فقد نجد فكرة الاغتراب في اشعار هوميروس " في القرن التاسع قبل الميلاد " ، كما ⁽¹⁾ يمكن ادراك بذورها " في نظرية افلاطون عن الروح .. وفي التصور الافلاطوني عن الاشياء باعتبارها شكلا فاسدا للمثل المتعالية المدرسي " السكولائي ، لاسطورة الخطيئة الأولى " . بل لقد تتبعها البعض في حياة " ابرام " حين ⁽²⁾ وعده الله بالنسل والارض قبل ان يصبح اسمه " ابراهيم " . ⁽³⁾

وفي ضوء ما حفل به تاريخ البشرية من الاغتراب قال بعضهم : " ان تاريخ البشرية هو تاريخ اغتراب .. تاريخ تشيؤ وتاريخ قهر لهذا التشيؤ " ، فهو والحالة هذه ، داء ⁽⁴⁾ عام يصيب مجتمع الوفرة ، كما يصيب مجتمع الحاجة ⁽⁵⁾ بمعنى انه لا يختص بعصر دون آخر ولا يقتصر على قوم دون آخرين ، ينبت كالنبته كلما أنس الأرض الخصبة.

⁽¹⁾ ينظر : الاغتراب في الذات ، د . حبيب الشاردني ، مجلة عالم الفكر ، مج 10 ، ع 1 ، 1979 ، ص 19 .

⁽²⁾ تطورا الفكر الفلسفي ، ثيود اويزрман ، ص 175 .

⁽³⁾ جاء في سفر التكوين 17 : 1-8 ما يأتي : " ولما كان ابرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لابرام وقال له : انا الله القدير . وسر امامي وكن كاملا . فأجعل عهدي بيني وبينك واكثرك كثير جدا ، فسقط ابرام على وجهه ، وتكلم الله معه قائلا : اما انا فهو ذا عهدي معك وتكون ابا لجمهور من الأمم ، واثمرك كثيرا جدا واجعلك امما ، وملوك منك يخرجون ، واقم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في اجيالهم عهدا ابديا ، لاكون الها لك ولنسلك من بعدك ، واعطي لك ولنسلك من بعدك ارض غربتك " .

⁽⁴⁾ الانسان والاغتراب ، مجاهد عبد المنعم مجاهد ، ص 32 .

⁽⁵⁾ المكان نفسه .

العرب والغربة والاغتراب

لم يكن المجتمع العربي بمنأى من هذه الظاهرة شأنه في ذلك شأن المجتمعات الأخرى ، فقد ورد "الاغتراب" و"الغربة" مصطلحين ، حيناً ، وفكرة حيناً آخر في العديد من اشعار العرب وكتاباتهم ، وسيعرض الباحث بايجاز نماذج انتقاها من مظانٍ تراثية عدة .

ففي عصر ما قبل الاسلام عرف الشعراء العرب الاغتراب والغربة لفظاً وفكرة ، واحساساً ، في حياة منفتحة ، انفتاح الصحراء ، على المخاطر والمجهول ، وامتلاّت بالغزوات والصراعات كما امتلاّت النفس البشرية بالقلق والتمزق والتسوق والتجاوز في مثل ذلك الطقس اللاهب لم يكن عمر الشاعر - وربما الانسان - سوى اغتراب ازلي استوطن روحه ، وأشعره ان الموت قاب قوسين او ادنى منه . فها هو بشر بن ابي خازم الاسدي يخاطب ابنته اثناء لحظات احتضاره وقد اصابه ⁽¹⁾

اسيره الوائلي بسهم ، مستخدماً لفظة الاغتراب وقاصداً المعنيين :
النفسي والمكاني :

فان اباك قد لاقى غلاما	من الأبناء يلتهب التهابا
وان الوائلي اصاب قلبي	بسهم لم يكن يُكسُ كُغاباً
فمن بك سائلا عن بيت بشر	فانّ له يجنب الرده بابا
ثرى في ملحد لا بد منه	كفى بالموت نأيا واغترابا

⁽¹⁾ يرجح انه عاش في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي قبل الاسلام . ينظر : ديوانه ، ص 18 .

رهن بلى وكل فتى سيلى فأذري الدمع وانتحي انتحابا⁽¹⁾

ورد عن النبي الكريم " صلى الله عليه وسلم " أنه قال : " بدأ الاسلام غربيا ، وسيعود غربيا كما بدأ ، فطوبى للغرباء " . ويتضح من الحديث الشريف أن⁽²⁾

الذين استجابوا للدعوة الاسلامية في فجرها كانوا قلة مؤمنة وصفت بانها غريبة في الوسط المشرك ، وقد زالت غربتها بعد أن انتصروا الإسلام وهزم الكفار ولكن الإسلام لا يلبث أن يعود غربياً مرة اخرى عندما يجد المؤمنين انفسهم قلة وسط المسلمين بسبب تفشي الفتن والشبهات ، وفي ذلك قال احمد عاصم وهو من كبار العارفين في زمنه : " اني ادركت من الازمنة زمانا عاد فيه الاسلام غربيا كما بدأ ، وعاد وصف الحق فيه غربيا كما بدأ " .⁽³⁾

ومع ترسيخ الدولة العربية الاسلامية الجديدة ، نشأت العديد من الفرق والملل المذهبية والسياسية بسبب كثرة الصراعات والاحداث التي هزت المجتمع العربي بدءا من اغتيال ثلاثة من الخلفاء الراشدين مرورا بالصراع الدموي الذي وقع بين الدولة الاموية والبيت الهاشمي ، وقيام دولة بني العباس وانتهاء بقيام الدويلات الجديدة بقيادات غير عربية ، وما تمخض عن كل ذلك من معطيات فكرية شتى ، واجتهادات دينية متباينة غذاها الدرس الكلامي من جهة والفكر اليوناني المترجم من جهة اخرى مما قاد الى اتجاهات مستحدثة في التأويل الفقهي ، والتفسير القرآني الى جانب ما حفلت به الحياة من مظاهر الترف ،

⁽¹⁾ ديوانه ، ص 25-27 .

⁽²⁾ صحيح مسلم ، 1 : 130 .

⁽³⁾ كشف الكربة في وصف حال أهل الغربية ، ابن رجب الحنبلي ، ص 15 .

والفساد ، الأمر الذي أخصب الدعوة الملحة في الرجوع الى جوهر الدين ، واعتزال الحياة وزخارفها ، والعمل للآخرة دار خلود ونعيم . وربما نجد هذا واضحا لدى الصوفية : فاغتراب الصوفي هو اغتراب ديني قصد التوقع عن الشهوات والشبهات ، والاقتراب من الله ، ومما لا شك فيه ان بذور التصوف ظهرت " في نزعات الزهد القوية التي سادت في العالم الاسلامي في القرن الاول الهجري " بسبب " المبالغة في الشعور بالخطيئة⁽¹⁾

والرعب الذي استولى على قلوب المسلمين من عقاب الله وعذاب الآخرة " .⁽²⁾

ان الايغال في التطهر ادى بهؤلاء الى اعتزال الدنيا ومباهجها ، خشية السقوط في الخطيئة ، وقد تطور هذا المنهج التطهري من جيل الى آخر ومن شيخ الى شيخ ، اي ان الاغتراب كان هو الآخر يتصاعد بالصوفي عن مجتمعه وحياته عن طريق (الجذب) الذي يقود فيما بعد الى الخروج عن الذات والفناء في الله . فلا عجب اذا وصف الحسين بن منصور الحلاج (ت 309 هـ) نفسه بالغريب والوحيد اذ يقول في احدي قصائده :

انتم ملكتم فؤادي	فهممت في كل واد
ردوا علي فؤادي	فقد عدمت رقادي
انا غريبٌ وحيدٌ	بكم يطول انفرادي ⁽¹⁾

⁽¹⁾ في التصرف الاسلامي وتاريخه ، نيكولسون ، ص 2 .

⁽²⁾ المكان نفسه .

⁽³⁾ الاغتراب ، د . محمود رجب ، ص 180 .

ولا عجب ايضا اذا عدّ الصوفي الناس سببا في ضياع ذاته ، ومدعاة لاحتراف السفر والتجوال لاكتشافها وتطهيرها من مبادئ الدنيا ، فغربة المتصوفة غربة كونية انتشلتهم من " الوجود الحسي الأرضي بوصفه غريبا وغير اصيل ". ولهذا نرى كلمة ((الغربة)) من الفاظ معجم المتصوفة ⁽¹⁾ فقد كانت عندهم ((تطلق بازاء مفارقة الوطن في طلب المقصود، ويقال الغربة في الاغتراب عن الحال)) وها هو محي الدين بن عربي (ت 638 هـ) وهو أحد شيوخ المتصوفة ، يستعمل لفظ " الغربة " الى جانب أحد افعال الاغتراب " اغتربناها " في معرض اشارته الى فعل الخلق والانفصال عن الله قائلا: ((ان اول غربة اغتربناها وجودا حسيا عن وطننا غربتنا عن وطن القبضة عند الاشهاد بالربوبية لله علينا ، ثم عمرنا بطون الامهات ، فكانت الارحام وطننا فاغتربنا عنها بالولادة. ⁽²⁾))

ولا شك في أن ((العامل الاقتصادي والعامل السياسي يشكلان اكبر دوافع الاغتراب في البحث عن الجذور ⁽³⁾)) ولذلك كانا سببا فيما عانا ، العديد من الشعراء والادباء من غربة وهم في اوطانهم ، واخرى خارج اوطانهم ، فالترحل من اجل لقمة العيش وما صاحبه من مشقة وعناء ، والبقاء في الاوطان وما رافقه من قهر واذلال، افرز نفرا من الادباء الغرباء شكّل مادة كتاب ابي الفرج الاصبهاني (ت 360 هـ) الموسوم بـ ((ادب الغرباء)) . وقد شرح المؤلف في مقدمة الكتاب دوافع تأليفه قائلا : " وقد جمعت في هذا الكتاب ما وقع الي ، وعرفته ، وسمعت به ، وشاهدته ، من أخبار من قال شعرا في غربة ،

⁽¹⁾ التصرف الاسلامي في الادب والاخلاق ، د . زكي مبارك ، 1: 63 .

⁽²⁾ الفتوحات المكية ، 2: 696 .

⁽³⁾ الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث ، د . ماهو حسن فهمي ، ص 37 .

ونطق عما به من كربة ، وعلن الشكوى بوجده الى كل متشرد عن اوطانه ، ونازح الدار عن اخوانه ... "وبذلك عانى⁽¹⁾ اولئك الادباء عن اغترابات شتى: مكانية واجتماعية واقتصادية وروحية بسبب قلة حظوظهم في مجتمعاتهم، وعيشهم على الكفاف ، في مواجهة ظروف حطت من اقدارهم ، ونالت من انسانيتهم .

وفي كتاب منازل السائرين يعرف شيخ الاسلام عبد الله الانصاري الهروي "396 - 481 هـ" الاغتراب بأنه : "أمر يشار به الى النفرد عن الكفاء" ويعني "ان⁽²⁾ كل من انفرد بوصف شريف دون أبناء جنسه فإنه غريب بينهم لعدم مشاركته او لقلته" . وقد صنف الانصاري⁽³⁾ الانفراد هذا على ثلاث درجات : فثمة "الغربة من الاوطان" وهذا هو الانفراد بالجسم ، وهو انفرد يشترك فيه الناس جميعا لأن الحياة الدنيا دار فانية يلتقي فيها الغرباء وسيلة للانتقال الى الآخرة ، وهي دار الإقامة الابدية . وثمة الانفراد بالحال "غربة الحال ، والحال هو الفعل ، وقد جعل الشيخ الغرباء في هذه الدرجة ثلاثة أنواع هم : "... رجل صالح في زمان فاسد ، بين قوم فاسدين او عالم بين قوم جاهلين او صديق بين قوم منافقين" .⁽⁴⁾

أما الدرجة الثالثة من الانفراد فهي : "غربة الهمة ، وهي غربة طلب الحق، وهي غربة المعارف ، لأن المعارف في شاهده غريب ، ومصحوبة في شاهده غريب ، وموجوده لا يحمله علم ، او يظهره وجد ، او يقوم به رسم ، او

⁽¹⁾ أدب الغرباء ، ص 21 .

⁽²⁾ منازل السائرين ، ص 87 .

⁽³⁾ مدارج السالكين ، ابن قيم الجوزية ، 3: 126 .

⁽⁴⁾ منازل السائرين ، ص 88 .

تُطَبِّقُه إشارة ، او يشملُه اسم غريب ، فغربة المعارف غربة الغربة ، لأنه غريب الدنيا والآخرة" ⁽¹⁾ وهذه الاخيرة هي غربة الصوفية الذين افنوا انفسهم في حب الله والارتقاء اليه لذلك كانت اعلى درجات الغربة ، فشاهد المعارف في قوله " لأن المعارف في شاهده غريب " ويعني " هو الذي يشهد عنده وله بصحة ما وجد وانه كما وجد، وبشوت ما عرف وانه كما عرف ، وهذا الشاهد امر يجده في قلبه ، وهو قربه من الله ، وأنسه به ، وشدة شوقه الى لقاءه، وفرحه به، فهذا شاهده في سره وقلبه" ⁽²⁾ ولذلك عدت غربة المعارف "غربة الغربة" لانه غادر الصفات البشرية وتلبس الصفات الالهية .

وينقل لنا ابن باجة " ت 583 هـ " وصفا لصنف من الغرباء سموا بالنوابت تشبيها لهم بـ "العشب النابت من تلقاء نفسه بين الزرع" . ⁽³⁾ فهؤلاء هم من لم يجتمع على رأيهم امة او مدينة ، وهؤلاء هم الذين يعنيهم الصوفية بقولهم الغرباء ، لانهم وان كانوا في اوطانهم وبين اترابهم وجيرانهم غرباء في ارائهم فقد سافروا بافكارهم الى مراتب اخرى هي لهم كالاوطان" . ⁽⁴⁾

ومن هنا فان اغتراب هؤلاء هو اغتراب عن النظام غير العادل الذي لم يفرد لهم موقعا ، او هامشا ، حين أدار ظهره لهم ، وسقط هو في زخرف الحياة ، بينما ارتفعوا هم في مصاف الافكار التي عوضوا بها عن الاوطان .

ولعل الغربة بأعلى درجاتها واقساها نجدها لدى ابي حيان التوحيدي " ت 745 هـ " . فلقد عانى هذا الاديب الموهوب من مختلف ضروب العوز ،

⁽¹⁾ المكان نفسه .

⁽²⁾ مدارج السالكين ، ابن قيم الجوزية ، 3 : 128 .

⁽³⁾ رسائل ابن ماجه الالهية ، ص 42 .

⁽⁴⁾ نفسه ، ص 43 .

والغبن، والاهانة، عبر عنها ابلغ تعبير في "الاشارات الالهية" فالغريب عنده هو "من نطق وصفه بالحنّة بعد الحنّة" كيف ولا؟ وهو ((غريب لم يتزحزح عن مسقط رأسه ولم يتزعزع عن مهب انفاسه، واغرب الغرباء من صار غريبا في وطنه، وابعد البعداء من كان قريبا في محل قربه)).⁽¹⁾

انها الغربة الروحية التي تلبست التوحيدى وهو في وطنه فاقامت برزخا بينه وبين مجتمعه، ولذلك نأى بقيمه ومثله، ومواهبه، وتسامى بروحه وأحزانه يتأسى بشكواه، ويتعزى بمناجاته. ثم يستطرد في تفصيل ما ينال هذا الاديب من اهمال، وتنكر واعراض، فيقول: "الغريب من اذا ذكر الحق هُجر" واذا دعا الى الحق زُجر... الغريب من اذا قال لم يسمعوا له، وان رأوه لم يدوروا حوله... الغريب من اذا اقبل لم يُوسع له، واذا اعرض لم يُسأل عنه، الغريب في الجملة كله حرقة، وبعضه فرقة، وليله أسف، ونهاره لهف، وغذاؤه حزن وعشاؤه شجن وخوفه وطن⁽²⁾ فأَيّ طوفان من الجحيم هذا الذي فعرفاه امام ابي حيان فابتلعه، وابتلاه بشاء ابدى، وغربة ازلية؟ ان وراء هذا الاغتراب غنى الفكر، وسعة العلم، ورهافة الاحساس، ولكن المجتمع الفارق في الابتذال، لم يكن يقدر تلك المناقب حق قدرها فكان ذلك البرزخ الرهيب الذي فصل بين الاديب وبين الواقع.

وبعد سقوط بغداد في قبضة المغول، ينتهي العصر العباسي ويبدأ عصر جديد "656-923 هـ" اتسم بالانحطاط السياسى والتفاوت الطبقي، والضعف العلمى والحضارى، في ظل حكام كانوا في الغالب من غيرا العرب، فتشيع الفوضى، ويغيب العدل، وينعدم تكافؤ الفرص، إذ يتقدم الجهلة، ويتأخر العلماء، وتنتعش بعد ذلك ظاهرة الاغتراب في صفوف اهل العلم، والمبدعين،

(1) الاشارات الالهية، ص 83.

(2) الاشارات الالهية، ص 83 - 84.

الذين اعتزلوا أخلاقيات العصر وانتبذوا خارج المجتمع مكانا قصيا . وكان هؤلاء موضوع كتاب "الفلاكة والمفلوكون" ، لشهاب الدين أحمد الدلجي " ت 815 هـ ⁽¹⁾ فالمفلوكون هم ضحايا المجتمع الظالم حين "استعجم الملك وجرى تحطي الحدود ... وزالت احوال البداوة ، من خوف الذمة وشدة الحياء والكرم" وقد استعرض الدلجي ⁽²⁾ نماذج من ((الفلاكة)) في التاريخ العربي وكأنه بذلك يقدم العزاء لمفلوكي زمانه . ولا شك في ان "تغير الاحوال انما هو بتغير الملوك" . ولذلك قبا غرو إذا آل سقوط ⁽³⁾ هيئة الحاكم الى استشراف الفساد ، وتفاقم الاحتكار ، وتأصل الانانية وليس من الغريب في ظل تلك القيم الرثة ان تقبل الدنيا على السوقة ومحترفي الشهوات ، وتعرض عن العلماء وهم "ملوك الناس" ، وليس امام هؤلاء ⁽⁴⁾ المفلوكين الا ان يعزوا انفسهم بترديد هذين البيتين:

ما الناسُ أَلّا مع الدنيا وصاحبها

فكيف ما انقلبَت يوما به وانقلبوا

يُعْظَمون اخا الدنيا فإن وثبت

عليه يوماً بما لا يشتهي وثبوا ⁽⁵⁾

⁽¹⁾ الفلوك لفظة عجيبة بمعنى الرجل غير المحظوظ المهمل في الناس لإملاقه وفقره يُنظر : الاغتراب في الاسلام ، د . فتح الله خليف ، مجلة عالم الفكر، ع 1 ، مج 10 ، 1979 ، هـ ماش صفحة 87 .

⁽²⁾ الفلاكة والمفلوكون ، ص 68 .

⁽³⁾ نفسه ، ص 62 .

⁽⁴⁾ نفسه ، ص 173 .

⁽⁵⁾ الفلاكة والمفلوكون ، ص 173 .

الاغتراب - القضية :

أصبح الاغتراب قضية يتناولها الفلاسفة والمفكرون بالتحليل والبحث في العصر الحديث بعد نشوء المجتمع الصناعي من جهة ، وقيام الحريين الكونيتين وما وافقهما من مشكلات مأساوية ، وما شهدته أوروبا من حروب هنا وهناك من جهة ثانية ، فبعد ان كان الاغتراب يرد فكرة غير واضحة المعالم او كلمة تجيء عرضا دونما قصد في نتاج هذا الفيلسوف ، او ذلك المفكر ، أصبح الآن مسألة ملحة شغلت الفكر الغربي سواء فيما يخص تحديد اسبابه ومظاهره ، او فيما يتعلق بطرائق قهره .

ولعل جان جاك روسو "1712-1778م" هو اول من استعمل كلمة "الاغتراب" صراحة في مؤلفه العقد الاجتماعي ، فقد ورد في الفصل الرابع من الكتاب الاول من العقد ما نصه :

"ان الاغتراب معناه التسليم أو البيع ... فالانسان الذي يجعل من نفسه عبدا لآخر ، انسان لا يسلم نفسه ، وانما هو بالاحرى يبيع نفسه" من اجل بقائه على الأقل . ومن⁽¹⁾ اليسير ملاحظة ما انطوى عليه التعريف من جانب ايجابي يتجسد في تسليم الانسان ذاته الى الكل "والتضحية" بها في سبيل هدف نبيل وكبير كقيام المجتمع او دفاعا عن الوطن . ومن جانب سلبي حين يبيع⁽²⁾ الانسان ذاته في سوق الحياة .⁽³⁾

(1) العقد الاجتماعي ، الطبعة الفرنسية ، ص 45 . وينظر : الاغتراب والوعي الكوني ، د . مراد وهبة ، مجلة عالم الفكر ، ع1 ، مج 10 ، 1979 ، ص 99 . اما في الطبعة العربية فقد ورد ما نصه "فاليبيع هو الشرى او المنح دون ذكر الاغتراب او احد افعاله" ينظر : العقد الاجتماعي ، ص 35 .

(2) الاغتراب ، د . محمود رجب ، ص 60 .

(3) ينظر المكان نفسه .

وعند هيجل "1770 - 1831م" يدخل مصطلح الاغتراب دائرة الاستخدام المنهجي المقصود والمفصل "وبذلك تحول الاغتراب على يديه من مجرد إشكال يعانيه الانسان في عصور الازمة والقلق ، او مجرد فكرة ترنق في أذهان بعض المفكرين ، او كلمة ترد في هذا المؤلف او ذاك تحول الى (مصطلح) فني و(مفهوم) دقيق يطلق عن قصد مقصود ، ومن هنا كان النظر الى هيجل ، من جانب الباحثين ، على انه ابو الإغتراب " .⁽¹⁾

ولسنا في هذا الصدد متجاوزين ما كتبه الفيلسوفان الانجليزيان توماس هوبز "1588-1679 م" وجون لوك "1632 - 1814م" عن الاغتراب وان لم يسميا ، صراحة وانما ادركاه فكرة .

كذلك لا يمكن اغفال ما قدمه كل من كنت "1724-1804م" وفشته "1762-1814م" وشلو من معنى فلسفي "مينافيزقي" للاغتراب .

ومع ماركس "1818 - 1883م" مؤسس الماركسية وكير كجورد "1813 - 1855م" مؤسس الوجودية يبدأ منهجان جديدان للاغتراب يبدأان بالثورة على هيجل وينتهيان بفارق نوعي بينهما ، فقد ركزا على الاغتراب من منظوريهما ، اذ عد ماركس الاغتراب الاقتصادي "الاجتماعي اساس كل اغتراب ودعا الى تكريس رفاهية الانسان وتطمين حاجاته المادية في مجتمع لا طبقي . اما الوجودية فقد كرست جهدها لاعلاء شأن الحرية الفردية وصونها من كل ما يمسها او يخنقها ، وصولا - عند الفريقين - إلى قهر الاغتراب وتتابع خطى الباحثين والمفكرين في طريق "الاغتراب" الى يومنا هذا ، فما دامت المساواة بين الناس غائبة ، وما دامت المشكلات الحضارية قائمة ومتصاعدة ، فان الاغتراب سيظل داء العصر . ولعل "شاخت" لا يتجاوز الحقيقة حين يوجز

⁽¹⁾ نفسه ، ص 15 .

معنى الاغتراب بعدة كلمات فهو يعني في جملة ما يعني "تفاقم السطحية ، وافتقاد الحميمية في العلاقات بين الناس ، وتفتيت مكونات حياتنا" . مضيفا انه غياب الاحساس⁽¹⁾ بجدوى الحياة وتفاقم ظاهرة الالحاد" والمفهوم الاخير⁽²⁾ هو مفهوم معاكس للاغتراب الاسلامي الصوفي .

هيجل والاغتراب السياسي :

منذ مؤلفات الشباب ركز فردريك هيجل "1770-1831م" على الحرية والاغتراب اي : على امتلاك الانسان ذاته "الحرية" ، وعلى انفصاله عن ذاته (الاغتراب) . وقد اقترن كفاحه السياسي مع كفاحه الديني من اجل قهر اغتراب الانسان فقد ناهض النظام الامبراطوري الاستبدادي في المانيا ودستوره الارستقراطي ودافع عن الحرية المصادرة ، ودعا الى الايمان بالعقل . كما هاجم الكنيسة وما اسماء باللاهوت الكهنوتي الجامد ، ولما كان هو نفسه خريج معهد (توينجن) الديني فقد رأى أن الاغتراب السياسي الذي كان نتاج طغيان النظام السياسي سيقترن بالاغتراب الديني الذي هو نتاج سعي الكنيسة لانتزاع الفرد بعيدا عن الارض والواقع باتجاه واقع ما ورائي . فالدين والسياسة عنده لعبا لعبة واحدة ، اذ ان الدين قد علّم الناس ما اراد الطغيان ان يلقّتهم اياه وهو : احتقار الانسانية ، وعجز الانسان عن بلوغ الخير ويحقق ماهيته بجهوده الخاصة⁽³⁾ على حد تعبيره .

لذلك فقد دعا هيجل الى العمل السياسي المدعوم بما اسماء بالدين الذاتي الذي يعني عنده الدين الدنيوي الانساني الذي يتصل بالقلب والعواطف مناقضا للدين الموضوعي : دين اللاهوت الكهنوتي الجامد ، وذلك من اجل

(1) الاغتراب ، ص 15 .

(2) المكان نفسه .

(3) العقل والثورة ، ماركيز ، ص 36 .

بلوغ "روح الشعب" مستلهما في ذلك دولة المدينة اليونانية التي يتطلع مرة أخرى الى بعثها ، ومبادئ الثورة الفرنسية التي استبشر خيرا بقيامها .

ان "العالم الفعلي هو عالم اغتراب ذاتي" عند هيجل ، "اما العالم الآخر فهو عالم يبتنيه الروح لنفسه ... وهو يرتفع فوق العالم الاول" . والعالم الآخر الذي يعنيه هيجل ⁽¹⁾ هو عالم الثقافة "وهو العالم الذي لم يظهر فيه الدين بعد صورة حقيقية كاملة" فاذا كان الروح قد اخفق في ⁽²⁾ التعرف على ماهيته في هذا العالم ، فإنه سيجد ماهيته فيما وراء هذا العالم حين يزول التناقض بين الدولة وبين الفرد البرجوازي . اي ان قهر الاغتراب سيتم من ⁽³⁾ خلال تغلب الوعي على انقسامه وتوزعه ، وتحقيق وحدته وهويته ، واسترداد حريته . ⁽⁴⁾

فويرباخ والاغتراب الديني :

كان لود فيج فويرباخ "1804-1872م" أحد تلاميذ هيجل الشبان غير أنه انفصل عن مثالية استاذة ووضع نظريته المادية منطلقا من انتقاده فكرة الله والدين ، ورفضه فكرة المطلق عند هيجل التي تجسدت في الدولة ، ولذلك رفض ما اصفاه المثاليون على الاغتراب من "صفة الكلية" وقصر ((مجال تطبيق هذا المفهوم على الوعي الديني والفلسفي التأملية)) . لأن الاغتراب الديني ((أساس كل ⁽⁵⁾ اغتراب فلسفي او اجتماعي ، نفسي او بدني" . ⁽⁶⁾ فالدين في

⁽¹⁾ ظاهريات الروح ، بالفرنسية ، ص 350 .

⁽²⁾ نفسه ، ص 377 .

⁽³⁾ ينظر : الاغتراب والوعي الكوني ، د . مراد وهبة ، مجلة عالم الفكر ، ع 1 ، مج 10 ، 1979 ، ص 100 .

⁽⁴⁾ ينظر ، الاغتراب ، د . محمود رجب . ص 169 .

⁽⁵⁾ تطور الفكر الفلسفي ، ثيود اوزيرمان ، ص 176 .

⁽⁶⁾ الاغتراب الديني عند فيويرباخ ، د . حسن حنفي ، مجلة عالم الفكر ، ع 1 ، مج 10 . 1979 . ص 44 .

رأيه جوهر كل نظام سياسي وتبعاً لذلك فإنه يرى أن الإنسان في حاجة إلى "شريعة الدولة الفعلية الإنسانية وليس إلى شريعة الدولة المسيحية".⁽¹⁾

وقد اتخذ فويرباخ من كتابه "جوهر المسيحية" مجالا لنقد الدين المسيحي ومن خلاله الدين بوجه عام ، كما قام بنقد كل الفلسفات التي ساندت الدين واللاهوت كالوضعية والتأملية ولأن الاغتراب عنده يحل في اللحظة التي تصبح فيها "الانا" الآخر "فقد عد اللاهوت مرضاً نفسياً ، كما اتهم العالم باللا أخلاقية والافتقار إلى الروح العلمية . على وفق هذه الرؤية ينتهي فويرباخ إلى أن القوى المارائية والدين أشياء من صنع الإنسان نفسه . كيما يحمي بهما ، ويواجه أزماته .

أما قهر الاغتراب عنده فيمكن في أعمال العقل ، والسيطرة على الظواهر الطبيعية ، والرجوع إلى الحقائق الأولية بعد أن يمتلك حريته ويتعدى عن المطلق .

ماركس والاضطراب الاجتماعي :

خلص كارل ماركس "1818 - 1883م" في نقده الاجتماعي والاقتصادي إلى أن التناقض ليس بين الدولة وبين البرجوازية كما كان يرى هيغل ، بل أن التناقض في صراع المجتمع البرجوازي الداخلي أي في صراع الطبقات . فالظروف الاقتصادية والاجتماعية الخاصة بفائض القيمة هي التي أفضت إلى نشوء اضطراب الإنسان ، وذلك لأن طبيعة النظام الرأسمالي تقوم على "الأنانية والشراسة" وبسبب تقسيم العمل ، والعمل في ظل هذا التقسيم ينتج روائع للثراء ولكنه ينتج العري للعامل⁽²⁾ وتبعاً لذلك فإن ((العامل في العمل ليس

⁽¹⁾ نفسه ، ص 67 .

⁽²⁾ مخطوطات 1844 - الاقتصاد السياسي للفلسفة ، كارل ماركس ، ص 174 .

ملكا لنفسه ، بل هو ملك الآخر)). اي ان ثمة (مفارقة) "تتمثل في" أن رأس⁽¹⁾
المال هو الذي ينتج الانسان في حين ان الانسان هو الذي ينتج رأس المال".⁽²⁾

ان عملية الانتاج على وفق الرؤيا الماركسية هي عملية اغتراب مزدوجة
فالعامل هو الذي ينتج الحضارة وهو المغترب الاساسي ، والرأسمالي هو الذي
يستغل ذلك الانتاج لمصلحته وهو المغترب الثانوي . واذا كان من مصلحة
الرأسمالي المحافظة على وجود العامل لا دامة استثماره الانساني فان مصلحة
العامل تكمن في ازالة الرأسمالي لأن الاخير هو حصيلة جهد العامل ، وما دام
رأس المال "قوة اجتماعية مستقلة ومغتربة"⁽³⁾ فان العملية برمتها "هي عملية
اغتراب عمل العامل ذاته".⁽⁴⁾ لقد وضع ماركس مشكلة الاغتراب "على
اساس جديد بصورة رئيسة وهو يقدم نقدا شاملا للتصورين المثالي التأملي
والثروبولوجي ، ويثرى المشكلة بمضمون تاريخي واقتصادي محدد ، ويكشف
مصادرها المادية ويبرهن على طابعها الزائل تاريخيا".⁽⁵⁾

كما يرى أحد الباحثين . ولأن طبيعة النظام الرأسمالي تفضي الى تشيؤ
انسانية الفرد وان هذا التشيؤ ذو طابع طبقي فان قهر الاغتراب رهن بازالة
التناقض الحاصل بين الحضارة وبين الانسان . فحين تذوب الفوارق
الاجتماعية . ويُستأصل الاستغلال يزول الاغتراب ، اغتراب الانسان ثم
اغتراب الحضارة .

⁽¹⁾ نفسه ، ص 175 .

⁽²⁾ الاغتراب والوعي الكوني ، د . مراد وهبة ، م عالم الفكر ، ع1 ، مج 10 ، 1979 ، ص
103 .

⁽³⁾ ينظر : رأس المال "بالانكليزية" 1: 608 .

⁽⁴⁾ المكان نفسه .

⁽⁵⁾ تطور الفكر الفلسفي ، ثيود أوزيرمان ، ص 176 .

العزلة في منهج مدرسة علم الطبائع الفرنسية :

مع الايمان بأن "تعليل الأثر الادبي بالسيكولوجيا الفردية يظل جزئيا مهما يكن جديدا" بسبب أثر الحياة⁽¹⁾ الاجتماعية في الواقع النفسي الا أن الباحث وجد فائدة في انعطافة سريعة نحو مدرسة علم الطبائع الفرنسية .⁽²⁾

لما في منهجها التحليلي من طرافة . فهذه المدرسة النفسية توزع بني الانسان في ثمانية نماذج طباعية هي : العصبي ، والعاطفي ، والغضبي ، والجموح ، والدموي ، واللمفاوي ، والهلامي ، والحامل . وقد استندت المدرسة الى ثلاثة⁽³⁾ مقومات اساسية للطبع هي : الانفعالية والفعالية والترجيع⁽¹⁾ والنماذج الثمانية هي وليدة تلك المقومات .

⁽¹⁾ علم النفس والادب ، د . سامي الدروبي ، 93 .

⁽²⁾ يعود تاريخ نشأة هذه المدرسة الى العقد الاول من القرن الحالي ، ولكنها لم تنضج الا في عام 1945 بصدد وكتاب "علم الطبائع" للفيلسوف الفرنسي روني لوسين ، استاذ الفلسفة في السوربون ، ثم صدرت تباعا عدة كتب تشرح منهجيا . وبوفاة لوسين سنة 1955 خلفه في الاشراف عليها الاستاذ ادوار مورويسير . ومن بين الدراسات التي نشرتها : علم الطبائع ، وتحليل الطبع ، والخنجل ، والكتاب الهجاؤون ، والحالة ديدرد : دراسة في علم الطبائع الادبي وغيرها . ينظر : علم الطبائع ، د . سامي الدروبي ، 13-14 .

⁽³⁾ نفسه ، ص 54-55 .

⁽⁴⁾ تعني الانفعالية حجم رد الفعل للانسان اتجاه موقف او قضية : فمن يتأثر تأثيرا كبيرا وفوريا فهو انفعالي ، ومن كان تأثيره اقل من وسطي النس فهو لا انفعالي . وتعني الفعالية تفاوت الناس في كثرة الفعل : فالفعال هو الذي "يعمل من تلقاء نفسه باستمرار" دون دافع انفعالي ، ودونما تعب . اما غير الفعال فهو الذي تخور قواه بعد اندفاع مؤقت للعمل ، ولا يعود اليه الا بعد راحة طويلة . ويتوضح الترجيع في سرعة التأثر بالحوادث من عدمها ، فالشخص الذي يضرب بسرعة اذا اسىء اليه ثم لم يلبث ان يعود الى حالته الاولى من الصفاء ذو ترجيع قريب ، اما الشخص الذي يضطرب ببطء مع تفاعل نفسي لمدة طويلة فهو ذو ترجيع بعيد . ينظر : علم النفس والادب ، د . سامي الدروبي ، 157-158 .

وما يهمنا في هذا الموضوع التعرف على النماذج الطباعية القرية من موضوع الاغتراب ، والعزلة ، والوحدة ، تؤثر المدرسة نموذجين يميلان الى العزلة هما : العصبي والعاطفي ، فالنموذج العصبي مطبوع على "التشرد المكاني ... والهروب الى بلاد بعيدة غريبة" ⁽¹⁾ وتندرج ضمن هذا النموذج شخصيات ادبية وفنية عديدة مثل : بيرون ، واد جاربو ، وبود لير ، ود وستوفسكي ، ورامبو ، وستاندال ، وشوبان ، وشاتوبريان ، ولافونتين ، وموزار ، وموسيه ، وهوفمان واوسكار وايلد وسواهم. ⁽²⁾ ومن صفات هذا النموذج : تقلب العاطفة والشاعرية ، والحاجة الى الانفعال ، والميل الى "الموضة" ، والانعطاف نحو الملاهي ، وحب المغامرة ، والانغماس في تعاطي المسكرات والمخدرات ، والنزوع الى الادهاش ، والتشرد النفسي ، والتشرد المكاني ، وغيرها. ⁽³⁾

على ان الذي يهمنا من صفاته هو التشرد ومزاجه القائم على الكآبة والغيرة. ⁽⁴⁾ ويبدو وان الدكتور سامي الدروبي ، قام بدراسة لحياة الشاعر العربي ابي نواس مستندا الى نصوص شعرية ، ومنعطفات خاصة في حياته فأدرجه ضمن هذا النموذج الطباعي. ⁽⁵⁾

فاذا انطلقنا الى النموذج العاطفي وجدنا ان من أبرز صفاته : الشغف بالتأمل ، والانطوائية ، وحب الوحدة ، واسترجاع الماضي ، والكآبة ، والخجل ،

⁽¹⁾ علم الطباع ، د . سامي الدروبي ، ص 86 .

⁽²⁾ نفسه ، ص 78 .

⁽³⁾ ينظر : نفسه ، ص 81-96 .

⁽⁴⁾ لا شك في ان الكآبة بصورة خاصة قد تقود الى العزلة في بعض الاحيان بالرغم من أن كآبة العصبي "تروح وتجيء". ينظر : علم النفس والادب د . سامي الدروبي ، ص 171 .

⁽⁵⁾ ينظر علم الطباع ، 92-94 .

وكره البشر،⁽¹⁾ والشعر الفلسفي والتمرد على الاديان مع بقاء الشعور الديني ،
والنفور من السلطة ، وكره الحديد والسأم ، والطموع المتشوف، وبساطة الحياة
وللتقشف، وغيرها⁽²⁾.

ومن الشخصيات هذا النموذج : مدام أكرمان ، ورو بسير وجان جاك
روسو ، وكر كجرد ، وغيرهم .⁽³⁾

وقد شمل الدكتور سامي الدروبي الشاعر ابا العلاء المعري بهذا النموذج
الطباعي معتمدا عدة نصوص شعرية ، ومواقف حياتية خاصة .⁽⁴⁾ ومع
الاطمئنان - الى حد ما - الى كل الجهود التي بذلتها المدارس النفسية عبر
مراحل التطور البشري فان ما يوضع من قواعد عامة قد لا تكون حصينة امام
استثناءات ما دامت النفس الانسانية تتأثر بالواقع البيئي والاجتماعي .

وكم كان بود الباحث ان يقوم بدراسة الطباع النفسية لشعرائنا الرواد في
ضوء المدرسة الفرنسية لولا ما يتطلبه ذلك من الامام التفصيلي بحياتهم ،
وتوخي الدقة والامانة من خلال تجريح الروايات . الأمر الذي يستلزم وقتا
جهدا غير اعتيادين .

هل الاغتراب خاص بالفنان العبقرى ؟

بات من المؤكد ان الاغتراب على وفق ما استعراضناه بإيجاز هو " حالة
انسانية نفسية اجتماعية تسيطر على الفرد فتجعله غريبا وبعيدا عن واقعه

⁽¹⁾ قد يكون الخجل كرها مؤقتا للبشر ، ينظر : نفسه ، 118 .

⁽²⁾ نفسه ، ص 108-125 .

⁽³⁾ نفسه ، ص 106 .

⁽⁴⁾ نفسه ، ص 113، 110، 114، 116، 117، 119، 120، 125 .

الاجتماعي" ⁽¹⁾ ولكن هناك من يحاول ان يقصر الغربية على الفنان العبقرى حين يقول أن "عبقرية الفنان تجعله غريبا على المجتمع الذى يعيش فيه لانه بحكم تركيبه العقلي والوجداني .. يجد أنه عاجزا عن الانسجام مع الناس فيما يلهون به ... " ⁽²⁾ والسؤال هنا هو هل الغربية مقصورة على الفنان العبقرى من دون غيره من الفنانين غير العباقرة ، ومن دون غيره من الناس الإعتياديين ؟ من المؤكد ان ليس كل فنان عبقرى لانه فضلاً عن أن العبقرية ، قضية ن معقدة لا تزال مفتوحة أمام البحث ، فإن لها خصائص تطبعها ، ومظاهر تنفرد بها على صعيد الذكاء والابداع ، فالذكاء وحده مهما كانت درجة ارتفاعه لا يمكن ان يفسر العبقرية " ⁽³⁾ واذا اراد فنانين النبوغ والعبقرية فقد يفسر لنا الذكاء نبوغ الفرد ، لكن العبقرية شيء آخر غير النبوغ ... لأن الشخص النابغ ليس بالضرورة عبقرى " ⁽⁴⁾ على ان جيلفورد يضع تفسيره الخاص للعبقرى ، فمجموعة الوظائف الخاصة بالادراك والمعرفة ، والوظائف الانتاجية ، ووظيفة التقويم تقدم للعبقرى قسطا اكبر مما تقدمه لغيره في مجال نشاطها مجتمعة " ⁽⁵⁾ ولكن ماذا يقول التحليل النفسى ؟ انه يردّ العبقرية الخالقة الى الغرائز الجنسية مستندا الى أن القيمة الفنية العالية تعويض عن حرمان الفنان مع ان "هناك فنانين يعيشون حياة جنسية سوية ولا يعوّضون بالفن عن الحرمان " ⁽⁶⁾ . وربما كان ثمة ينبوع آخر للعبقرية ولكن التحليل النفسى "لم يستطع ان يكشف عن هذا الينبوع " ⁽⁷⁾ . بعد هذا اذا اقتنعنا بأن الفنانين العباقرة ليسوا بالكثرة التى

⁽¹⁾ عصر النبوية ، اديث كيزور بل ، 264 .

⁽²⁾ سيكولوجية الابداع في الفن والادب ، يوسف ميخائيل اسعد ، ص 101 - 102 .

⁽³⁾ التفسير النفسى للادب ، د. عز الدين اسماعيل ، 31 .

⁽⁴⁾ المكان نفسه .

⁽⁵⁾ ينظر : العبقرية في الفن ، د . مصطفى سويف ، 39-46 .

⁽⁶⁾ علم النفس والادب ، د. سامي الدروبي ، ص 251 .

⁽⁷⁾ نفسه ، ص 252 .

نتصورها ، فان الغربة ليست خاصة بهم من دون غيرهم من الفنانين بل انها تشمل شرائح واسعة من الافراد الاعتياديين ولكن غربة الفنان تتميز بانها تتجسد في اعمال ابداعية من شعر ، ورواية ، ولوحة بينما تبقى غربة الفرد الاعتيادي حبيسة في نفسه لا يملك شيئا يعبر عنها من خلاله غير الكآبة والعزلة. هذا البحث موضوع الاغتراب والغربة : يهتم الباحث أن يشير الى أن المقصود بالاغتراب في بحثه هذا تلك الحالة التي تعرف بانها : "حالة انسانية نفسية اجتماعية تسيطر على الفرد فتجعله غريبا وبعيدا عن واقعه الاجتماعي"⁽¹⁾ ومن ضمن ذلك ما "يأتي في سياق العزلة Isolation [الذي] ... يستعمل في وصف وتحليل دور المفكر أو المثقف الذي يغلب عليه الشعور بالتجرد ... وعدم الاندماج النفسي والفكري بالمقاييس الشعبية في المجتمع " .⁽²⁾ كما يدخل ضمن اطاره "الاغتراب عن النفس ... [الذي] ينطوي على شعور الفرد بانفصاله عن ذاته " .⁽³⁾

وقد ترد في البحث انواع اخرى من الاغتراب والغربة مما لم يرد في المعاجم الاجنبية اللغوية مثل : الاغتراب العاطفي ، والجسدي ، والابداعي ، والاخلاقي ، واللغوي .

ويهم الباحث ثانيا ان يشير الى انه قد يستعمل مصطلح "الوحدة" أو "العزلة" بدلا من الغربة او الاغتراب ، وتجاوزا ، وذلك لأن المعنى الانساني لهما يتوافق على كل المعاني الخصوصية الاخرى .

⁽¹⁾عصر البيئوية ، اديث كيز وريل ، ص 264 .

⁽²⁾الاغتراب اصطلاحا ومفهوما وواقعا ، د . قيس النوري ، م عالم الفكر ، ع1 ، مج 10 ، 1979 ، ص 17 .

⁽³⁾نفسه ، ص 18 .

وانطلاقاً من المفهومات التي وردت في هذه المقتربات الموجزة ، سأحاول ان ادير فصول الرسالة على المحاور المتشكلة من النصوص الشعرية وكل ما له صلة بالموضوع .

الغربة والاغتراب عند الشعراء القدامى :

عانى معظم الشعراء القدامى من الغربة والاغتراب ، وكتبوا من خلالها شعرا خالدا ، يذوب رقة وتفجعا :

فقد تغرب امرؤ القيس "توفي سنة 80 قبل الهجرة" صغيرا وكبيرا : صغيرا عندما انكر عليه ابوه قول الشعر ، فالشعر لا يليق بأبناء الملوك ، فشجب باحدى نساء ابيه ، وخرج مغضوباً عليه في نفر من شذاذ طيء وكلب وغيرهم طلبا للصيد والجون ، ⁽¹⁾ وكبيرا حين تحمل من بين اخوته - وهو الاصغر - مهمة الثأر من قتلة ابيه ، وما قولته الشهيرة : "ضيّعني صغيرا وحملني دمه كبيرا" ⁽²⁾ الا صرخة غربته الروحية المركبة وهكذا "فقد تغرب غربة مزدوجة الاولى عندما تصدعت علاقته بأبيه ، وخرج عن حياته الأسرية ، ثم ازدادت غربته عمقا عندما لحق به الماضي في حياته الجديدة" . ⁽³⁾ وكان مقدرا على الشاعر طرفة بن العبد "ت سنة 70 قبل الهجرة" أن يخرج على مجتمعه ، ويتمرد على قيم القبيلة ، فتتحاماه العشيرة ، وتفرده افراد البعير المعبّد " ، ⁽⁴⁾ فيلتحق بعمر بن هند ملك الحيرة ، فيمدحه - ثم يُغضبه ، فيقتل غريبا . ولم يكن الشاعر عنزة بن شداد

⁽¹⁾ الاغاني ، ابو الفرج الاصبهاني ، 9 : 87 .

⁽²⁾ نفسه ، ص 88 .

⁽³⁾ غربة الملك الضليل ، عبد الرشيد الصادق محمودي ، م فصول ، ع2 ، مج 4 ، يناير / فبراير / مارس ، 1984 ، ص132 .

⁽⁴⁾ ينظر شرح القصائد التسع المشهورات ، 2 : 262 .

العبيسي بعيدا عن الاغتراب الاجتماعي ، الروحي المركب ، بسبب لونه ، ونسبه لأمه وهي الأمة الحبشية . هذا بالإضافة الى أن حبه لعبلة كان عنصرا عاطفيا مضافا الى اغترابه . ولكنه استطاع مواجهته بفروسيته وشجاعته ، فتخلص منه بعد ان انتزع اعتراف المجتمع به ، وتزوج من عبلة .⁽¹⁾

ويعيش الشاعر ذو الرمة "117هـ" غربا اجتماعية عاطفية مزدوجة ، وربما كان مرضه العصبي⁽²⁾ سببا في غربته الاجتماعية وعدم استقراره بالإضافة الى حبه لـ ((سمية)) الذي استمر عشرين عاما ، انتهى من جانبها بزواجها من ابن عمها . وكان في تنقله من المدينة الى الصحراء ، ومن الصحراء الى غيرها كمن "يقابل الغربا باغتراب آخر" .⁽³⁾ وعانى الطرماح "164هـ" غربا سياسية بسبب مذهبه الخارجي واخرى مكانية اختارها بنفسه فهي "حالة من حالات الخروج من الوطن"⁽⁴⁾ طلبا للرزق .

ويعيش الشاعر عمران بن حطان غربا اجتماعية بسبب دمايته ، وحين يعتنق مذهب الخوارج يعيش اغترابا سياسيا يدفعه الى خوض القتال العقيدي ضد السلطة ، ويتسبب في تشرد ، متخفيا بين القبائل ، الى ان يموت غريبا في عمان .

ويعاني الشاعر عوف بن محلم الخزاعي من غربا مكانية مستمرة بسبب تنقله ثلاثين عاما في جيش طاهر بن الحسين ثم مع ولده شاهدا حروب الرى وخراسان وهو الذي خرج من الجزيرة العربية وفي هذا يقول :

(1) ينظر : الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث ، د . ماهر حسن فهمي ، ص 9 .

(2) ينظر : الاغانى ، ابو الفرج الاصبهاني ، 18 : 2 .

(3) الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث ، د . ماهر حسن فهمي ، ص 8 .

(4) دراسات في النص الشعري عصر صدر الاسلام وبنى امية ، د . عبده بدوي ، ص 345 .

أني كل عام غربته ونزوح أما للنوى من وثية فثريح⁽¹⁾

وعانى الشاعر ابو تمام "232هـ" من اغترابات شتى ، فقد ارتحل من قريته "جاسم" الى بغداد ، وعاش فيها غربيا ألّا من خاصة الخاصة ثم تنقل بين مدن واقاليم مختلفة ، ولقي من اجل الرزق والمجد ذل السؤال ، وبؤس التغرب تحقيقا لقوله :

وطول مقام المرم في الحي مخلق للذ يياجثيه : فاغترب وتجدد⁽²⁾

ولكنه سرعان ما دخل في نفق غربه اجتماعية بسبب فشله في الوصول الى ما كان يسعى اليه ، فضلا عما قاساه من فقدته عدد من الابناء.. وعددا من اصدقائه الاوفياء⁽³⁾ وما ناله من اذى الحساد وسعاة الشر حتى انتهى به كل ذلك الى اليأس .⁽⁴⁾ ويقف الشاعر ابو الطيب المتنبّي "354هـ" على ذروة سلم المجد الادبي في الوقت الذي كان يعاني فيه من اغترابات شتى ، فقد ارتبطت قضية الاحساس بالغربة عنده باحساسه بالعروبة .⁽⁵⁾ فثار على ملوك زمانه وقرر "الانفصال ... عن الواقع الاليم والتمرد عليه ورفض القيم التي تسود حياته" .⁽⁶⁾ وقد شبه غربته الاجتماعية - الفكرية - الروحية - المكانية الحادة بغربة الانبياء والمرسلين :

(1) ينظر : طبقات الشعراء ، ابن المعتز ، 187 .

(2) شرح الصولي لديوان اب تمام ، 1 : 48 .

(3) الغربة في شعرا بى تمام ، سلمان التكريتي ، م المورد ، ع 4 ، مج 4 ، شتاء 1975 ، ص 64 .

(4) نفسه ، ص 66 .

(5) دورالاديب في الوعي القومي العربي ، من ملامح العروبة في شعر العصر العباسي ، د . عصام عبد علي ، ص 144 .

(6) المكان نفسه .

ما مقامي بارض نخلة أأنا كمقام المسيح بين اليهود
أنا في أمة - تداركها الله - غريب كصالح في ثمود⁽¹⁾

وقد تعرض الى ما تعرض له من اكبار واستهزاء ، واحتفال واحتقار .
متنقلا من بلد الى آخر حتى لقي مصرعه دفاعاً عن كبريائه ، صارخا من قبره
ان " غربته عن جميع المذاهب القائمة والسياسات الحاكمة لم تسلمه الا الى
الانطواء على شعره ، يحقق به وجوده ، وينشر فيه اعلامه .⁽²⁾ ويعاني الشاعر
ابو فراس الحمداني " 357هـ " اغترابا روحيا - مكانيا بسبب مرارة الأسر
وعذابات الشوق الى الوطن والأهل ، ما انطقه تلك الروميات الخالدة .

ويعيش الشريف الرضي " 406هـ " جملة اغترابات حادة على رأسها غربته
الروحية التي تلبسته بسبب مآسي السلالة الهاشمية التي ينتسب اليها .⁽³⁾ وثمة
غربته الاجتماعية " في مجتمع تضيق فيه القيم " ⁽⁴⁾ فانسلخ عنه ودمه ، فـ " كل
الورى للفاضلين اعادي " ولان العصبية التي عاش معها :

ترى الجور عدل ، وتسمي الضلال دار رشاد⁽⁵⁾

وهناك اغترابه السياسي الذي ارتبط بطموحه المشروع من جهة ،
وبإنتمائه القومي العربي الاصيل بازاء الهيمنة على مقاليد الحكم من جهة

⁽¹⁾ ديوانه 1 / 324 .

⁽²⁾ المتنبي شاعر العظمة والطموح ، د . المنجي الكعبي ، المتنبي مالىء الدنيا وشاغل الناس .
ص 115 .

⁽³⁾ ينظر : الاغتراب في حياة شعر الشريف الرضي ، عزيز السيد جاسم ، ص 31 .

⁽⁴⁾ من ملامح العروبة في شعر العصر العباسي ، د . عصام عبد علي ، دور الاديب في الوعي
القومي العربي ، ص 149 .

⁽⁵⁾ ديوانه ، 1 : 298 .

أخرى. ⁽¹⁾ ولأبي الحسن علي ابن زريق البغدادي "ت سنة 420 هـ" قصة هي أقرب إلى المأساة فقد قيل أنه كان من شعراء بغداد الفقراء ، وأنه أراد الزواج من فتاة يهيم بها فلم يستطع لفقره ، فسافر إلى المغرب ، ثم إلى الأندلس ، ولكنه وُجد يوماً ميتاً وتحت وسادته كانت عينيته المشهورة والتي يشكو فيها حاله وقصته مع الرحيل والتي مطلعها :

لا تعدليه فان العدل يولعه قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه ⁽²⁾

أما الشاعر الخالد أبو العلاء المعري "ت سنة 449 هـ" فقد عاش اغتراب النفس ، واغتراب المكان ، واغتراب الجسد . فقد ولد عريقاً ، ولكنه نشأ زاهداً متقشفاً ، عازفاً عن لذائذ الدنيا ، مؤثراً الفقر ، وقد حبس نفسه ولزم بيته بالمعرة ، احتجاجاً على المجتمع ، بعد أن فقد إيمانه بالإنسان بسبب تناقض قوله مع فعله ، وسيادة نزعة الشر في سلوكه كما فقد إيمانه بالحياة ، بالرغم من حبه لها ، لما لقيه من احباط ، في وقت نال فيه من هم دونه في الوعي ، وفي الشعور الإنساني - وفي الموهبة فوق ما يستحقون. ⁽³⁾

وفي بلاد الأندلس يبدو أنّ معظم الشعراء مغتربون ، فقد تفتّش شعر الغربة بشكل لافت للنظر ، وقد عبر عن هواجس الاغتراب "خير تعبير فكانت هناك الكثير من القصائد التي تصور الغربة عن الوطن وما يرافقها من حنين إليه جعلتها تظن أن الشعر الأندلسي ما وضع إلا للغربة والحنين .. رغم وجود الفنون والأغراض الأخرى". ⁽⁴⁾

⁽¹⁾ ينظر : الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي ، عزيز السيد جاسم ، ص 79 ، وما بعدها .

⁽²⁾ ينظر : أدباء بغداديون في الأندلس ، د . محسن جمال الدين ، ص 26 .

⁽³⁾ ينظر : التشاؤم في رؤية أبي العلاء ، عبد القادر زيدان ، م . فصول ، ع 2 ، مج 4 ، 1984 ، ص 215 .

⁽⁴⁾ الغربة والحنين في الشعر الأندلسي ، أحمد حاجم محمد ، رسالة ماجستير ، على الآلة الكاتبة ، ص 57 .

الاغتراب والمثقف العربي المعاصر :

يعاني الانسان العربي عامة ، ولا سيما المثقف من اشكال اغترابية مختلفة، تبدو آثارها عليه من خلال ما يتخذه من موقف ازاءها . وهذا الموقف يتراوح بين الانسحاب من الواقع الى هامش الحياة ، او الرضوخ للنظام القائم والاندماج في مؤسساته ، او التمرد الفردي ... او الثوري الجماعي من اجل تغيير الواقع⁽¹⁾ او الهجرة الى الخارج⁽²⁾ بحثا عن فرص أفضل في الحياة ، ويرى الباحث ان هناك سببين جوهريين لاغتراب المثقف العربي هما : الاول يتصل بقضية الحرية وما يتعلق بها من مداخلات السلطة السياسية والاجتماعية والدينية⁽³⁾ . والثاني هو صدمة المثقف العربي بإنهيار مشروع الانبعاث القومي النهضوي ومبادئه السياسية والاجتماعية والثقافية "حين تكشف الرؤيا عن سراب ، وحلت فجيعتان : الاولى هي ان الواقع لم يتغير وفقا للرؤيا ، والثانية سؤال يتأكل الضمير : كيف تكذب الرؤيا ، مع ان يقين الرؤيا يعلو على يقين الواقع " .⁽⁴⁾

وتبعاً لذلك فقد نشأت اشكال شتى من الاغتراب "الاقتصادي، والسياسي، والحقوقى، والايديولوجي ..."⁽⁵⁾ واذا ما انتقلنا من التعميم "المثقف العربي" الى التخصيص "الشاعر العربي" سنجد ان تفشي الاغتراب بات طرديا مع تعقد الحياة ، وتفسخ المجتمعات من جهة ، ولأن الشاعر من جهة اخرى اسرع من غيره الى الاصابة بهذا الداء لانه يتمتع "بقدر غير اعتيادي من الرهافة

⁽¹⁾ ينظر : اغتراب المثقف العربي ، د . حليم بركات ، م المستقبل العربي ،

⁽²⁾ ينظر : اغتراب المثقف العربي ، د . سلمى الخضراء الجيوسي ، نفسه ، ص 113 - 116 .

⁽³⁾ ينظر نفسه ، ص 116 .

⁽⁴⁾ ادب الحديث بين الرؤيا والتعبير ، ريتا عوض ، ص 69 .

⁽⁵⁾ اغتراب المثقف العربي ، د . فيصل دراج ، م . المستقبل العربي ، ع 2 ، تموز ، 1978 ،

والتوتر والحساسية والقدرات".⁽¹⁾ والشاعر ، اضافة الى ذلك ، بطبيعة تكوينه يعيش الاغتراب مركبا ، لانه - كما يقول يونج - : "انسان جمعي يستطيع ان ينقل ويشكل اللاشعور او الحياة الروحية للنوع البشري".⁽²⁾

ففي مطلع هذا القرن ، تأثرت طليعة الشعراء العرب بالنزعة الرومانسية التي ظهرت في الغرب ، فعاشوا اشكالا من الاغتراب ، والغربة التي يُعد ((جبران رائدا لها))⁽³⁾ حين أسس أبرز ملامح الرومانسية العربية فاتخذ من الليل حبيبا يأوى اليه ، ويثبته همومه حدا للتوحد فيه ، وبذلك جعل منه "منبع الشعر والوحي والاهام ، والملاذ الذي يلوذ به الشاعر المتوحد في غربته واغترابه".⁽⁴⁾

ولم يقف جبران عند حدود الغربة الروحية - والمكانية بل تجاوزها الى الغربة اللغوية حين وجد نفسه محاصرا بسحر حضارة الغرب فتتكرّر لأتمته "فكّ انتماءه القومي بشكل صريح ، وهاجم اللغة العربية ثم انتهى الى العامية...".⁽⁵⁾ وها هو ذا يصرخ : "لكم لغتي ولي لغتي".⁽⁶⁾ وعاش الشواء المغتربين في المهاجر ، مثله ، مرارة الغربة ، وآلام الابتعاد عن الاوطان ، والحنين اليها ، كما عانوا - على البعد - مما اصابهما من ويلات ومصائب ، فهؤلاء الذين ضاقت

(1) تطور الشعر العربي الحديث في العراق ، د . علي عباس علوان ، ص 91 .

(2) التفسير النفسي للادب ، د . عز الدين اسماعيل ، ص 38 .

(3) مذاهب الأدب الغربي ، د . سالم احمد الحمداني ، ص 146 .

(4) في شعر نازك الملائكة ، د . جابر عصفور ، ص 513 . نازك الملائكة ، دراسات في الشعر والشاعرة ، رمزية الليل قراءة

(5) دور الاديب في الوعي القومي العربي ، دور الاديب في الوحدة العربية ، الشعر بين الحر وبين ، د . علي عباس علوان ، ص 254 .

(6) البحث عن معنى ، دراسة نقدية ، د . عبد الواحد لؤلؤة ، ص 132 .

بهم سبل العيش في الاوطان وسكنوا المهاجر "قد شعروا بالعزلة في المدن الصناعية الكبرى التي يتطاحن فيها البشر ويتصارعون على المادة ، ولا يجد فيها الغريب الا الوحشة والضيق" .⁽¹⁾ وضمن رجيل الشعراء الغرباء يبرز الشاعر ابو القاسم الشابي الذي كان "مثل جبران يقرن الليل عنده بلحظات التوحد حين تنفصل الانا المبدعة للشاعر عن الآخرين".⁽²⁾ فعاش غربة روحية في وطنه ، ناحيا باللائمة على شعبه المستكين ، متأملا أسرار الوجود بقلق ، وحزن وجود بين ، مودعا جبال الهموم ، وناشرا قلاع في الخضم العظيم :

الوداع الوداع	يا جبال الهموم
يا ضباب الأسى	يا فجاج الجحيم
قد جرى زورقي	في الخضم العظيم
ونشرت القلاع	فالوداع الوداع ⁽³⁾

ويدخل الشاعر علي محمود طه شرنقه الاغتراب الرومانسي - الروحي وهو "الشاعر الكتيب" الذي يقضي ليله "غارقا" في شجونه و "الآدمي الشقي الذي يلتمس حنان" ⁽⁴⁾ الا رضى بعد أن :

هبط الارض كالشعاع السني بعضا ساحر وقلب نبي⁽⁵⁾

⁽¹⁾ في الادب الحديث ، عمر الدسوقي ، 2 / 220 .

⁽²⁾ نازك الملائكة ، دراسات في الشعر والشاعرة ، رمزية الليل قراءة في شعر نازك الملائكة ، جابر عصفور ، ص 516 - 517 .

⁽³⁾ ابو القاسم الشابي ، شاعر تونس ، الطاهر قيقه وآخرون ، ص 76 .

⁽⁴⁾ ينظر ديوان علي محمود طه ، ص 38 و 87 .

⁽⁵⁾ نفسه ، ص 11 .

وبعد الحرب الكونية الثانية ، احس العدد من الشعراء العرب باغترابهم سواء منهم "الذين تركوا اوطانهم رغبا او رهبا" ⁽¹⁾ او الذين يعيشون داخل اوطانهم في عالم مأساوي . ⁽²⁾ ففي الجزائر لم يسلم الشعراء - ابان معارك التحرير - من الاغتراب السياسي والثقافي كانعكاس لسياسة فرنسا في مستعمرتها ، فعلى الرغم من أن هؤلاء الشعراء على "عتبة العشرين من اعمارهم" الا انهم تشابهوا "في نظرتهم القائمة للحياة" وصدروا "عن سأم قاتل من الدنيا ، وتطلع الى ما ورائها" . ⁽³⁾ ويبرز الشاعر مالك حداد من بين الشعراء الجزائريين متسرבלا غربتين : مكانية - ولغوية فقد "توحد في حزنه بالذات والموضوع معا ، فعدا عن حزنه المقيم لاغترابه ونفيه ولكونه لا يعرف العربية ، ولانه يفقد الاصدقاء والرفاق شهداء في الحروب والنصال ... فانه ليحزن كأبي شاعر مرهف الحس" . ⁽⁴⁾ وهكذا عاش الشاعر منفيين : منفي الوطن ، ومنفي اللغة ، وتزايد أفواج الشعراء المغتربين مع الانتكاسات القومية يتصدرهم شعراء أثروا مسيرة شعرنا العربي بعباء خصب نذكر منهم على سبيل المثال : صلاح عبد الصبور ، وعبد الله البردوني ، وخليل حاوي ، وعبد الباسط الصوفي ، وشعراء الرواد : بدر شاكر السياب ، ونازك الملائكة ، وعبد الوهاب البياتي ، وبلند الحيدري ، وازاء ما كان يعانيه هؤلاء من آلام الاغتراب ، وقساوة الواقع فقد مات منهم مَن مات كمدا ، وانتحر منهم مَن انتحر احتجاجاً ، وصمت منهم مَن لم يجد القدرة على الاستمرار ، واستمر مَن وجد ذاته طاقة للتمرد ، وهكذا هي عجلة الاغتراب ، تدوس ضحاياها ، عمياء ، وهكذا هي ردود فعل ضحاياها رافضين او مستسلمين .

⁽¹⁾ دراسات الشعر الحديث ، د . عبده بدوي ، ص 21 .

⁽²⁾ الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث ، د . ماهر حسن فهمي ، ص 110 .

⁽³⁾ الشعر الجزائري ، صالح الحرفي ، ص 18 .

⁽⁴⁾ دراسات ادبية ، د . جليل كمال الدين ، ص 106 .

الفصل الأول

انحطاط الاغتراب لدى الشعراء الرواد

يعرف بعضهم الاغتراب " بأنه عملية صيرورية تتكون من ثلاث مراحل متصلة اتصالاً وثيقاً " .⁽¹⁾ فالمرحلة الاولى تتكون نتيجة لوضع الفرد في البناء الاجتماعي ، ويتدخل وعي الفرد لوضعه في تشكيل المرحلة الثانية ، اما المرحلة الثالثة فتنعكس على تصرفه انساناً مغترباً على وفق الخيارات المتاحة امامه .⁽²⁾

وغربة الشعراء الرواد الاربعة لا تخرج عن نطاق المراحل المذكورة ، فقد ربطت المؤسسة السياسية القائمة آنذاك العراق بعجلة الاستعمار ، وصادرت الحريات العامة والشخصية ، وأفقرت الشعب ، كما اتسم الوضع الاجتماعي بسيادة القوى المحافظة ، وجهود التقاليد ، وكان على الشاعر ان يدخل معركة الحرية والتقدم ضد القوى والمؤسسات الحاكمة والمنفذة . وليقين الشاعر بأن معركته خاسرة لانعدام تكافؤ قوى الصراع ، فقد وجد نفسه غريباً في محيط قاس ، بعد ان وعى المأساة ، وكافح من اجل الخلاص دون جدوى ، ومن هنا فقد تشكل في داخله رد الفعل المناسب على وفق قدرته ووعيه ، فقد يتابع مواجهة التحدي من خلال اساليب تتخذ طابع التمرد الفردي حيناً ، وتندمج في البؤر الثورية الجماعية حيناً آخر ، وقد ينكفيء على نفسه لائذاً بها، هارباً من الواقع، ومعتزلاً بالمجتمع .⁽³⁾

⁽¹⁾ غربة المثقف العربي ، د. حليم بركات ، م المستقبل العربي ، ع2 ، تموز ، 1978 ، ص 106 .

⁽²⁾ ينظر : المكان نفسه .

⁽³⁾ ينظر ، نفسه 106 - 107 .

ولم يخرج الشعراء الرواد الاربعة عن هذا التشخيص : فقد تابع السياب والبياتي والحيدري ومواقفهم الرافضة ، كل بطريقته الخاصة وان ضمها اطار واحد ، بينما استدارت نازك نحو ذاتها تلهبها جلداً وكانها تقتص منها .

ومن خلال دراسة النص الشعري اولا ، والاحاطة بما تيسر من احداث ومواقف عاشها الشعراء ، وجد الباحث ان اغترابهم لم يكن واحداً في تصنيفه بل اتخذ عدة انماط : فهناك الاغتراب الاجتماعي ، والسياسي ، والعاطفي والمكاني ، والروحي . وهنا لا بد من الاشارة الى انه من التعسف توصيف كل غربة على حدة لان مظاهر الغربة عموماً هي واحدة : مثل العزلة او شبه العزلة ، والشكوى ، والتطلع الى مثال غير موجود ، والبحث عن يوتوبيا خاصة ، اما تسمية الغربة بالاجتماعية ، أو بالسياسية ، أو بالعاطفية فذلك راجع - كما يعتقد الباحث - الى دواعي الغربة نفسها التي امدتها بعناصر النمو .

على وفق هذا التبسيط سيتناول الباحث اغتراب الشعراء الرواد من خلال النص الشعري ومن خلاله ما يدعمه من رأي او موقف جاء على لسان الشاعر او باقلام نقاده ودارسيه .

الاغتراب الاجتماعي

في جيکور تبدأ غربة السياب الاجتماعية ، والتي ستقوده الى "تجارب مشبعة بالمرارة والالام .. ومن ابرزها تجاربه في الحب ، والثورة ، والحاجة ، والحنين الى الماضي ، والمرض الويل " .⁽¹⁾ وقد ولدت هذه الغربة من رحم ظروف واحداث لم يكن للسياب يد فيها ، اولاهها دمامة وجهه وهزال جسمه ، فهي هو يصف نفسه قائلاً :

⁽¹⁾ بدر شاكر السياب ، رائد الشعر الحر ، عبد الجبار داود البصري ، ص 7 .

واهـي الكـيـان كـأن خـطـبـا هـذه ذـاوي الشـفـاه لـطـول ما يـتـنـهـد
وهـو المـعـطـل مـن قـوام فـارع يـسـيب العـيـون ووجـنـة تـورـد⁽¹⁾

ولو كان السياب انسانا اعتياديا لقنع بالانزواء في احدى زوايا المجتمع وكان نسيا منسيا ، ولكنه شاعر يعتلي المنابر ، ويتصدر المناسبات ، ويتعقب الجمال ، لذلك كان قبحه خنجرا في خاصرته ، وربما سمع بسبب ذلك ما لا يسره لأن هيئة الخلقية كانت ناتئة في حياته الى الحد الذي عجز عن التغاضي عنها او التقليل من شأنها .⁽²⁾ ان هذا الأمر وحده كاف لأن يشكل بؤرة اغتراب حاد⁽³⁾ فكيف لو تضافرت معه عناصر اخرى في مقدمتها : وفاة امه وهو في السادسة من عمره ،⁽⁴⁾ فيفتقد بذلك حنانا هو أحوج ما يكون اليه في حياته الاولى التي تصورها خريفا طويل الليالي بعدها ، يقول :

في ليالي الخريف الطوال

آه لو تعلمين

كيف يطغى عليّ الأسى والملائ ؟!

⁽¹⁾ ديوانه : قيثارة الريح 2 / 337 .

⁽²⁾ ينظر : بدر شاكر السياب ، حياته وشعره ، عيسى بلاطة ، ص 144 للاطلاع على اوصافه الجسدية .

⁽³⁾ يقول السياب انه : "خلق مريضاً دون مرض ، ضعيف الجسم ، هزيل البنية ، دميم الوجه" . ينظر : م الاسبوع الاعربي ، ع 608 ، 1971 ، نقلا عن الشعر العراقي الحديث مرحلة التطور ، د . جلال الخياط ، ص 153

⁽⁴⁾ ينظر بدر شاكر السياب ، حياته وشعره ، عيسى بلاطة ، ص 22 .

في ضلوعي ظلام القبور السجين

في ضلوعي يصيح الردى

بالتراب الذي كان امي¹ خدا

سوف ياتي ، فلا تُقلقي بالنحيب

عالم الموت حيث السكون الرهيب⁽¹⁾

ان الموت الذي اخترم امه سيكون كالطير الذي يحوم فوق رأسه ، يلاحقه في كل مكان ، وينغص عليه حياته في كل حين ، والطفل الذي افتقد امه قبل ثلاثين عاما يستيقظ الآن في صدر الشاعر حالما ، من فرط الوحدة والألم ، بلقاء الوجه الذي غيبته السنون ، متصورا ان ذلك سيضع حدا لآلامه ، فحين يشتد عليه المرض ، ويأس من الشفاء يتوسل بقبر أمه ان يفتح ذراعيه لاستقباله⁽²⁾ وحين ترتخي عنه قبضة المرض ، تضيء له بارقة من امل فيخاطب أمه قائلا :

أماه ليتك ترجعين

شبحاً ، وكيف اخاف منه وما احمى رغم

السنين

قسمات وجهك من خيالي⁽³⁾

ومن عناصر غربته الاجتماعية موت جدته ، وزواج ابيه ، اما موت جدته فقد "جعله ... وحيدا مستوحشا"⁽⁴⁾ ،

¹ ديوانه ، ازهار واساطير / 1 / 68 .

⁽²⁾ ينظر : نفسه ، منزل الاقنان 1 / 237 .

⁽³⁾ نفسه ، شناسيل ، ابنة الجلي ، 1 / 616-616 .

⁽⁴⁾ بدر شاكر السياب حياته وشعره ، عيسى بلاطة ، ص 30 .

فهو الصدر الذي احتضنه بعد رحيل أمه ، وقد فقد بغيابها آخر معين له ،
يقول :

جدتي من أبث بعدك شكواي طواني الأسى وقل مُعيني
أنت يا مَنْ فتحت قلبك بالأمس
لحي أوصدت قبرك دوني⁽¹⁾

ولنلاحظ المفارقة التي أحدثتها الصدمة في نفس الشاعر : الجدة التي
فتحت قلبها بالأمس له ، توصلت باب قبرها دونه اليوم ، فبين انفتاح القلب
الامتلاء ، وانغلاق المقبر "التلاشي" تمتد غربة الشاعر ، وتسد عليه مسارب
التنفس. أمّا زواج أبيه بعد وفاة أمه ، فقد حرّمه من عطف بات أبعد من خيال
أي امرأة يشتهيها : انه التشبيه المستحيل ، يقول الشاعر :

خيالك من أهلي الأقربين أبرّ وإن كان لا يعقل
أبي.. منه قد جردتني النساء وأمي طواها الردى المعجل⁽²⁾

انها نجوى الوحيد الذي يتأكله الحرمان ، وتغرز الغربة من جميع الجهات.
وعانت نازك الملائكة من الغربة الاجتماعية التي كانت مدخلا لغربتها
النفسية فيما بعد . ففضلا عن الاحساس الشعري المرفف الذي جبلت عليه
منذ صباها وكان أحد اسباب عزلتها ، كان ثمة عوامل اهتمتها فكرة الاعتزال .
أولى هذه العوامل نشأتها في محيط ثقافي أسري خاص أسسه الابوان
الشاعران ، استمد جذوره الاولى من جدها لامها الذي كان "شاعر القرن

(1) ديوانه ، البواكير ، 2 / 104 .

(2) نفسه ، 151 ، ينظر : ديوانه ازخهار واساطير 1 / 79 - 80 .

التاسع عشر".⁽¹⁾ وقد اتخذ تأثرها بهذا الجو منحنيين ، تجسد الاول في قراءاتها الادبية الشعرية ، مقترنة بانعطافها نحو رموز المدرسة الرومانسية ، وحين تكون الرومانسية "حالة نفسية اكثر منها مذهبا فنيا ... تتدفق في ابداع الشاعر نغما حزينا وفكرا متشائما نتيجة المرارة والخيبة ، وفي اعقاب الحزن والازمات".⁽²⁾

أدركنا ان تعاطف نازك مع عاشقي الليل ، واصدقاء الحزن ، لم يكن اعتباطيا اما المنحنى الثاني فقد تمثل في انكبابها على قراءة التراث الفلسفي الذي قربها من الالمانى المتشائم "شوبنهاور" بل جعلها اكثر تشاؤما منه.⁽³⁾

وكانت حصيلة هذه الثقافة المتنوعة ولادة شاعرة انسانة تميزت عن بنات جنسها . وقد كتبت نازك عن ذلك تقول انه كان "بسبب احساسى الدائم بأنني اختلف عن سائر البنات اللواتي في سني ، فانا كثيرة المطالعة ، محبة للشعر والغناء ، جادة ، قليلة الكلام ، بينما هن لا يطالعن ولا يعبان بالفن وليس لهن من الجد في الحياة الا يسير"⁽⁴⁾ وهكذا كان اعتزالها بنات جنسها خطوة اولى نحو اعتزالها المجتمع .

وثاني العوامل التي اهتمتها فكرة الاعتزال ما تركته في نفسها المآسي "التي سببتها الحرب العالمية الثانية"⁽⁵⁾ والدمار الذي لحقته بالبشرية الأمر الذي سفّه الحياة بنظر الشاعرة ، في الوقت الذي جعلها فيه تخاف الموت .

(1) نازك الملائكة الموجة القلقة ، ماجد احمد السامرائي ، ص 9 .

(2) شاعران امام الموت لوركا ونازك الملائكة ، الطاهر احمد مكى ، نازك الملائكة دراسات في الشعر والشاعرة ، ص 193 .

(3) ينظر : مقدمة ديوانها مأساة الحياة واغنية للانسان ، 1 / 6-7 .

(4) لمحات في سيرة حياتي وثقافتي ، اوراق مطبوعة على الآلة الكاتبة ، ص 18 .

(5) ينظر مقدمة ديوان مأساة الحياة واغنية للانسان ، 1 / 7 .

وثالث هذه العوامل رفض الشاعرة التقاليد الاجتماعية الصارمة سيما منها تلك التي تتعلق بجرية المرأة ، وتجد لهذا الرفض اصداً عميقة في نفس نازك من المرارة والالم ، والتوق الى التغيير في آن ، ⁽¹⁾ ولا يخفى ان عجز الشاعرة عن التغيير سترك آثاره السلبية من الآن ، في موقفها من المجتمع ، والوجود .

اما العامل الرابع ، وان كان ذا تأثير ثانوي ، فهو ما ترسب في نفس الصبية نازك من مشاعر الرعب بازاء حيوانات حفلت بها منطقة سكنى عائلتها يومئذ مثل حيوان "البزير" الذي اسمته "كابوس طفولتها" ، ومثل بنات آوى التي هاجمت ذات ليلة جارهم بعنف . ⁽²⁾ تلك هي العوامل التي يرى الباحث انها ربما اسهمت في تشكيل غربة الشاعرة الاجتماعية واضطرتها الى الاعتزال ، وصولاً الى غربة نفسية قاسية . ولعل تلك الغربة هي التي كانت وراء تأصيل موقف نازك من الليل ، والوجود ، والموت ، والايمان ، والحب ، وهي الموضوعات التي وسمت غربتها في رحلتها الشعرية الاولى واستمرت بعد ذلك الى حين . في البداية ترسمت نازك خطى بعض الشعراء الرومانسيين في الاحتماء بالليل ، والهرب من النهار ، مثل جبران ، وابي القاسم الشابي ، وعلي محمود طه ، هرباً "من حياة الواقع الخشن التي يمثلها النهار ، الى حياة الحلم والمثال التي يمثلها الليل" ⁽³⁾ والذي اصبحت تعبير دقيقاً عن ذات الشاعرة المغتربة ، التي رأت في الليل ما لا يراه فيه الآخرون من ضوء خفي ، وحب

⁽¹⁾ ينظر بصدد ذلك : التجزيئية في المجتمع العربي ، نازك الملائكة ، الصفحات 31 و 38 و 40 و 41 .

⁽²⁾ ينظر : لمحات من سيرة حياتي وثقافتي ، نازك الملائكة ، اوراق مطبوعة على الآلة الكاتبة ، ص 16 .

⁽³⁾ رمزية الليل قراءة في شعر نازك الملائكة ، د . جابر عصفور ، نازك الملائكة دراسات في الشعر والشاعرة ، ص 513 .

مستتر وهما ، عندها ، حقيقة الحياة الطاهرة التي تسعى اليها بعد ان تخلت عن
حياة قائمة على الزيف ، تقول نازك:

ان اكنُ عاشقة الليل فكاسي
مشرقاً بالضوء والحب والبريق
وجمال الليل قد طهر نفسي
بالدجى والهمس والصمت العميق
ابدا يملأ اوهامي وحسي
بمعاني الروح والشعر الرقيق
فدعوا لي ليل احلامي وباسي
ولكن انتم تباشير الشروق⁽¹⁾

ولأن الوضوح المألوف اقترن بالنهار ، وهو وضوح مزيف كما تراه ،
فهي تشوف الى وضوح حقيقي هو لا يدركه الا الذي استكنه⁽²⁾ بمثابة المحال ،
فللمحال جمال لا يدركه إلّا الذي استكنه خفاياه .

أما الوجود فكان في نظرها لغزا محيرا عجزت عن فهمه ، وكانت موقنة
أن السعي لفهمه عبث لا طائل وراءه فاذا كان "سر الحياة" لغزا عند "الحكماء"
فأولى بها ان تياس فتستريح ، ولكن اغترابها عما حولها ، يدفعها الى⁽³⁾ التساؤل
الملح لعلها تظفر يخفف من عزلتها .

⁽¹⁾ ديوانها ، عاشقة الليل 1 / 493 - 494 .

⁽²⁾ ينظر نفسه ، قرارة الموجة 2 / 284 .

⁽³⁾ ينظر نفسه ، مأساة الحياة واغنية للانسان 1 / 21 و 23 .

اما الموت فقد كان " واحدة من المشكلات التي قادت نازك الى فكرة العدم في مرحلة الشباب " ، وذلك انعكاس ⁽¹⁾ لوعيها اليقظ ونتائج قراءتها الفلسفية ، وتطلعها الى ما هو ابعد من متناول البشر ، ولذلك ظل الموت يقض مضجعها ، لأنه " اتجاه هذا العالم الذي لا يفهم ، وهذه الحياة اليومية المضحكة ، واتجاه هذا التشخيص الايمائي الذي لن ينتهي الا بالموت " كما يقول روبيرد وبلييه ، اقول اتجاه ذلك كله يحاول الوعي الحاد استنطاق ما يخلقه من رؤى جديدة محاولا حل ما يتصوره فيها من الغاز لعلها تشبع فهمه في ارتياد المجهول ، ولذلك فقد وقفت نازك مستوفزة ليس أمام ولكن أيضاً أمام ما في الحياة وما وراءها الموت وما ورائه من اقرار فحسب . وهي نفسها تعترف بانه لم تكن ⁽²⁾ " محقة " كارثة اقسى من الموت " ولذلك اسمته ⁽³⁾ " مأساة الحياة الكبرى " ، فثمة اذن طقسان لهذا ⁽⁴⁾ الوجود : الحياة وهي الطقس الحاضر ، والموت وهو الطقس الغائب ، تقول الشاعرة مخاطبة الحياة :

أيّ قبرٍ اعددت لي ؟ اهو كهف

ملءُ انحاء الظلام الداجي ؟ ⁽⁵⁾

وكما عجزت عن فهم الحياة نفقد عجزت عن فهم الموت وما هي تتأسى
بالثاني عن الأول ، تقول :

هل فهمتُ الحياة كي افهم الموت

⁽¹⁾ نازل الملائكة دراسة ومختارات ، عبد الرضا علي ، ص 56 .

⁽²⁾ كامو والتمرد ، ص 14 .

⁽³⁾ : مقدمة ديوانها مأساة الحياة واغنية للانسان 1 / 7 . ينظر

⁽⁴⁾ المكان نفسه .

⁽⁵⁾ المكان نفسه .

وادنو من سره المكنون

لم يزل عالم المنية لغزا

عزّ حلاً على فؤادي الحزين⁽¹⁾

لقد كانت الحياة عند نازك اغتراباً مرحلياً ، يفضي الى الموت وهو الاغتراب الابدي واذا كانت الحياة قاسية ، فالموت اقسى ، واذا ارتضت الحياة اغتراباً مؤقتاً ، راحة ، فانها لا تستطيع الموت اغتراباً ازلياً جاهلة ما سيحمل عند ابوابه وخلف جدرانها من مخاوف تقول الشاعرة :

آيها الموت وقفة قبل أن تغري بجسمي سكوتك الأبدية

آه دعني أملاً عيوني من الأنوار وارحم فؤادي الشاعرية⁽²⁾

وهكذا ينبثق وعي الشاعرة في اللحظات الحاسمة فيتشبث بالحياة لا ايثارا لها على الموت ، ولكن خشية ما بعد الموت بسبب الشك بما بعده .

يشير موقف نازك من الوجود ، والموت ، الى ان عقلها كان ذا حيوية بالغة ، حين يقف امام الظواهر وقفة المتأني ، والمتطلع العنيد ، ولأن العقل الحيوي يدرك اكثر من سواء معنى التفاهة فقد وقفت نازك حائرة معذبة امام⁽³⁾

ما يحيط بالانسان من قوى مدمرة ، وظواهر مستعصية على الفهم ... وكانت مرحلة "الاحاد والتشكك الفظيع" التي مرت نازك بها ما بين "1948-1955"⁽⁴⁾

⁽¹⁾ نفسه ، ص 35 .

⁽²⁾ ديوانها ، عاشقة الليل ، 1 / 505 .

⁽³⁾ ينظر سقوط الحضارة ، كولن ولسن ، ص 93 .

⁽⁴⁾ ينظر لمحات من سيرة حياتي وثقافتي ، نازك الملائكة ، اوراق مطبوعة على الآلة الكاتبة ، ص 19 .

تشير الى ذروة تأزمها النفسي ، ربما بسبب ما شهدته على المستويين الذاتي الخاص ، والانساني العام من عذابات لم يتداركها الخالق بلطفه كما كانت تتوقع أو تتمنى ، ولذلك لم يكن متاحا لها - بازاء ما تشهده من استفحال الشر واستشراء الخراب - الا الشك ، ولذلك فهي تتساءل :

ماذا وراء الحياة ماذا؟ اي غموض وأي سر؟
وفيم جئنا؟ وكيف نمضي؟ يا زورقي بل لأي بحر؟⁽¹⁾

وقد الهمها الشك الاهتداء الى ما اسمته بالقدر الذي ترى انه هو الذي يقود الانسان الى المصير المجهول ، تقو في ذلك :

نحن اسرى يقودنا القدر الاعمى الى ليل عالم مجهول
ليس منا من يستطيع فكاكا ليس منا غير الاسير الدليل⁽²⁾

انها غربة الانسان الذي يتقاذفه الاحباط ، فيفقد ثقته بما ورثه من يقين ، ويستسلم لقناعات هي وليدة اليأس ولكنها في الوقت نفسه رئة يتنفس من خلالها وسط جو خانق وان كانت رئة غير طبيعية .

ولم يسلم عبد الوهاب البياتي من الغربة الاجتماعية التي ربما كانت بسبب تأثر الشاعر بموضوعات "الرومانسية الشعرية" التي كانت تدور حول الحب ، والغربة ،⁽³⁾ والحزن ، والليل ، فقد كان يؤمن بالليل مثل نازك ، يقول :

آمنت بالليل الذي لا ينتهي

(1) ديوانها عاشقة الليل 1 / 562 .

(2) ديوانها ، مأساة الحياة واغنية للانسان 1 / 57 .

(3) ينظر : النفخ في الرماد ، د . عبد الواحد لؤلؤة ، ص 16 .

ودفنتُ في جنح الظلام صباحي
وحطمتُ اقداحي على شفة الهوى⁽¹⁾
ولقد حطمتُ على الظمأ اقداحي

ويبدو ان اغترابه الاجتماعي وليد التعالي على الآخرين ، فقد ميز نفسه
عمن اسماءهم "بالقطيع" ، فحبه اصيل ، وانفه شامخ ، وسخاؤه على العشاق
معروف ، وهذا التميز يعني الاعتزال ، المشوب بالتباهي ، يقول البياتي :

لم اصطنع حبا كهذا القطيع
ولم ابغ في السوق الحاني
ولم اقل هذا ملاك وديع
ولم اقل هذا من الجانِ
عصرتُ خمري من كروم الربيع
فليشرب العشاق من حاني⁽²⁾

ذلك هو جذر غربته : "الأننا" المتكبرة ، فبدونها يطول الليل ، ويُوارى
الحب ، لانها جوهر حياته ، ولذلك ساءه ان يجهل الآخرون ماهية تلك "الأننا"
يقول في ذلك :

فليت هذا الليل لا ينجلي حتى نوارى في الثرى حبا
حبا؟ وما أوحشه من هوى ان جهلت حسناؤه من أنا؟⁽³⁾

(1) ديوانه ، ملائكة وشياطين 1 / 48 .

(2) نفسه 1 / 3 .

(3) نفسه 1 / 10 .

وشيئا فشيئا تتلبسه الغربة فيختفي صوته الجهوري ، وتبدأ اعراض
الاغتراب بالظهور ، فثمة شكوى من السأم الذي يتأكل ايامه ، يقول :

عامان مرا اثر صيف في ملال تلفتي

تتماوت الايام حولي في مطارح غربتي⁽¹⁾

وكلما التفت حول عنقه حبال الاغتراب ، جهر بذلك فرما استطاع
مقاومتها ، وثمة شك وهو من سمات العقل الواعي ، المشحون باليقظة
الشعرية فالغد مجهول والحاضر تافه لا يغري الا البسطاء الخانعين ، يقول
البياتي :

غداك الغامض ايمان كشكي وانتظار سئمت منه النجوم⁽²⁾

فقد جعل من ثنائية الايمان والشك بؤرة قلقه المشروع من مستقبل غامض
مستغلق ، وانتظار يغري بالتطلع ، بقدر ما يشجع على الانكفاء .

ان اغتراب الشاعر هنا ، لا يخلو من شحنة ايجابية على الرغم مما يجعل في
طياته من استسلام ظاهر ، وباطنه يمتلئ بالتطلع ، ربما لتجاوز الغربة الى فضاء
ارحب ، ولهذا نسمعه يقول :

انا للآتي وللمجهول ضحكي

ولما ضي وللاطلال شوكي⁽³⁾

(1) نفسه ، 1 / 30

(2) نفسه ، 1 / 120 .

(3) المكان نفسه .

اما غربة بلند الحيدري ، فيبدو انها نبتت في البيت بذرة ثم نمت فيما بعد، يقول بلند : "قدم الجو العائلي لي حالة نفسية كانت تبدأ من ايثار امي لاختي صفاء ، وايثار والدي لاختي الصغيرة ... فأحسست بأني الشخصية الضائعة في جو البيت" فالاضطهاد الذي كان يحسه الشاعر وهو⁽¹⁾ صبي كان سبب الاغتراب الذي نشأ في داخله بازاء المجتمع ، وثمة عامل آخر عمق غربته ، فقد كان يعيش مع أمه التي انفصلت عن ابيه ، وحين تنتقل امه الى جوار ربها ، ينتقل الى دار ابيه . هنا تبدو عذاباته مزدوجة :⁽²⁾

فقد شهد انفصال أبويه عن بعضهما وهو الذي حرم عطفهما مجتمعين ، وها يعيش انفصالهما عما لحقه من أذى بسبب تنقله من دار الى دار، والاذى النفسي اقصى ما يتعرض له الشاعر ، تلك هي بدايات غربة بلند ، نشأت في تربة الموت يقول :

وحدتي

هكذا انت نموت

عشبة صفراء في ضفة موتي

وحديثا مسرفا في الهمس كالرجس ، كصمتي

هكذا انت نموت

من سكوتي⁽³⁾

(1) مقابلة مع بلند الحيدري ، اجراها يوسف الصائغ ، م الاديب المعاصر ، ع 5 ، مج 2 ،

1973 ، ص 106 .

(2) ينظر : المكان نفسه .

(3) ديوانه : اغاني المدينة الميتة ، 44 .

وقد ارتبط احساس بلند بالمعاناة ، والالم ، عنده بالتميُّز عن الناس ، الى حد الخوف احيانا من المجتمع ومن الحياة ، ومن الزمن " . وحنَّه على الناس مصدره ما اشار اليه⁽¹⁾ الباحث في صباه من احداث نغَّصت عليه حياته ، ولا شك عند الباحث انَّ اولئك " الناس " هم قلة : فمن هؤلاء الناس ابواه اللذان لم يرعياه كما ينبغي ، ومن هؤلاء الناس ايضا مجموعة من اقاربه ، شغلت مناصب كبيرة في الدولة " ، دفعت الشاعر الى الاشتمزاز " من كذب الاطار العائلي الذي عاشوا ضمنه ، في الوقت الذي كانت عشيرته الكبيرة تعيش في حالة فقر مدقع " . ومهما كان نصيب هذه⁽²⁾ الاقول من الصحة فان حنق الشاعر بدأ من دائرة ضيقة ليشمل المجتمع ، ومن الطبيعي ان يعد الشاعر الآخرين قطيعا كقطيع البهائم التي لا تعي ، ففي الوقت الذي يشقى فيه هو بوعيه ، ينعمون هم بجهلهم ، يقول في ذلك :

ستعرفيني الدهر في دمعي وسوف ترثين لهذا القطيع
يسير لا يبصرُ أَلَا خطي تطوي ريعا ثم تطوي ربيع⁽³⁾

ومن سمات هذا القطيع التهافت ، وفقدان الارادة ، فهو " كالثور المجهد " الذي تنطحه الارض برحائها وبازاء⁽⁴⁾ هذا المشهد ، تتضح ذات الشاعر ، وكأنه بهذا التضحيم يحاول التعويض عن فقدانه الآخرين ولهذا يقول :

(1) دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي ، حسين مروة ، ص 350 .

(2) ينظر مقابلة مع بلند الحيدري ، اجراها يوسف الصائغ ، م . الاديب المعاصر ، ع5 ، مج 2 ، 1973 ، ص 106-107 .

(3) ديوانه ، خفقة السطين ، ص 217 .

(4) ينظر ديوانه : اغاني المدينة الميتة ، ص 20-21 .

وتحسست ملء ذاتي عملاقا

تهاوت حوافف الناس دونه⁽¹⁾

وربما بالغ في اعتزال الناس مع السخرية من احلامهم ، وما عساها ان تكون احلام الجهلاء ، يقول :

انت يا من تحلمين الآن ماذا تحلمين ؟

بالدروب الزرق ، بالغابة

بالموت مع الكون الذي لا تفهمين⁽²⁾

ويبدو أ، بلند يئس من الناس ، ومن تجاوز غربته في آن ، فيندفع الى اعلان القطيعة معهم تحت ضغط عناصر الأغتراب التي تتفاعل في داخله باستمرار من خلال ما يستجد من دواع اغترابية جديدة ، فها هو ذا يتخذ من ساعي البريد رمزا للمجتمع مشيرا الى عدم جدواه ، فساعي البريد الذي عجز عن تقديم الجديد ، هو المجتمع الراكد الذي اعتاد القديم ، وجبل على السكون، يقول الشاعر :

ساعي البريد

ماذا تريد ...؟

انا عن الدنيا بمنأى بعيد

اخطأت ... لا شك فما من جديد

تحمله الأرض لهذا الطريق⁽³⁾

(1) نفسه ، ص 11 .

(2) نفسه ، ص 81 .

(3) نفسه ، ص 272 .

الاغتراب العاطفي

من طبائع "الانا" ميلها الى العزلة التي تتهددها دائما ، ولكن "الانا" تعمل باستمرار لتنمية قدرتها - عبر سعي متواصل - على مواجهة عزلتها ، شريطة ان تحافظ على خصائصها وحريتها من جهة ، وان "تعلو على نفسها"⁽¹⁾ من خلال الاتحاد بـ "انا اخرى" تفهمها فهما صادقا من ⁽²⁾ جهة اخرى ، وبالعكس ذلك كان الانعطاف نحو الآخر السلبي سببا في تعمق العزلة .

وثمة وسائل يلجأ اليها الانسان للتغلب على عزله منها : الحب والصداقة والفن . فالحب على وفق هذا التوصيف⁽³⁾ منهج تعويضي يعتمد المغترب للخروج عن عزله ، ولكن اخفاقه في الحب سيقوده الى اغتراب عاطفي يضاف الى اغترابه الآخر .

عاش السياب عدة تجارب عاطفية ، تنتقل خلالها من امرأة الى اخرى ، فلم يظفر لدى اي منهن بما يعوضه عما افتقده من حنان الام وعطف الاب اولا ، ولم يجد فيهن من تبادله الحب وتشاطره آلامه وآماله ثانيا . فالسياب - شأن اي انسان شاعر - لا يريد المرأة "للتعبير عن حاجة تفرضها فتوته فقط ، بل يريد لها رفيقة حياته وبؤسه وحرمانه" .⁽⁴⁾ على ان افتقاره الى الحد الأدنى من الوسامة ربما حال بينه وبين مبتغاه ، بالاضافة الى "ضعف موقعه الاجتماعي ماليا" . لأن أيا من حبيباته الخمس - بعد رفيقة وهالة -⁽⁵⁾ لم تكن لتغامر في قبول زوج فقير الى المواهب الجسدية والموقع المالي في آن ، ولكن الشاعر ركز على النفوذ المالي: فواحدة باعتته "بمأ فونٍ لأجل المال" وثانية عافته الى قصر

(1) ينظر العزلة والمجتمع ، نيقولاى برد يائف ، ص 114 .

(2) ينظر : نفسه ، ص 119 .

(3) ينظر : المكان نفسه .

(4) مقالات عن الجواهري وآخرون ، د . داود سلوم ، ص 190 .

(5) هذا هو السياب ، مدني صالح ، ص 47 .

وسيارة" و"تلك وزوجها عبداً مظاهراً ليلها سهر وخر و... قمار". وأشار إلى أن إحداهن⁽¹⁾ - لبيبة - أغراها الحسن بأنه "غير كفء". على أن⁽²⁾ الشيء الذي يهم الباحث هنا هو اعتراف الشاعر بأن كل اللاتي أحبهن لم يبادلنه الحب ، ولم يعطفن عليه، يقول السياب :

وما من عادتني نكران ماضي الذي كانا
ولكن ... كل من أحببت قبلك ما أحبوني
ولا عطفوا علي ، عشقت سبعا ...⁽³⁾

لقد احتمل الشاعر هذا العبء - الكابوس كل هذه السنين . التي طحنها الفقر ، والتشرد ، والمرض ، واليأس ، ليفصح عنه وهو على أهبة الرحيل الأبدي . فالفراغ العاطفي الرهيب الذي عاناه ، مشحوناً بالتمني - المستحيل يتحول الآن إلى وحش كاسر يوشك أن ينقض على فريسته ولكن صرخة الشاعر الاعتراف أعادت توازنه : بين ماضٍ من الخواء العاطفي ، وغدٍ ربّما امتلأ بكلمة حب تنقذ الجسد المسجى من الانهيار التام ، ومن هنا جاءت صرخته الثانية - الرجاء :

أحبيني

لاني كل من أحببت قبلك لم يحبوني⁽⁴⁾

⁽¹⁾ ينظر : ديوانه شناسيل ابنه الجلي 1 / 640 - 642 .

⁽²⁾ ينظر : نفسه ، 1 / 640 .

⁽³⁾ نفسه ، 1 / 639 .

⁽⁴⁾ نفسه 1 / 643 .

والامر الآخر الذي كشفته دراستنا اشعار السياب العاطفية هو ميله الى تكثيف الحب الحسي في مرحلة مرضه العضال . ويبدو أنّ هذا الحس الصارخ انعكاس لرغبة قديمة عجز عن اروائها ، فقد انفق عمره بجشاً عن امرأة تبادله الحب ، وتطارحه الجنس ، وتمنحه ما يشتهي ، حتى اذا طال انتظاره دون جدوى ، اضطر الى خوض غمار التجارب الجسدية ولكن ذلك - كما يبدو - لم يُطفيء⁽¹⁾ اوار رغبته ، وها هو الموت المتربص به يوقظها الآن ، فتفيض شعرا على لسان الشاعر ، يقول :

تشهيتك البارحة

فقبلتُ ردن الرداء : هنا ساعداها ،

هنا لبطها ، بالكهف الخيال

وموقاً ثغري اذا جرفته رياح ابتهاج

ودحرجة مد شوق ملح ، وقد حار فيه السؤال

"تحبيني انت؟ هل تحجلين"⁽¹⁾

ولنلاحظ في النص الرغبة الحسية "الابط" ، مرفأ الثغر "الى جانب الحب الروحي ((تحبين انت؟)) . وقد يستبد به الجنس - ذلك الذي لم ينله بالمتعة المتبادلة - من خلال الخيال المتشظي من نار المدفأة فيرتسم امامه الجسد العاري بكل اغراءاته ، يقول في قصيدة سفر ايوب :

تدحرج : عُرِّي النهدان ، بان الجيد والساق

⁽¹⁾ ينظر : مقالات عن الجواهري وآخرين ، د . داود سلوم ، ص 119 .

⁽²⁾ ديوانه ، منزل الاقنان 1 / 244 ، وقد كتبت القصيدة ببيروت في 3 / 7 / 1962

تدحرج لي على الجنب
تدحرج ثم صكّ أضالعي ، وئثار أعراق
ويطفو للجبين دم ، ويعروني
دوار منه تصطك النواجذ : خوفَ بحارٍ
يُطلّ فيبصر التيار يزفرُ مثل تّنين⁽¹⁾

ان الشاعر وهو يستعيد الرغبة في امتلاك جسد امرأة تبادله الحب ، فانه بذلك يعبر عن الوجه الآخر لاغترابه العاطفي ، انه الاغتراب الحسي بالتعبير الدقيق ، والتصريح به على نية الاشتواء يعني ممارسته خياليا ، اي تخفيف ضغطه من على جسد السياب الضعيف وبالتالي استرداده . طاقة بدنية لمواصلة الحياة ، ولولاها ، لولا هذه الممارسة الخيالية لما استمرت حياة الشاعر في ظل مرضه هذه السنين على الرغم من قصرها .

بات من القول المعاد ان نازك الملائكة خاضت خلال دراستها الجامعية تجربة حب صادقة عاشتها وتلبستها كليا ، وظلت تعبر عنها بعد تخرجها زمنا ليس بالقصير .⁽²⁾

وينتبتنا النص الشعري انها فجعت بهذا الحب فجيرة بالغة ، اضافت الى اغترابها الاجتماعي عناصر جديدة من الخوف ، والقلق ، والزهد ، الأمر الذي ادخلها في اغتراب مزدوج ، فقد كانت تخوض من خلال الحب تجربة سمو خاصة تليق بشاعرة "الهيّة الروح" وان كانت في حقيقتها "حقنة ماء طين"⁽³⁾ .

⁽¹⁾ نفسه ، 1 / 263-464 ، وقد كتبت بلندن في 31 / 2 / 1962 ، ينظر كذلك : قصائده: في انتظار رسالة ، كيف لم احبك ، وسلوى ، في ثديوانه شناسيل ابنة الجلبي ، 1 / 611 ، 666 ، 678 على التوالي .

⁽²⁾ ينظر : نازك الملائكة دراسة ومختارات ، د. عبد الرضا علي ، ص 59 .

⁽³⁾ ينظر : ديوانها عاشقة الليل ، 1 / 651 .

ولقد خاب ظنها بحبيب نزل بالحب الى مستوى الماديات ، فما تملك
والحالة هذه الا ان تدير ظهرها له ، ان صدمة الشاعرة بالمجتمع - من قبل -
كانت مؤلمة أشد الايلام : فالناس "اموات" وان كانوا احياء ، وهم عبيد
يرسفون بقيود الذل ، والتفاهة ، ولأن روحها تسامت الى عالم آخر ، فقد
رفضت العيش في وادي العيب⁽¹⁾ وسجلت نفسها في ذاتها ، متطلعة الى حبيب
يمثلها روحا ، وشاعرية ، وطهرا ، ولكن ها هو ذا لا يختلف عن الآدميين
برغباته وعواطفه ، في الوقت الذي كانت تقف فيه على شرفة عليا من المثل ،
تقول نازك :

في نفسي جزء ابدئي لا تفهمه

في قلبي حلم علوي لا تعلمه⁽²⁾

فالجزء الابدي في النفس ، والحلم العلوي في القلب هما جوهر فريدة
الشاعرة الانسانية ، وهما سر اغترابها المركب ايضا ، ولذلك استطابت جحيم
الوعي في الوقت الذي ينعم فيه الآخرون بجهلهم ، وآثرت الشقاء في البحث
عن المثل ، على سعادة القيم الحسية ، واسلمت نفسها لحلم طويل من التأمل
والسفر داخل الذات ، راغبة من واقع خائق ، ومن هنا فان حبها الحقيقي كان
- وسيبقى - لحبيب لم يزل في طي الغيب ، عانقته روحا خفيا ، وارتحلت معه
الى عالم لا متناه من الضياء والنقاء ، ولعل قصيدتها "الزائر الذي لم يجيء"
تكشف حقيقة عشقها الالهي الذي لا يعرفه البشر ، وتشخص ذلك الحبيب
الغائب - الحاضر ، تقول :

(1) ينظر نفسه ، 1 / 492 .

(2) شظايا ورماد ، 2 / 98 .

لو كنت جئت ... وكنا جلسنا مع الآخرين

ودار الحديث دوائر ، وانشعب الاصدقاء

اما كنت تصبح كالحاضرين⁽¹⁾

فهذا الحبيب - الحلم ، الاثري المتسامي ، هو مصدر ابداعها ، ومنبع الهامها ، وهو وحده الذي يرتفع الى مستوى اغترابها في جلاله وقديسيته ، واذا ما قيص لهذا الحبيب ان يجيء يوما ، فسينزل بها الى مرتبة الآخرين من الخواء ، والشهوة اما من جاءها يوما " بلحم آدمي وعظمه " فهو طيف عابر ، لانها تتطلع الى حبيب لن⁽²⁾ تراه يوما ، ولا تريد ان تراه ، وهكذا نرى ان تجربتها العاطفية الوحيدة قادت الى مزيد من الاغتراب ، والاعتزال ، بدلا من ان تكون عاملا مخففا يفتح لها نافذة في جدار غربتها ، بل ان الباحث لا يشك في ان هذه الصدمة قد اوصلت الشاعرة الى غربتها الروحية التي ستلازمها الى مرحلة متأخرة من حياتها ، وسيكون الحلم ، وحده ، مأواها وملاذها :

وادركتُ اني احبك حلما⁽³⁾

ويعيش بلند الحيدري اغترابا اجتماعيا حادا ، وربما كان - بسبب ذلك - اكثر ما يكون التماسا لحب يخرج من عزلته التي اخذت بخناقها ، وكادت ان تفسد عليه الهواء الذي يتنفسه ، غير انه اخفق في الالتقاء بالمرأة التي تبادلته الحب ، وتشاطره شتاء حياته القاسي ، الطويل ، فهو روح غريب في حياة صقيعية ، تتوالى شتاءاتها عليه وحيدا ، دوغما امرأة تشعره بشبابه فعلى الرغم من

(1) ديوانها ، قرارة الموجة ، 330/1 .

(2) ينظر ، نفسه ، 331 .

(3) المكان نفسه .

تأثير اغترابه الروحي على شعوره بمحقيقة عمره ، الا ان غياب المرأة ربما اوهمه
بالشيخوخة يقول بلند :

أهرمك الشوق لماوى الصبا

وانت ما زلت بباب السنين⁽¹⁾

على ان ظمأه العاطفي الحاد ، اسلمه الى شعور مرير بالشيخوخة النفسية
- اذا صحت التسمية - وهو يرى الى سنيّه تمضي هباء ، تُسفي عليها الرياحُ
الجدبَ ، و برودة الشتاء ، يقول :

شتوية اخرى

... وهذا أنا

هنا

يجنب المدفأة

أحلم أن تحلم بي امرأة

أحلم ان ادفن في صدرها

سرا، فلا تسخر من سرها⁽²⁾

ان اغترابه العاطفي هنا مركب : فثمة الشتاء وهو رمز لجفاف الحياة ، التي
تفتقد الدفء ، وتشير الى غري الذات ، وثمة الوحدة وهي رمز افتقاد الذات
الاعرى ، ومبعث الوحشة لذلك فان الشاعر يؤسس حلمين ، او ينزع إلى
حلمين : فهو (يحلم) بامرأة ، (تحلم) به ، وبذلك يتكافأ اغتراب الشاعر مع

⁽¹⁾ ديوانة ، خفقة الطين ، ص 104 .

⁽²⁾ ديوانه ، اغاني المدينة الميتة ، ص 72 .

الحلم في محاولة لاستعادة التوازن ، ولكن تتابع الشتاءات - رمز غياب الحلم الثاني - أدى الى تراكم الاغتراب ، الذي أدى بدوره الى احساس الشاعر بالشيخوخة المزدوجة ، الاولى خارجية والثانية داخلية ، يقول الشاعر :

هنا يجنب المدفأة

شتوية اخرى

وهذا انا

انسج احلامي واخشاهما

اخاف ان تسخر عيناها

من صلعة حمقاء في رأسي

من شيبة بيضاء في نفسي⁽¹⁾

ان الشاعر يُنزل " شيبة النفس المعنوية - الداخلية " منزلة شيبة الراس البيضاء من جهة ويساويها من جهة اخرى بصلعة الرأس - علامة الشيخوخة الخارجية - مما يشير الى تضخم الوهم عنده الى حد التجسيد وهو ما سيقوده اخيرا الى توقع الموت :

شتوية اخرى وهذا انا

وحدي

لا حب ، لا احلام ، لا امرأة

عندي

وفي غد أموت من بردي

هنا يجنب المدفأة⁽²⁾

⁽¹⁾ نفسه ، ص 73-74 .

⁽²⁾ ديوانه ، اغاني المدينة الميتة ، ص 74-75 .

هكذا يقرر الشاعر انه ليس بوسع دفء الجسد "وجود المدفأة" أن يُغني عن دفء الروح "غياب الحب والمرأة والاحلام" هذا اذا كان الشاعر قد أحس فعلا بدفء الجسد.

الاغتراب السياسي :

لا يخفي ان للشعر مهمة جليلة "لولا هذا الجلال لما عد الشاعر بمنزلة النبي"، ولان الشاعر على وفق هذا ⁽¹⁾الرأي "صاحب رسالة مهمة في حياة الجماعة، فمن البديهي ان يكون اكثر من غيره خبرة وحساسية". ⁽²⁾ من هذا المنطلق كان للشعراء الرواد دورهم في خدمة مجتمعهم من خلال دورهم السياسي دفاعا عن حقوق الوطن والامة، وهم وان اختلفت وسائلهم، وتباينت وجهات نظرهم حول المنهج والاداة، الا ان عملهم السياسي تجوهر في خدمة مصلحة الجماعة وفي الوقت الذي تشابهت فيه بدايات السياب والبياتي وبلند عبد الالتزام بتنظيم سياسي محدد فان تجربة نازك تخطت التنظيم الحزبي الى أفق وطني وقومي اشمل .

اما السياب فربما تحمل من آلام العمل السياسي واخفاقاته اكثر مما تحمله الآخرون من الشعراء الرواد : فقد دخل المعتقلات واكل "مع الضحايا في صحاف من دماء" وشارك في "الفم المسلول" وعاءه وشم "ما سلخ الجذام من الجلود على رداءه"، كما فصل من وظيفته وعرف ⁽³⁾الحاجة والفقر، وانتهى به الأمر مطاردا خارج وطنه في ايران، ثم في الكويت، حيث عاش فترة ذاق فيها

⁽¹⁾ مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي، د. جابر عصفور، 288.

⁽²⁾ المكان نفسه.

⁽³⁾ ينظر: ديوانه انشودة مطر 1/ 443.

ذل الغربة ، وانكسار النفس ، ووحشة الروح . وهناك ⁽¹⁾ حيث تضيق به سبل العيش ، يعيش غربتين : نفسية ومكانية قد يعجز عن احتمالهما اي انسان مهما كان حظه من الجلد والعزم ، فما بالك بالسياب وهو من عرف بالاحساس المرهف ، والجسد النحيل . ولقد كانت قصيدته " غريب على الخليج " نشيد كل المكافحين عن اوطانهم ، ففيها تتجلى غربته الحادة ، كما يتجلى ايمانه بوطنه جانب ذل حاله ، يقول الشاعر :

الريح تلهث بالهجرة كالجثام على الاصيل

وعلى القلوع تظل تُطوى او تنشر للرحيل

زحم الخليج بهن مكتدحون جوابو بحار

من كل حافر نصف عاري ⁽²⁾

وتمضي القصيدة في استذكار الماضي ، والتقاء الشاعر امه ، وعودته طفلاً يخاف الاشباح بين النخيل وقت الغروب ، ثم صبياً وهو يستمع الى اقاصيص السمار ، حتى اذا يلتفت الى حاضره الموجه يتفجر حنينه الى العراق فيتوق الى ليلة صيفية ينام فيها على الوسادة ، شاكياً ما يقاسيه في غربته من عطف الاجانب ، وبؤس حاله . ⁽³⁾

ان ما أراده الباحث من نثر هذه القصيدة هو بسط حال الشاعر الذي سيؤول به الى الخروج عن التنظيم ، فربما اعتقد السياب ان انتسابه الى هذا التنظيم بالذات هو الذي ادى به الى التشرذ ، ومعاناة ما عاناه من آلام ، لعلها

⁽¹⁾ ينظر : بدر شاكر السياب رائد الشعر الحر ، عبد الجبار داود البصري ، ص 12 .

⁽²⁾ ديوانه انشودة المطر ، 1 / 317 .

⁽³⁾ ينظر نفسه ، 318 - 323 .

كانت السبب - فيما بعد - في مرضه . وإذا صح ان تاريخ القصيدة هو العام 1953 كما هو مثبت في ذيلها ،⁽¹⁾ فهو العام نفسه الذي شهد خروج بدر من التنظيم : فقد انتسب بدر للحزب عام 1945 وظل فيها لمدة ثمانية سنوات ، وما يهم الباحث هنا هو أن خروجه على التزامه⁽²⁾ ضاعف غربته الاجتماعية الفكرية التي كان يعاني منها من قبل ، فقد جرّ عليه خصومات جديدة واثار على موقفه اكثر من شبهة ، هذا بالاضافة الى ان انتكاسة الوضع السياسي بعد ثورة 14 تموز من عام 1958 ، وانقسام الحركة الوطنية ، اصاب الشاعر ببعض الشظايا ، الامر الذي ادخله في دوامة نفسية قاسية بسبب الاعتقال ، والفصل بين الوظيفة ، والحاجة الى المال ، يقول الشاعر في قصيدة "العودة الى جيكور" :

جيكور ، جيكور : اين الخبز والماء ؟

الليل دافئ وقد انام الادلاء ؟

والركب سهران من جوع وعطش

والريح صر ، وكل الافق اصداً⁽³⁾

وكلما حاصره خصومه ، اشتدت غربته ، فها هو "سربروس" يعرش في الدروب ، لا لينال منه وحده ، وانما ايضا ليمزق الصغار ، ويقضم العظام ، ويشرب القلوب فربّما أحس ان مأساته هي مأساة الملايين⁽⁴⁾ سواء ، هكذا هو

(1) ينظر : نفسه ، ص 323 .

(2) ينظر بدر شاكر السياب دراسة في حياته وشعره ، احسان عباس ، ص 89 .

اما جبرا ابراهيم جبران فيذكر ان بدر انتهى التزامه الحزبي العام 1955 ، ينظر : النار والجوهر ، ص 70 .

(3) ديوانه انشودة المطر / 1 / 422 .

(4) ينظر نفسه ، 1 / 482 .

حال السياب ، دخل المعتزك السياسي مغتربا ، وخرج منه اشد اغترابا لانه قذف بنفسه في لجة الصراع ولم يقف على حواشيه ، ولانه احب العراق حدّ العشق فان كلا من التزامه الحزبي ، وانسلاخه عبّر " عن ذلك العشق لبلده ومن فيه " على حد تعبير جبران خليل جبران .⁽¹⁾

اما ما يعتقد به بعضهم من انه دخل الصراع السياسي " ضعيفا مهزوزا " فهو رأي تدحضه الوقائع لان ما⁽²⁾ نهض به السياب من تبعات العمل السياسي ابتداء بالمشاركة الفعالة في التظاهرات ، مروراً بالاعتقال والفصل من الوظيفة ، والتشرد خارج الوطن ، وانتهاء بالعودة الى الوطن ، وتعاطي العمل السياسي باشكال جديدة ، ان كل ذلك لا علاقة له بالضعف والاهتزاز ، ان لم يكن ذا صلة وثقى بالصلابة والقوة .

ويدخل البياتي المعتزك السياسي دخول البطل ، فقد نشأ اغترابه الاجتماعي ، في جانب منه ، على الاستعلاء كما رأينا ، ويبدو ان هذا الاستعلاء تضاعف من خلال الموقف الفكري الجديد ، ولهذا نسمعه يقول :

شيد مدائنك الغداة

بالقرب من بركان فيزوف ولا تقنع

بما دون النجوم⁽³⁾

ولكن آثار الاغتراب السياسي تتسلل الى نفسه وريدا ، فقد اختار طريق الثورة مع قلة وسط الملايين الصامتة ، الأمر الذي جعله يشعر بالوحدة امام

⁽¹⁾ النار والجوهر ، ص 71 .

⁽²⁾ مقدمة ديوان بدر شاكر السياب ، ناجي علوش ، 1 / 11 .

⁽³⁾ ديوانه ، اباريق مهمشة ، 1 / 157-158 .

مخاطر الالتزام الجديد ، وها هو ذا اشته ما يكون بالمسافر الذي لا يحمل
حقائب، لانه مسافر داخل نفسه ، وغريب عن وطنه، يقول الشاعر:

من لا مكان

لا وجه ، لا تاريخ لي ، ومن لا مكان

تحت السماء ، وفي عويل الريح اسمعها تناديني : " تعال "

لا وجه ولا تاريخ اسمعها تناديني : " تعال " ⁽¹⁾

ان غربته السياسية عما حوله ، وعمن حوله ، اسمعته نداء الامنيات
البعيدة القادة من افق آخر ، ولانه وحيد ، كما يشعر ، فقد توقع الاخفاق ،
فالآخرون " موتى " ولذلك فقد عاد مخذولا .

وعندما كان يحترق في اتون النضال ، مر به الآخرون غير عابئين به ،
يقول :

وحدي احترقت انا وحدي وكم عبرت

بي الشموس ولم تحفل باحزاني ⁽²⁾

فلانة " وحيد كقطرة المطر العقيم " فقد بدأ يشعر ⁽³⁾

بالوحشة :

وحدي لا وعد اصبح يا انت

⁽¹⁾ ديوانه اباريق مهمشة 1 / 168 .

⁽²⁾ نفسه ، 1 / 181 .

⁽³⁾ ينظر : نفسه ، 1 / 210 .

تغمرنني وحشة والليل لم يأت⁽¹⁾

ولكن الشاعر لا يستسلم للتشاؤم المغلق لأن طموحه لا⁽²⁾ يتوقف اما شعور اغترابي ربما توهمه عابرا ، ولانه لم يزل بطاقته الفكرية والجسدية فلم يتعرض لما تعرض له السياب مثلا من سجن وتشريد يستنزفان حماسه وقدراته ، ولهذا وطّن نفسه على الارتحال عبر "البحار النائية" حيث "مغني النساء الساحرات ، والخمر والدموع"⁽³⁾.

وهكذا يرتحل الشاعر من وطنه ، الى بلاد الغرب ، سلاحه الشعر ، وغايته الدعوة للعقيدة التي آمن بها ، وفي منفاه الاختياري يتأرجح بين اوجاع الاغتراب ، وآمال الانتصار الشخصي لاثبات وجوده . والوصول الى ما يبتغيه من مجد . يقول الشاعر في قصيدة "بطاقة بريد الى دمشق":

كنت جائع ...

كنت في معركة الخلق اطالع

وجهك الحلو ، فأنسى يا دمشق

غربي

وحشة ايامي

عذابي

وانا اقتحم التاريخ من باب لباب⁽⁴⁾

(1) نفسه ، 1 / 220-221 .

(2) ينظر : الشعر العراقي الحديث مرحلة وتطور ، د . جلال الخياط ، ص 183 .

(3) ينظر ، ديوانه اباريق مهمشة ، 1 / 229 .

(4) ديوانه ، اشعار في المنفى 1 / 390 .

لا خلاف في ان الشاعر يحس بوطأة الاغتراب المكاني ، وربما الروحي ولكنه يحاول ان يتحامل على تلك الوطأة من خلال الاصرار على السعي في سبيل غايته ، ولذلك فقد خلف عواطفه في دمشق احدى محطات حياته الجديدة متخذاً من بلاد الغرب والغربة مقراً لدعوته، يقول الشاعر:

مائدتي موحشة ومقعدي جليد

يا دمية تجهل ما تريد

انا اذا استيقظ فيك الشوق

انسان من الجليد

عواطفني تركتها هناك

في دمشق⁽¹⁾

لقد اصبحت المدن والاقاليم التي يرتادها الشاعر جزءاً من حياته الجديدة ولهذا فإن ما كتبه من شعر هناك لم يكن بكائياً ، وربما اختفى اي أثر اغترابي من بعض نصوصه التي يفترض انها تعكس شكواه من الغربة ، فقول الشاعر :

الهي أعدني

الى وطني عندليب

على جناح غيمة

على ضوء نجمة

اعدني فله

ترف على صدر نبع وتلّة⁽²⁾

لا ينطوي على اي هاجس اغترابي كما يرى الباحث وكذلك قوله :

⁽¹⁾ ديوانه ، كلمات لا تموت 1/ 570 .

⁽²⁾ ديوانه ، كلمات لا تموت 1/ 570 .

ماذا تقولين اذا عدنا الى الوطن

ولم نجد هناك من يعرفنا

ايا عصفورة الشجن⁽¹⁾

فقد عرض النص الاول دعاء الشاعر من اجل العودة ، وقدم النص الثاني سؤالاً عمن سيعرفه بعد العودة ، ولا يرى الباحث ضرورة في ايراد امثلة اخرى على غياب الباعث الاغترابي ، او ضعفه ، لان هاجس البياتي كان قد تمحور حول هدف محدد هو : انتزاع موقع عالمي في حركة الشعر الانساني ، وهذا الهدف لا تصنعه الدموع ، والآهات ، وانما الصبر ، والاحتمال ، والتأقلم ، وقد وعى البياتي ذلك جيداً والباحث لا يريد ان يسلب الشاعر رهافة حسه ، ورقة عواطفه ، واخلاصه في الحنين الى وطنه ، ومرايع صباه ، فقصائده حافلة بهذه العواطف والمشاعر ، ولكن الشاعر ، وقد ركب مغامرة التجوال ، عرف اية مشاعر يسوقها في شعره ، لكي تتكافأ مع الاحلام الكبيرة التي ارتحل من اجلها ، فيها هو يخاطب ابنه :

لو انت حزين ؟

سنوات التكوين

سنوات الفرحة

والعالم يولد في لحظة

في وجه ابيك الشاعر

الثائر⁽²⁾

(1) ديوانه ، اشعار في المنفى 1 / 400 .

(2) ديوانه اشعار في المنفى 1 / 405 .

وعلى وفق هذا التوصيف فان ما كان يعانيه البياتي من مشاعر الاغتراب المكاني في منفاه الاختياري كان عنده ما يساويه من عناصر النزوع والتجاوز ، يقول في احدى قصائده :

باريس في الشتاء

تدثرت بالثلج والقراء

فما قلبي ظل في العراء ؟⁽¹⁾

وفي النص يعاني الشاعر من الغربة التي تجسدت في " قلبي ظل في العراء " اشارة الى وحشة الروح ، ولكنه يقول في المقطع نفسه :

باريس شاخت

وانا مازلت طفلا

حرفتي التجوال والغناء⁽²⁾

وهكذا هو البياتي : كلما احس بوطأة الاغتراب اتى برد فعل معاكس له . ويدخل بلند الملعب السياسي متعبا ، وقد امتلأ بتشاؤم كيتس وابي العلاء ورومانسية محمود حسين اسماعيل ، وتمرّد انسان الياس ابي شبكة ، وعبث ابي نواس . ولذلك لم يكن صوته جهيراً شأن شعراء السياسة ، وانما كان هادئاً تجاوز خطابية السياب وعنف البياتي ، واعتمد الرمز ، والايماء ، والحوار الداخلي ، وتنضج غربته في جانبها السياسي رؤى محزون ، ولكنها رؤى شفافة وندية ، فاغترابه المزدوج الاجتماعي الروحي لم يكن يسمح بالتخلي ولو عن

⁽¹⁾ ديوانه ، النار والكلمات 1 / 698 .

⁽²⁾ نفسه ، 699 .

بعض طاقته لتعبير سياسي عالي النبرة ، و نشي قصيدته "اعترافات من عام 1961" بإيماءات خجول عن تلك المرحلة السياسية الحرجة ، التي عانى فيها الشاعر بسبب التزامه السياسي يقول بلند :

وانا كنت من الثوار

وعرفت النوم على الاسمنت البارد

مثل القرن العشرين

وعرفت السجناء الثوار

وعرفت المسجونين الثوار

وعرفت بأن الثورة

قد تقلع ظفري

قد تصلب كل صباح حلاجاً في صدري⁽¹⁾

وقد تأرجح موقف الشاعر بين اليأس وبين الأمل ، اما اليأس فلأنه عرف الواقع ، وتعرى حقيقة الصراع الدائر فيه لذلك لم يتورع عن الجهر بنفض اليد عن حطام الربيع المتبقي ، يقول :

انا الملمت دروبي فالربيع

مثلما ضاع ربيع

وربيع ، سيفضيع⁽²⁾

(1) ديوانه ، اغاني الحارس المتعب ، 85-86 .

(2) ديوانه ، خطوات في الغربة ، ص 19 .

فلقد ايقن ان عالمه الجديد "يحيا بلا قلب" ⁽¹⁾ وانه بلغ الاربعين من عمره وعلى يديه "اكдاس احلام ، تموت بلا غد" ⁽²⁾ ، ولكنه مع ذلك لا يسلم اليأس كل اوراقه ، فهو اولا صاحب قضية ، ليس امامه الا الانتظار حتى الرmq الاخير ، وهو ثانيا محاصر بالاغتراب : اجتماعيا ، ونفسيا ، وسياسيا ، واليأس المطلق يخنقه وقد يقضي عليه ، ولذلك حسبه بعض الأمل يستعين به على مواصلة حياته وهو زاحف غير قائم ، يقول :

وأظل ازحف في الصراع

يهوي شراع

وتموت في جنبي ذراع ⁽³⁾

وفي منفاه خارج الوطن لن يكون أحسن حالا منه داخل الوطن ، فالمنفى لشاعر مثل بلند غربة روحية ، واغتراب مكاني ، وليس ثمة غير ضجيج الآلة ، والشتاء الدائم ، وهما على النقيض مما ينشده بلند من الهدوء ، والدفع ، ولانه عرف هناك الحل والترحال فقد اشعره ذلك بانه "حقيبة" ، وانه شيء من الاشياء ، والتشيؤ أحد مظاهر الاغتراب ، يقول بلند :

هذا / انا

ملقى هناك حقيبتان

ونخطى تجوس على رصيف لا يعود

⁽¹⁾ ينظر : نفسه ، ص 71 .

⁽²⁾ ينظر نفسه ، ص 76 .

⁽³⁾ ديوانه ، اغاني الميتة ، ص 54-55 .

الى مكان

من الف ميناء اتيت

ولالف ميناء أصار

وبناظري الف انتظار⁽¹⁾

ولعل الموت هو ما ينتظره الشاعر الذي عجز عن زحزحة صخرة
الاغتراب عن صدره المتداعي ، فالموت يظل هاجس المغترب ، المتشرد بلا أمل ،
والمزحوم باليأس ، يقول بلند :

وها انا اموت يا اختاه

كما يموت الرب في منقاه⁽²⁾

ان بلند ، خلافا للبياتي ، بقي خالي الوفاض من كل طموح ادبي ، او
ثورى او انساني ، فقد تحكمت فيه احباطاته ، وألفت به في احدى زوايا العالم
نسيا منسيا .

اما نازك الملائكة فقد تعاملت مع السياسة من خلال مشاعرها القومية .
فقد كتبت عدة قصائد منه : اغنية للاطلال العربية ، وثلاث اغنيات عربية ،
والوحدة العربية ، وثلاث اغنيات شيوعية⁽³⁾ وتفصح هذه القصائد من احزان
الشاعرة لما حل بالامة العربية من نكبات مثل ضياع القدس ، واغتيال القادة
الفدائيين الثلاثة ببيروت ، واحتلال الجنوب اللبناني ، وللمجازر التي ارتكبت

⁽¹⁾ ديوانه ، خطوات في الغرب ، ص 96 .

⁽²⁾ نفسه ، ص 12 .

⁽³⁾ ينظر : ديوانها شجرة القمر ، 2/469 و 496 و 522 و 570 على التوالي .

في العراق في العام 1959 حيث اضطرها النظام القائم آنذاك الى الاقامة
بيروت. (1)

ويرى الباحث ان اغتراب الشاعرة السياسي يكاد لا يبين لان اغترابها
الاجتماعي - الروحي استغرق ذاتها ، فخلاف الشاعرة الأساسي كان مع
المجتمع الذي انغمس في "ترف العصور" دون شعور بقدسية الحياة ، ومعرفة
بكنهها (2) وها هو المجتمع نفسه يتقاعس عن حماية مقدساته ، ويعجز عن
مواجهة اعدائه الذين يغزونه في عقر داره ، لان هزيمة المجتمع في الجانب القومي
والسياسي هي نتيجة لهزيمته في الجانب القيمي والاجتماعي وهو ما ادركته
الشاعرة مبكرة ، فمنذ ان وعت نازك الحياة ادانت المجتمع ، ورفضت قيمه ، وها
هي الآن تلخص حياته التي استمرأها في ظل الغزو الاجني ، ففي الوقت الذي
يصول العدو فيه ويجول في الأرض العربية ، ينشغل العرب عنه بسماع الاغاني ،
تقول الشاعرة :

اغنية جديدة تنشد لها نجاة

هذا المساء حفلة ساهرة وعشر راقصات

عربي وخمر ، خاسر من لم يذق

الكأس تلو الكأس حتى يترنح الأفق (3)

(1) ينظر : لمحات من سيرة حياتي وثقافتي ، نازك الملائكة ، اوراق مطبوعة على الآلة الكاتبة ،
ص 12 .

(2) ينظر : ديوانها قرارة الموجة ، 2 / 251 .

(3) ديوانها ، للصلاة والثورة ، ص 126 .

ان اغتراب الشاعر المركب قد استأثر بأفضل ما لديها من دم القلب :
الشعر ، ولم يترك لمشاعرها السياسية سوى هذا الشعر التقريري الذي تتعزى به
عن الكوارث القومية .

الاغتراب المكاني والموقف من المدينة :

اتخذ الشعراء الرواد مواقف متنوعة من المدينة تراوحت بين الرفض
والقبول والتعاطف ، كل بحسب الظروف التي نشأ فيها ، واشكال الاغتراب
التي عانى منها ، ولذلك نرى ان للشاعر احيانا اكثر من موقف تمليه عليه نظرتة
الى المجتمع ، فالموقف من المدينة يكاد أن يكون صدى للموقف من المجتمع .

فالسحاب شاب ريفي نزح من قرية صغيرة ودخل المدينة وهو يعاني من
الغربة الاجتماعية ، فلا عجب اذا نفر من بغداد مثلاً " لانها عجزت ان تمحو
صورة جيكور او تطسها في نفسه " (1) كما يقول احسان عباس فقد خذلته
عاطفيا وسياسيا ، يقول :

وتلتف حولي دروب المدينة

حبالا من الطين يمضغن قلبي

حبالا من النار يجلدن عري الحقول الحزينة (2)

فقد قتلت المدينة في نفسه صورة جيكور وبراءاتها وطهرها ، في الوقت
الذي كان يرجو فيه ان تداوي جرحه ، وتحقق احلامه ، ومن اسباب نفور
السحاب من المدينة : انها بخيلة لا تجود كما تجود القرى سخاء ، ونقاء وحبا
يقول :

مدينتنا تورق ليلها نار بلا لهب

(1) اتجاهات الشعر العربي المعاصر ، ص 118 .

(2) ديوانه انشودة المطر ، 1 / 487 .

سحائبُ مرعداتٍ مبرقاتٍ دون امطارٍ⁽¹⁾

ومن تلك الأسباب : قسوة المدينة ، التي تجسدت في توسعها على حساب الموتى من اجل اشباع فهم اربابها الطبقيين الذين يمارسون الاستغلال ابتغاء الحصول على حفنة من النقود لا تساوي عظام الموتى البالية ، يقول الشاعر :

وأوقدت المدينة نارها في ظلّة الموت

تقلّع اعين الاموات ثم تدسّ في الحفر

بذور شقائق النعمان ، تزرع حبة الصمت

لتشعر بالرنين من النقود وضجّة السفر⁽²⁾

وهناك القهر السياسي الذي ارتبط بالمدينة ونال منه السياب المطاردة ، والسجن ، والتشرّد ، يقول الشاعر :

ليعد سر بروس في الدروب

في بابل الحزينة المهذّمة

ويملا الفضاء زمزمة⁽³⁾

فـ "سر بروس" رمز الطغيان السياسي الذي انتصب في المدينة جبّارا يشيد السجون والملاهي والبارات والمباغي،⁽⁴⁾ تلك الرموز التي كرهها الشاعر واقرنت عنده بابتلاع الانسان ، واغتيال آدميته ، وثمة داع آخر يسميه الباحث بالاقتصادي فقد عانى السياب من الفقر ، في الوقت الذي تمتع فيه نفر جاهل

(1) نفسه ، 1 / 486 - 487 .

(2) ديوانه ، المعبد الغريق 1 / 133 .

(3) ديوانه ، انشودة المطر 1 / 482 .

(4) ينظر : نفسه 416-417 / 4 .

بالثروات الهائلة ، ولما كانت المدينة مقر المال فقد ارتبطت عنده بالطغيان
الاقتصادي . يقول :

وبين الضحى وانتصاف النهار

إذا سبحت باسم ربّ المدينة

رحى معدن في أكف التجار

لها ما لا سمالك جيکور من لمعة واسمها من معانٍ كثار⁽¹⁾

ولا يخفى أنّ ذلك يمثّل موقفه حيال الظلم الطبقي الذي ابتنى رفاهه
وسعادته من عرق الآخرين ، وثمة داع آخر يسميه الباحث بالعاطفي لأنه
يتصل بتجارب السياب الغرامية التي خرج فيها بخفي حنين ، فالقراءة النفسية
لبعض نصوص الشاعر قد تعين على فهمها فهما صحيحا ، واستخراج المعنى
الذي واره الشاعر : فلنقرأ له في قصيدة "ام البروم" :

فأين زوارق العشاق من سيارة تعدو

بينت هوى ؟ واين موائل الخمار ، من سهل

يمد موائل القمر

على امواتك المتناثرين بكل مُنحدر⁽²⁾

ان المعنى المباشر الذي ينطوي عليه النص هو تعلق الشاعر بالقريّة ،
ومقارنتها بالمدينة بدليل الابيات التي سبقته :

⁽¹⁾ نفسه ، 1 / 415 .

⁽²⁾ ديوانه ، المعبد الغريق ، 1 / 134 .

صدي من غمغمات الريف حول مواقد السحر ... الخ⁽¹⁾

ولكن السياق يستدعي تفسيراً نفسياً : فلا يعقل ان يكره السياب "السيارة" ولا يبدو منطقياً ان يكره موائد الخمر وهو الذي عرف بمعاقرتها ، ان معنى آخر يكمن في النص ، والرجوع الى القصيدة "احبيني" ربما سيكشفه ، ففي هذه القصيدة التي يستعرض فيها الشاعر اوضاع حبيبته ، يستوقفنا قوله :

وتلك كأن في غمزيتها يفتح السحر

عيون النمل واللباب ، عافتني الى قصر وسيارة

الى زوج تغير منه حال⁽²⁾

ان هذه السيارة التي كانت سبباً في احتياز حبيبته من قبل غيره اصبحت رمزا بغضاً لديه يفصح عنه كلما أسعفه لا وعيه . وكما ارتبطت السيارة عنده بذكرى حزينة ، كذلك ارتبطت موائد الخمر بذكرى حزينة اخرى .

ففي القصيدة نفسها نقرأ :

وتلك وزوجها عبداً مظاهر ليلها سهر

ونخر أو قمار ثم يُوصد صبحها الإغفاء⁽³⁾

الرمز الاسود ينتقل من السيارة الى موائد الخمر فقد انسقت حبيبته "سلوى" وراء زوج ساقها هو الآخر الى ما كانت تشتهي ويروق لها ، السهر وموائد الخمر ، وكذلك كان وعي الشاعر الباطن هو الذي يتحدث وهو يشاهد

⁽¹⁾ المكان نفسه .

⁽²⁾ ديوانه : شناسيل ابنة الجليبي ، 1 / 640 - 641 .

⁽³⁾ نفسه ، 1 / 641 .

ما تفعله ظواهر المدينة الحضارية من هدم لقبور الموتى ، وتدليس لحرمة لموت ، وما تثيره من ذكريات مريرة في نفسه .

وهناك داع آخر بالامكان تسميته بالنفسي : فهو موقف من بعض مظاهر الحضارة التي تعيشها المدينة ، فالمدينة خصمه : عاش فيها خيالاته العاطفية ، وهزائمه السياسية ، وقد تراكم في نفسه منها ما يعبر عنه احيانا بالرجوع الى القرية الوداعة ، البسيطة ، التي لم يغزها بعد هذه المظاهر / الجراثيم ، ففي القصيدة "جيكور والمدينة" يقرن الشاعر وجود السجن والمبغى بوجود الكهرباء:

وفي كل مستشفيات المجانين

في كل مبغى لعشطار

يطلقن ازهارهن المهجينة

مصابيح لم يُسرج الزيت فيها ، وتمسسه نار⁽¹⁾

فالشاعر ينكر على هذه المصابيح انها لا تشتعل بواسطة الزيت ، فكأن الشاعر قارن بينها - لا واعيا - وبين الكوكب الدّري الذي "يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار"⁽²⁾ فربما رأى الشاعر في الكهرباء ، وهي ايضا احد رموز المدينة -تحدياً لخالق الكون، فهذا الرمز الآلي لا يضيء المصابيح دون زيت فحسب وانما لانه يميت البشر ايضا ، فهذه "لاة" ام تموز تنعى ولدها الذي صعبته الكهرباء :

وترسل النواح : "يا سنابل القمر

⁽¹⁾ ديوانه ، انشودة المطر ، 1 / 417 .

⁽²⁾ القرآن الكريم ، صورة النور ، الآية 35 .

دم ابني الزجاج في عروقه انفجر

فكهرباء دارنا اصابنا الحجر

وصكّه الجدار ، خضّه ، رماه لمحة البصر

اراد ان يُنير ، أن يبثّد الظلام ، فاندحر⁽¹⁾

وقد يتمادى السياب في مناوئة "الحضارة" المدمرة ، فيرفع عند القطار ايضا
فهو الآخر من رموز المدينة الظالمة :

ترفع بالنواح صوتها كما تنهد الشجر

تقول : " يا قطار ، يا قدر

قتلت - إذ قتلته - الربيع والمطر⁽²⁾

فالقطار ، مثل الكهرباء ، قاتل ، قتل الربيع والمطر رمزي الحياة ،
والخشب والوجود .

لقد كانت المدينة على وفق الاسباب التي ذكرناها عنصرا قاهرا ، معتديا ،
مسخ الانسان ، وعبث بمصيره من اجل غايات دنيئة :

لتشعر بالرنين من النقود وضجة السفر

وقهقهة البغايا والسكرارى في ملاهيها

وعصرت الرنين من النهود بكل ايديها

تمزقهنّ بالعجلات والرقصات والنُمر

⁽¹⁾ ديوانه شناسيل ابنة الجلبي ، 1 / 418 .

⁽²⁾ نفسه ، 1 / 418 .

وتركلهن كالأكر⁽¹⁾

ولقد كان السياب منسجما مع نوازه ومبادئه حين وقف ذلك الموقف من المدينة لان صدمته فيها "حادّة ومزمنة"⁽²⁾ كما يقول احسان عباس ولكنها ليس "مبهمة"⁽³⁾ كما يرى ، لان تلك الصدمة لم تنشأ في المدينة وانما نشأت بصورة اغتراب اجتماعي - كما قدم الباحث - في جيکور ، وقد زادت المدينة حدة وتعقيدا بسبب مآسي الشاعر الوجدانية والسياسية التي عرضها البحث .

اما البياتي فهو ابن المدينة ، ففي "باب الشيخ" نشأ ، وترعرع ، يقول الشاعر :

حبّ من باب الشيخ ورائي

يمتد كخيطة مسحور

أمسكه فأرى بيتاً يغرق بالنور

اتطلع نحو الباب المغلق

في صيني طفل مبهور⁽⁴⁾

وكان من المفترض ان تنشأ الفة بين الشاعر وبين المدينة ولكن ظروف اغترابه السياسي والاجتماعي أهمته مواقف صنفها الباحث في مرحلتين :

ففي المرحلة الاولى تشي النصوص الشعرية بتعاطف مع المدينة ضد رموز العسف والقهر التي تربعت فيها ، وبالامكان استشفاف موقفين : اجتماعي

(1) ديوانه ، المعبد الغريق ، 1 / 133 .

(2) اتجاهات الشعر العربي المعاصر ، ص 117 .

(3) المكان نفسه .

(4) ديوانه ، بستان عائشة ، ص 69 .

وسياسي اما الاجتماعي فينبثق من كون استيطان الوحش - رمز الاستغلال -
المدينة ، والذي امتهن مصادرة ماتغله الحقول ، تاركا الفقراء ينتظرون موتهم
باستسلام القانع ، يقول الشاعر :

ما هنا عالم يجوع لتلهو في مقادير عيشه طاحونة

باعث الارض روحها - وتأبّت ان تعي بؤسها - لوحش المدينة ⁽¹⁾

ويندرج ضمن الموقف الاجتماعي ، اقتران المدينة بالسل ، والخوف ،
والجريمة وهي نتائج حتمية لطبيعة المؤسسة السياسية آنذاك التي تركت الشعب
بين مخالب الفقر ، والجهل ، والمرض ، وربما اوحى كل ذلك للشاعر أن يقول
عن المدينة انها "مدينة مزيفة" ⁽²⁾ يقول الشاعر في ذلك :

في ليالي الموت والخلق ، وفي الاعماق

اعماق المدينة

لم تزل كاهرة السوداء ، كالأم الحزينة

تلد الأحياء ، في صمت ، واعماق المدينة

تبصق الموتى ، على الأرصفة الغُبر السخينة ⁽³⁾

ويتجسد الموقف السياسي في كون المدينة احدى ضحايا السلطة القائمة ،
ولذلك اتسم موقف الشاعر بالتعاطف مع المدينة ضد "النار" التي التهمت
الأخضر واليابس فيها ، ضد الحاكم الذي اشعل المدينة بمن فيها وما فيها ، يقول
الشاعر :

⁽¹⁾ ديوانه : اباريق مهمشة ، 1 / 174-175 .

⁽²⁾ 178 . تجرّبي الشخصية ، 2 /

⁽³⁾ ديوانه ، يوميات سياسي محترف ، 1 / 428 .

ومرت السنون

لكنني افقت يا أميرتي

من غمرة الجنون

ولم أعد اجتاز في رآد الضحى

طريقنا الواغل في مجاهل الظنون

فالنار في مدينتي امتدت الى حدائق الليمون⁽¹⁾

وبسبب ذلك يعلن الشاعر ادانته لمن استباح مدينته ، واعتدى على
حرماتها ، فهي الآن غريبة مثله ، تقاسي من العسف ، وتعاني من السأم ،
والخوف ، يقول :

مدينتي استباحها العجز

مدينتي اهلكها الضجر

مدينتي ، القمر

يخاف من بيوتها المنفوخة البطون

يخاف من عيون

حاكمها الشرير⁽²⁾

ولكن البياتي لم يُعَدِّم الموقف القاسي على المدينة حين تكون رمزا للقهر
السياسي والموت ، ففي قصيدته "فيت مين" يتحدث على لسان جندي فرنسي

⁽¹⁾ ديوانه ، اشعار في المنفى ، 1 / 410 - 411 .

⁽²⁾ ديوانه ، المجد للأطفال والزيتون ، 1 / 303 .

عن باريس "حيث البغايا الشقر ، والعتمات ، والمتسولون ، وضريح ميرابو وروسبير والفكر المهان تحت النعال" ⁽¹⁾ اذ يخاطب زوجته :

وأنا وأضواء الحرائق ، والجنود

وحصون "لاووس" المنيع ، واللظى والثائرون بحرابهم ، أبدا ، برشاشاتهم ، يتقدمون "الموت للمستعمرين" ⁽²⁾ أما في المرحلة الثانية فقد تطور موقف الشاعر باتجاه الرفض لا سيما في قصائد القناع والسير الشخصية . ويبدو ان موقف الرفض هذا وليد يأس الشاعر من وثوب المدينة على حاكمها ، فاستدار نحو التراث العربي والاسلامي والعالمي يختار منها شخصياته النموذجية من ثوار ، وعشاق ، ومتمردين فقراء ، ولان معظم هؤلاء حاربوا مدنهم ، او حاربتهم مدنهم فان التزام البياتي ، موضوعيا وفنيا ، لهذا الاشكال التاريخي امر مفروغ منه .

في قصيدة موت المتنبى ، يفتح البياتي مقطعها الاول بالدعوة على المدينة:

لتحترق نوافذ المدينة

ولتذبل الحروف والاوراق ⁽³⁾

واذا كانت "المدينة" هنا مبهمة وعامة ، فالشاعر في نصوص اخرى يسميها: فهي بابل ، ومرة نراه يتحسر عليها لأنها تحت قبة الليل ، يقول الشاعر:

⁽¹⁾ ينظر : ديوانه ، اباريق مهمشة ، 1 / 176 - 177 .

⁽²⁾ ديوانه ، اباريق مهمشة 1 / 179 .

⁽³⁾ ديوانه ، النار والكلمات ، 1 / 710 .

فأه ثم آه

بابل تحت قبة الليل ، للازاد ولا معاد ⁽¹⁾

ومرة تسمعه ينسبها الى الشر :

بابل يا مدينة الاشرار ⁽²⁾

لان الحمل الذي كان ينتظره ، كان كاذبا فخلاص الوطن لم يزل بعيدا فلم يبق الا انتظار " الفارس المجهول " لكي " يبذر " في بطنها بذرة الحمل الحقيقي ، ان رفض الشاعر المدينة في هذه المرحلة ، هو رفض للواقع السياسي الذي إتسم بالتأزم ، بل بالتفجّر ، والتردي حيث هزيمة الخامس من حزيران ، ولذلك يتصاعد غضب الشاعر ، على المدينة : رمز المؤسسة السياسية ، ويعلو صوته لإحداث التغيير الثوري : دون جدوى .

أما بلند الحيدري الذي بالغ في اعتزال المجتمع ، فقد انعكس موقفه من المجتمع على موقفه من المدينة ، في مرحلته الاغترابية الاولى ، فلم يزل شابا ، داهمته الغربة الاجتماعية ، حين دخل المدينة حذرا ، من مجهول يخشاه ، فدروب المدينة كما رأها افعى ولكنه - مع ذلك - لم يتردد من ارتيادها ⁽³⁾ على الرغم مما عرف من زيفها وهجتها ، يقول :

ماذا سافعل في المدينة ؟

وسالتني :

⁽¹⁾ ديوانه ، الذي يأتي ولا يأتي ، 2 / 237 .

⁽²⁾ ديوانه ، الموت في الحياة ، ص 105 .

⁽³⁾ ينظر : ديوانه ، اغاني المدينة الميتة ، ص 26-27 .

ستضيع خطوتك الغبية في شوارعها الكبيرة
ولسوف تسحقك الازقات الضريرة
ولسوف ينمو الليل في اعماقك الصماء
آمالا حزينة (1)

وكان عليه على وفق هذه الرؤيا السوداوية ان يعود الى قريته ولكن قريته
أصبحت مدينة هي الأخرى ، يقول :

فلمن أعود ؟

لقريتي

او للشقاء يجرأ رصفة المحطة

لا لن أعود ...

لن أعود وقريتي أمست مدينة (2)

لقد كان غريبا في قريته ، ولم يكن امامه غير خيار الارتحال الى المدينة
وكأنه كان يتداوى من الرضاء بالنار .. اما في منفاه الاختياري فقد اختفى
الرفض من نصه الشعري ، وحل محله التعاطف مع المدينة التي فارقتها راغما ،
فرما وجد أنها غريبة مثله ، تنزف جراحها تحت مديّة النظام السياسي القسام
آنذاك ، كما تنزف جراحة في اغترابه ، يقول بلند :

اعرف يا مدينتي

(1) نفسه ، ص 96-97 .

(2) نفسه ، ص 98 .

كم من جراح ثرة ... مريرة
تنزف تحت الأجنح الكسيرة
لكنني اعرف يامدينتي
ماذا وراء بيتنا الكثيب
ماذا وراء صمته الرهيب
اي غد يلمع في الدروب (1)

ولذلك يعلن عن حنينه اليها ، فأقصى حلمه أن يعود ، يفتح شباك داره ،
ويفك اختناقه الذي تعاظم في ذاته وهو بعيد عنها ، يقول :

احلم يا مدينتي بالرجوع
لدارنا المطفأة الشموع
فاوقظ المصباح
وافتح الشباك للرياح
واترك المفتاح خلف الباب
للصوص
للزوار
للعود (2)

ان صخرة الغربة المكانية - خارج وطنه - تجثم على صدره ، ولذلك
حاول ان يزحزحها عن انفاسه ، فيحلم انه فتح نافذته ، واستنشق هواء العودة

(1) ديوانه ، خطوات في الغربة ، 80-81 .

(2) ديوانه ، رحلة الحروف الصفر ، 32-33 .

لذاته ولوطنه معا ، ولكنه حين يصحو على واقعه ، يتحسس جراحاته النائمة في اعماقه ليرى ان ما تصوره حملا كان كاذبا ، يقول : امرأة تحبل في الحي ولا تلد تكبر في الوهم ولا تعد⁽¹⁾ ومع ما يراه من مظاهر الحمل الكاذب فان الأمل يحدوه في أن يعود الى مدينته وهي :

مثقلة ببشائر صبح

بالبرء المتململ خلف الجرح⁽²⁾

بذلك يعبر بلند عن عمق اغترابه فيرفض المدينة ويدين زيفها ، ولكنه الى جانب ذلك يحاول استعادة توازنه ، في مواجهة احباطاته وعذاباته ، فيسلخ عن حنقه ، ويطفئ غيظه من خلال التطلع الى المدينة ، والائتلاف معها ، وبذلك فان الباحث لا يتفق مع الراي القائل ان بلند يمثل " قمة النفور من كل ما يسمى مدينة " .⁽³⁾ فربما انسحب هذا الرأي على مرحلة الشاعر الاولى كما تقدم في البحث تعاني نازك الملائكة في بعض الأحيان من صخب المدينة فتتمنى أن لو كان لها متجع في قرية ، او كوخ بين الحقول ، تقول الشاعرة :

آه لو كان لي هنالك كوخ شاعري بين المروح الخزينة في سكون القرى
ووحشيتها أقضي حياتي لا في ضجيج المدينة.⁽⁴⁾

وربما استبدلت القرية ، حيناً بالجمال ، تقول :

ليتنني من بنات تلك الجبال الغن حيث الجمال في كل ركن⁽⁵⁾

(1) ديوانه ، رحلة الحارس المتعب ، ص 89 .

(2) المكان نفسه .

(3) اتجاهات الشعر العربي المعاصر ، د. احسان عباس ، ص 117 .

(4) ديوانها ، مأساة الحياة واغنية للانسان ، 1 / 151 .

(5) نفسه ، 155 .

ان انطواء نازك ، وكرهها للضوضاء و مقتها لزيف المدينة ، اهتمها الرغبة في اعتزال المدينة ، والالتجاء الى القرية او الى الجبل ، على ان استفحال غربتها النفسية بعد ذلك ربما كان وراء تجاوزها "غربة المكان" ⁽¹⁾ ولكن ليس بشكل مطلق ، فقد شعرت بالغربة المكانية "في جبال الشمال" ، وربما رأت هناك ما اشعرها بالخوف ، وأثار فيها ذكريات اليمّة ، او ربما كان ارتيادها الجبال فرارا من وحشة قاسية حاولت تخفيفها ، فاذا بها تلقى ما لا تتوقعه من الوحشة المضاعفة تقول الشاعرة :

شبح الغربة القاتلة

في جبال الشمال الحزين

شبح الوحدة القاتلة

في الشمال الحزين

عذبنا قد سمعنا الطواف

في سفوح الجبال وعدنا نخاف

أن تطول ليالي العذاب ⁽²⁾

وكلما اشتدت في ذاتها عوامل الاغتراب واخذت بخناقها نفسها القلقة وروحها الحزين ، رغبت في الرحيل ، لا لشيء الا هربا مما يعمل في داخلها من رؤى موحشة ، وربما هربا من شيء تجهله ، تقول الشاعرة :

⁽¹⁾ ينظر نازك الملائكة ، دراسات في الشعر والشاعرة ، تجربة الاغتراب عند نازك الملائكة ،

عبد الله احمد المهنا ، ص 471 .

⁽²⁾ ديوانها ، شظايا ورماد ، 2 / 125 .

ويسألنا الأفق أين نسافر؟ أين نسير؟

ومن أي شيء هربنا؟ وفيما؟ لأي مصير؟⁽¹⁾

على أنها في الحالتين صريع الاغتراب المكاني ، فقد شعرت بذلك وهي في وطنها كما تقدم في "شمال الجبال الحزين" وما هي تشعر بالغربة ذاتها وهي في الولايات المتحدة ، تقول الشاعرة :

نخاف الاصيل

ونرحل لا رغبة في الرحيل

ولكن لنهرب من ذاتنا ، من صراع طويل

ومن أننا لم نزل غرباء⁽²⁾

الاغتراب الروحي :

يقصد الباحث بالاغتراب الروحي تلك الحالة التي يشعر فيها ، الفرد بانفصاله "عن ظرف انساني مثالي"⁽³⁾ فيتطلع - تبعا لذلك - الى "الانعتاق من العالم المحيط به الى عامل من صنع نفسه".⁽⁴⁾ ويرى الباحث ان هذا الاغتراب هو نتاج تراكم عدة انواع اغترابية كالاقتصادي والعاطفي وسواهما ، اذ أن تعاقب الاخفاقات والاحباطات تؤدي بالانسان الى اعتزال واقعه اعتزالا كلياً او

(1) ديوانها ، قرارة الموجة ، 2 / 303 .

(2) نفسه ، 305

(3) ينظر : الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً وواقعنا ، د . قيس النوري ، م ، عالم الفكر ، ع1 ، مج 10 ، 1979 ، ص 18 .

(4) نازك الملائكة ، دراسة في الشعر والشاعرة ، تجربة الإغتراب عند نازك الملائكة ، عبد الله احمد المهنا ، ص 465 .

شبه كلي وسعيه الى بلوغ واقع آخر لا وجود له الا في تصوره . وهذا الاغتراب أشبه ما يكون بغربة الهمّة لدى العارف التي اطلق عليها المهروي الانصاري اسم "غربة الغربة".⁽¹⁾

فقد عانت نازك الملائكة من الاغتراب الروحي بعد ان اعتزلت المجتمع " الاغتراب الاجتماعي " ، واخفقت في تجربتها العاطفية " الاغتراب العاطفي " ، فعشقت الليل ، وزهدت في الحياة ، واهتز ايمانها ، وها هي الآن تبحث عن المثل العليا ، بعد أن رأت الحياة جدراناً صلبة من الزيف ، والتفاهة ، فتحاول ان تخترقها الى بؤرة من الاشعاع القدسي ، لتنعّم بالنقاء ، والسمو ، وتعانق روحها ذلك الصفاء السرمدي الخالد ، حتى اذا اجهدتها البحث صاحت :

وعفت طموحي وبحشي الطويل

عن الخير ، والحب ، والمثل العالية

وحقّرت سعي الى عالم مستحيل⁽²⁾

واذ يتفاعل في نفسها الاحساس بالغربة مع يأسها من بلوغ عالمها المثالي تملكها الحيرة، فتستدير نحو ذاتها متسائلة متشككة:

تعذبني حيرتي في الوجود وأصرخ من المي : من أنا⁽³⁾

وهذا السؤال الفلسفي هو وليد الاحساس بالضياع ولكنه في الوقت نفسه نتاج تضخم الذات التي انسلخت بنقائنها عن الطقس الفاسد الملوّث ، تقول الشاعرة :

(1) ينظر : منازل المسافرين ، 3 / 128 .

(2) ديوانها ، شظايا ورماد ، 2 / 120 - 121 .

(3) ديوانها ، شظايا ورماد ، 2 / 50 .

الليل يسأل من أنا :

أنا سرُّه القلق العميق الاسودُّ

أنا صمته المتمرد⁽¹⁾

وتستطرد في سلسلة من الصور الميتافيزيقية فهي مثل الليل "جبارة" تطوي العصور ، وتنشرها وتخلق الماضي "من فتنة الامل"⁽²⁾ في محاولة للارتفاع على ألم الحقيقة ، وبلوغ راحة الحلم .

لقد شحذ اغترابها الروحي وعيها اليقظ الى الحد الذي آذاها واستعبدها ، واذا كان "من المطالب الرئيسية للوعي ان ينشد الوحدة" على حد تعبير روبرد وبليه⁽³⁾ ، فإن المفترض أن توجد مع الوحدة "الشفافية والسعادة"⁽⁴⁾ ولكن نازك التي فاضت غربتها عن مستواها الاقصى تخرج عن اطار التمرد الايجابي الى ما هو ابعد من ذلك ، فهي ذكرياتها واحزانها القديمة والتي تشكّل منها ثقل اغترابها ، وتطاردها من مكان الى آخر : فهي مرة عنفوان يملأ الدروب والمروج ويقتفي خطواتها ،⁽⁵⁾ وهو مرة ، سمكة تتعمق لتصبح حيوانا خرافيا ، تقول :

ومشينا ولكن الحركة

ظلت تتبعنا ، والسمكة

تكبر تكبر حتى عادت في حضن الموجة كالعملاق⁽⁶⁾

(1) نفسه ، 2 / 112 .

(2) نفسه ، 2 / 114 .

(3) كامو والتمرد ، ص 31 .

(4) ينظر : ديونها شظايا ورماد ، 2 / 75 .

(5) ينظر : ديوانها شظايا ورماد ، 2 / 75 .

(6) ديوانها ، قرارة الموجة ، 2 / 248 .

وهي مرة سعادة⁽¹⁾، ولا شك في ان تصوراتها المخيفة هذه وليدة غربتها الروحية التي عزلتها جسدا وروحا عما حولها وعمن حولها ، ولكنها - التصورات - احدى علامات يقظة فكرها الحيوي الطامح الى ان يتساوى مع الاغتراب فيحفظ توازنها ويحول بينها وبين الانهيار التام .

اما بلند الحيدري فقد كانت غربته الاجتماعية خطوة اولى الى غربته الروحية ، ويبدو أن انسلاخه من الاطار الثقافي الكردي واتصاله بالاطار الثقافي العربي بعد انتقال عائلته الى بغداد أحد أسباب اغترابه الروحي ، وهو يقول عن هذا السبب انه كان "ثاني شعور بالغربة ينمو لدى ويعمق الشعور الاول الناتج عن ضياعي في العائلة".⁽²⁾

وحين تمكنت منه العزلة "وانكفأ على نفسه ، سعى الى ما يعمقها وقد اخذته العزة بها ، فقرأ للشاعر كيتس وتصور "أن الحب مرتبك بالموت"⁽³⁾ وتأثر بابي العلاء المعري شاعرا وانسانا ، واعجب برومانسية محمود حسن اسماعيل ، وبالانسان المتمرد في شعر الياس ابي شبكة.⁽⁴⁾

وتوج هذا النهج الاغترابي يتمثل الفكر الوجودي ((كما كان يحدث مع كامو او على استيعاب فلسفي لمفهوم اليأس والزوجة والزمن والحرية في اطارها الفلسفي)).⁽⁵⁾ وهكذا يدخل مرحلة من الضياع واليأس ، فينزاع نحو

(1) ينظر : نفسه ، 2 / 402 .

(2) مقابلة مع بلند الحيدري ، اجراها يوسف الصائغ ، م . الاديب المعاصر ، ع5 ، مج2 ، 1973 ، ص 107 .

(3) نفسه ، ص 105 .

(4) نفسه ، ص 105 - 106 .

(5) نفسه ، ص 106 .

الموت طلبا للهدوء ، ويفقد احساسه بالحياة ، لأن " التمرد بالرغم من انتصاره
على العالم يظل بلا امل ، اذ انه قد ولد من رؤية للموت المطلق " على حد تعبير
دوبليه . ⁽¹⁾ يقول الشاعر:

يا طيوف الغناء مري سريعا

قد خبرت الحياة في كل دور

فعرفت الهدوء في الموت مجيا ⁽²⁾

وكلما اشتدت غربته الروحية ، تلاشى يقينه ، وتعملق شكّه ، يقول
الشاعر :

رباه إنَّ الشك يقتلني بدون ترحم ⁽³⁾

والشك بداية الانشطار الذاتي ، فها هو ذا يتمزق ، وينشطر الى ذاتين : انا
وانت ، يقول :

يرن ... يرن ... يرن ... يرن

من أنت ؟

انا انت

لقد اخطأت

وتموت على كفي السماعه ⁽⁴⁾

⁽¹⁾ كامود والتمرد ، ص 19 .

⁽²⁾ ديوانه ، خففة الطين ، 112 .

⁽³⁾ ديوانه خففة الطين ، 133 .

⁽⁴⁾ ديوانه رحلة الحروف الصفر ، ص 13 .

وينقسم عن ذاته ، وهو اذ يتساءل هل "نحن اثنان ام جيل ام جيلان" ⁽¹⁾ فانما يحاول ان يتجاوز اختناقه ، ويعلو على اغترابه ، وعلى الرغم من ان "التمزق معطى حضاري عند الأديب ... يتحول عبر الحساسية الفنية معيناً خصباً يغذي ادبه بنفس وجودي" ⁽²⁾ فانه سيتحول "الى حالة ازدواج في الكيان النفسي بفضل ضغوط خارجية أو تناقضات داخلية ، فهو اذن حالة نفسية انعكاسية تنبع من تقيُّص تجربة ذاتية واعية او غير واعية" . وفي قصيدة "ثلاث علامات" نلمس هذا الازدواج بشخصيتين تمثلان الشاعر ، تتحاوران بقلق ، ومن تكرار جملة "وافترقنا" ⁽³⁾ عند نهاية كل مقطع ، نتوصل الى ان الشاعر يحاول ان يطرد الشخصية الطارئة عليه ، فكأنه بذلك يحتمي منها بذاته التي كانت بمثابة العالم كله له . ويبلغ اغترابه الروحي حد تجاوز الزمن ، يقول :

للمرة العشرين

اريد ان انام

اسقط في النوم ولا انام

للمرة الخمسين ⁽⁴⁾

انه يفقد احساسه بالزمن الآن ، كما فقد احساسه بالمكان من قبل ، وها هو ينسلخ عن الوجود ، فيضع اهتماماته اليومية ، انسانا ، موضع الشك والتساؤل ، يقول :

أمولم أن تلبس الحذاء كل يوم ...؟

⁽¹⁾ ينظر : نفسه ، ص 15 .

⁽²⁾ البعد النفسي بين التمزق والصراع في ديوان "ابو القاسم الشابي" عبد السلام المسري ، م . الطليعة الادبية ، ع2 ، 1980 ، ص 14 .

⁽³⁾ ينظر : ديوانه ، اغاني المدينة الميتة ، ص 57 .

⁽⁴⁾ ديوانه ، اغاني الحارس المتعب ، ص 78 .

أجل ... أجل أكره أن أنزعَه

(1) أكره أن البسه

وهكذا تقوده غربته الروحية الشاقة الى عدّ الحياة زائفةً ، لا جدوى منها :
فالناس زائفون ، والايام زائفة ، (2) لان غربته تلك اقوى من ان يوقفها شيء ،
فقد تغلغلت في خلاياه واصبحت جزءا من تكوينه .

وقد عاش السياب غربة روحية بعد ان تضافرت غرباته الاجتماعية ،
والعاطفية ، والسياسية مع ما أفرزه مرضه الويل من هواجس وآلام ، لتشكّل
حالة نفسية مركبة هاجسها الموت ، ولكنه هاجس تلطفه من حين لآخر ما عُرف
عن السياب من حبّ للحياة وتشبّث بها ، وأمل - وان كان متفاوتا في قوته
وضعفه - في الشفاء من مرضه .

ويلعب اغترابه الروحي ذروته حين يقع السياب في الوهم : والوهم وليد
كابوس الاغتراب الجاثم على الصدر ، والوالع في الورح ، انه (الوهم) نتاج
الاغتراب ولكنه معادل له ومتكافئ معه ، يقول الشاعر :

ولبست ثيابي في الوهم

وسريت : متلقاني أمي

(3) في تلك المقبرة الشكلى

إن وهم السياب قام على انه "لبس ثيابه" وقام يمشي "وهما فعلان ينفيان
المرض الذي اقعده ، اي انهما في بؤرة تمنى الشاعر وفي مواجهة ثورة اغترابه
المتمثل في عجزه ، ومن مظاهر وهمه توقه الى رؤية الخالق ، يقول :

(1) ديوانه اغاني المدينة الميتة ، ص 54 .

(2) ينظر : ديوانه ، حوار عبر الابعاد الثلاثة ، ص 61 .

(3) ديوانه ، شناسيل ابنة الجلبي ، 1 / 609 .

تأنف أن تمسني يداك

اود لو اراك ... من يراك ؟

اسعى الى سدتك الكبيرة

في مركب الخطاة والمعتبين⁽¹⁾

على ان السياب كان عارفا انه في غربة روحية ، على الرغم من شراسة مرضه الذي ربما عطل جزءا من تفكيره واغتال بعضا من وعيه ، يقول :

يا غربة الروح في دنيا من الحجر

والثلج والقار والفولاذ والضجر

يا غربة الروح لا شمس فائتلق

فيها ولا أفق

يطير فيه خيالي ساعة السحر⁽²⁾

ووعيه بغربته الروحية مُلِم هو الآخر بخواء نفس الشاعر ، واستحالة رجائه ، ولولا هذا الوعي لطغت الغربة على فكر الشاعر وخياله ، وحالت بينه وبين قول الشعر بل ان الشاعر يشحذ وعيه الى اقصى طاقته من اليقظة والفعل ، فيكتب احدي قصائده ، الاخيرة بطريقة البيت الشعري ، يقول في مطلعها :

نفسي من الآمال خاوية جوداء لا ماء ولا عشب

(1) ديوانه ، المعبد الغريق 1 / 138 .

(2) ديوانه ، شناسيل ابنة الجلبي 1 / 1660 .

ما أرتجيه هو المحال وما لا أرتجيه هو الذي يحِبُّ (1)

وتلك احدى علامات اغترابه الروحي الذي استدعى مثل هذا الجهد
ليساويه في القوة والأثر .

المنهج التعويضي :

تراوح رد الفعل على الاغتراب بين العودة الى الطفولة ، واسترجاع
الماضي ، وبناء المدينة الحلم ، واستلهام التراث بالاضافة الى صيغ اخرى تفرد
بها الشعراء اشباعاً لحالات خاصة .

العودة الى الطفولة :

الحنين الى الطفولة " حنين الى طقس مفقود " (2)

لان "الهروب الرومانتيكي من الواقع والعودة الى الماضي او التوجه الى
المستقبل - الى عالم الحلم والمثل الاعلى - هو بمثابة تعويض للانسان بواسطة
الوعي ذلك الواقع الحقيقي ، وتلك الرسالة التي حرم منها في المجتمع
البرجوازي" (3) او هو بتعبير آخر هروب من "عقلنه" الواقع التي اسهم في
تأسيسها ، حتى اذا اصبحت عبئاً عليه لم يجد امامه سوى النكوص عنها والعودة
الى براءة الطفولة ونعيمها .

فالسباب يستعيد طفولته في جيكور وقد انتظر مطر السماء امام شرفة ابنة
الجلبي ، انها طفولة سعيدة تلك التي يستعيدها ، يقول :

واذكر من شتاء القرية النضاح فيه النور

(1) نفسه ، 1 / 712 ، وقد كتبت بالكويت بتاريخ 10 / 11 / 1964 اي قبل وفاته بأيام .

(2) مواجهات الصوت القادم ، حاتم الصكر ، ص 14 .

(3) اضاءة تاريخية على قضايا اساسية ، ع . د . د . غاثيف ، المجلد الثاني ، القسم الثالث ، ص

من خلل السحاب كأنه النعم

تسرب من شقوق المعزف ، ارتعشت له الظلم

وقد غنى - صباحا قبل... فيم أعد؟ طفلا كنت أبسم⁽¹⁾

ولكن اغترابه الراهن لا يدع خياله في اندياحه السعيد وانما يعيده الى
حاضره حيث المرض واليأس ، والاسف على ما مضى من العمر المهدود ورفي
الأوهام ، يقول :

ثلاثون انقضت ، وكبرت : كم حب وكم وجل!

وتوهج في فؤادي!

غير اني كلما صققت يدا الرعد

مددت الطرف ارقب : ربما ائلق الشناشيل

فأبصرت ابنة الجلي مقبله الى وعدي

ولم أرها هواء كل اشواقني ، اباطيل

ونيت دوئما ثمر ولا ورد! ⁽²⁾

وتفر نازك الملائكة من جحيم حاضرها المزدهم بالاسرار الى طفولتها
البسيطة، الوديعه، الواضحة ، تقول الشاعرة :

أسفا ضاعت الطفولة في الماضي وغابت افراحها عن جفوني

وهي لو تعلمين أجمل يا يملك قلبي وما رآته عيوني

⁽¹⁾ ديوانه ، شناسيل ابنة الجلي ، 1 / 597 .

⁽²⁾ ديوانه شناسيل ابنة الجلي 601 .

حينما كنت طفلة أجهل السر وأحيا في غفلة عن شجونني⁽¹⁾

وهكذا ترسم الشاعرة طرفي حياتها بين الأمس واليوم : براءة الطفولة وبساطة تفكيرها ، ووعي الشباب وتعقد حسه المرهف ، فكأنها تقارن بين حالين : لا اغتراب الطفولة "الأمس" ، واغتراب الشباب الحاضر .

ويرى عبد الوهاب البياتي طفولته في "باب الشيخ" حيث البيت الغارق في النور ، اشارة الى وداعة الطفولة ، مقارنا بينها وبين حاضره حيث تتقاذفه المنافي ، جرحا نازفا ، وبقايا احلام محطمة ، يقول :

حب من باب الشيخ ورائي

يمتد كخيط مسحور

أمسكه فأرى بيتا يغرق بالنور

اتطلع نحو الباب المغلق

في عيني طفل مبهور

أصرخ لكن الخيط المسحور

يصبح جرحا في قلبي

ورماد بخور⁽²⁾

وكان طفولة الشاعر "نور" ، وحاضره "دم" .

(1) ديوانها ، عاشقة الليل 1 / 479 - 480 .

(2) ديوانه ، بستان عائشة ، ص 69 .

وقد يرى البياتي طفولته مع اقترانه : مشروع مغامرة طفولية تجد طريقها الى المستقبل ، ففي الأمل البعيد حيث كان الفقر ، سيد الكون الصغير بدأت احلام البياتي الصغير تتشكل في حقل " الصمت " ، حيث يهيمن " الغروب " بأشباحه المثيرة ، وحيث ينتصب " السور " حاجزا بين عالمين : عالم هؤلاء الاطفال الفقراء ، وعالم الغد الثاوي في احشاء المجهول .⁽¹⁾ من هنا من هذه الثورة المشعة في ماضي الشاعر ، بدأت احلامه بالسفر نحو الغد ، يقول الشاعر:

وفي الظلام

ماوى الافاعي والعفاريت الضخام

كانت مدائننا الجديدة في خواطرنا تمقام⁽²⁾

وهكذا يسترجع الشاعر اندفاعه طفولته نحو الحياة كلما واجه الاغتراب ، او كلما لاح له الموت في أيما شيء يربعه . أما بلند الحيدري فهو يعي طفولته المعذبة ولذا فهو حين يتذكرها ، يستعيدها - كما كانت رمالا وتلالا من تراب⁽³⁾ وعلى الرغم من ارتباط طفولته بالالم ، والشقاء ، فان الشاعر يحاول ان يلتمس العزاء لنفسه : لماذا النفور من الحاضر ما دام شبيها بالماضي ، يقول :

بالأملس اذ كنا صغار

كم كانت الدنيا صغيرة

مازلت اذكر هاتيك السنين

⁽¹⁾ ينظر : ديوانه اباريق مهمشة ، 1 / 222 .

⁽²⁾ نفسه ، ص 223 .

⁽³⁾ ينظر : ديوانه ، اغاني المدينة الميتة ، ص 36 .

تلك الدروب المعتمات

ضحك السكاري العائدين من الحياة

بلا حياة⁽¹⁾،

ولكنه يضيفي احيانا ، على ماضيه ما ليس فيه من الجمال ، والصفاء ربما
لكي يواجه ثقل اغترابه الراهن ، بوهم الماضي اللا مغرب ، فليس " الخلق الفني
في جميع تجلياته الا تعويضا تصعيديا عن رغبات غريزية اساسية ظلت بلا ارتواء
بسبب عوائق في العالم الداخلي او العالم الخارجي " .⁽²⁾ يقول الشاعر :

حدثيني عن حياتي الماضية

فهي انوار الشباب المندثر

وأعيدي لي صدى ايامية

يوم رقت فوق آمال غُرُز

جديها وأبعثها ثانية

ذكريات تتمطى في خور⁽³⁾

استعادة الماضي والمدينة الحلم :

للماضي نكهة خاصة عند الانسان ، لا سيما ذلك الذي اثقلت احزان
الحاضر كاهله ، وأخذ الاغتراب بخناقته ، فالماضي على وفق هذا التصور مرفأ
يرتاده الشاعر فرارا من الالم ، والتماسا للراحة وان كانت في الحلم والخيال .

⁽¹⁾ نفسه ، ص 67 .

⁽²⁾ التحليل النفسي للفنان وآثاره ، دراكوليدس ، ص 13 ، نقلا عن علم النفس والأدب ،
د. سامي الدروبي ، ص 88-89 .

⁽³⁾ ديوانه ، خفقة الطين ، ص 119 - 120 .

جيكور هي مرفأ السياب المريض ، الفقير ، المحروم ، وهي مدينة / الحلم التي عجز الزمن ان يحوها من ذاكرته ، لانها اقترنت عنده بالبراءة ، والصفاء ، والطهر ، فهي "نافورة من ظلال ، ومن ازاهير ، ومن عصافير ، وحقل من النور" ارتادها طفلا ، وصبيا يطارد الفراشات تحت أفيائها ⁽¹⁾ ولذلك دعاها امه ⁽²⁾ ، وساء ان يذوي شبابها ، بعد غيابه ، ويصبح عنفوانها رمادا ، ⁽³⁾ ولكنه ، بخياله المتوقد ، وعشقه الاسطوري لها ، يجعل منها جنته ، التي تنتظر بعثها على يديه ، يقول الشاعر:

جيكور ... ستولد جيكور

النور سيورق والثور

جيكور ستولد من جرحي

من غصة موتي ، من ناري

سيفيض البيدر بالقمح

والجزن سيفضحك للصبح ⁽⁴⁾

ان اغتراب الشاعر الروحي خارج الوطن ، وفي داخله ، تعادله عودته الى جيكور بصورتيتها: الخضراء والجرداء، وفي عودته تلك يشوي امله الوحيد في استعادة عافيته وتجاوز غربته، وربما استطاع السياب ان يؤسس باسم جيكور "توتويأقريه" له، حين خلق منها ومن بويب رمزين حين خالدين ارتبطا

⁽¹⁾ ينظر ديوانه ، المعبد الغريق ، 1 / 186 .

⁽²⁾ ينظر : ديوانه ، شناسيل ابنة الجلي ، 1 / 656 .

⁽³⁾ ينظر : ديوانه المعبد الغريق ، 1 / 217 .

⁽⁴⁾ ديوانه ، انشودة المطر ، 1 / 411 .

باسم بدر الذي من جيکور⁽¹⁾ تماماً "كما ارتبط نهر" ايفن "باسم شكسير ،
ومنابع نهر "دق" بذكرى ورد زورث ...".⁽²⁾ فحين حاربت المدينة في وطنه ،
وطعنته في صميمي احلامه واسلمته للمرض والفقر ، وحين عجزت المدن
العربية والغربية عن مداواته ، ولم تقدم له سوى الوعود الكاذبة بالشفاء ، كانت
جيکور "مدينة الفاضلة الصغيرة" التي عاجلته بالحلم ، والحلم وحده ، فليس
للشاعر من مرفأ اخير يقضي فيه بقية حياته : سوى الحلم . وكما كانت جيکور
ماضيه وحاضره وغده ، فإن الحلم هو ازمائه الثلاثة .

وتهرب نازك الى ماضيها الغني بالسعادة ، والصفاء ، والطهر ، ففيه تثوي
ذكرياتها البيض ، وحق لها ان تأسف عليه ، فهو ماضٍ إلهي "لم يعرفه البشر ،
تسامى على زمن الآخرين ، المجبول بالزيف ، والتفاهة ، واتصف بالنقاء ،
والبراءة قبل أن يداهمها الحاضر الطيني البليد ، تقول الشاعرة :

أين مني حرارة الأمس، والحاضر يمشي بين الأسى والخمود

أسفا للماضي الالهي هل ماتت أغانيه في فؤادي الوحيد⁽³⁾

ان تمسك الشاعرة بماضيها الالهي يعود الى ان "الحب الالهي"⁽⁴⁾ جزء من
ذلك الماضي ، والمفارقة في الأمر : هي ان ذلك الماضي "غير الانسي" لم يعرف
الاغتراب ، في الوقت الذي غرق فيه حاضرها اللاهبي - البشري ، في
الاغتراب الروحي ، وحين تستدعي الشاعرة ماضيها فكأنها تستدعي المنقذ
الذي ينتشلها من بحر الغربة والضياع .

(1) النفخ في الرماد ، د. عبد الواحد لؤلؤة ، ص 175 .

(2) المكان نفسه .

(3) ديوانها : عاشقة الليل ، 1 / 563 .

(4) ينظر : نفسه ، 1 / 564 .

اما مدينتها الحلمية فهي تقيمها حيث تطمئن ذاتها القلقة المشبعة
بالاغتراب ، الى ما تراه وتحسه من معانٍ ، وموجودات ، ومرئيات تتناغم وما
تحلم به ، فقد وجدتها مرة في الشمال ، تقول :

تفجّري بالجمال

وشيدي يوتوبيا في الجبال

يوتوبيا من شجرات القمم

ومن خريز المياه

يوتوبيا من نغم

نابضة بالحياة⁽¹⁾

ويعتقد الباحث ان هذه الـ "يوتوبيا" مؤقتة ، لانها وليدة انبهار عابر أملته
عين الماء الثلجية المنحدرة بين صخور سر سنك الملونة⁽²⁾ . لان ما تحلم به
الشاعرة لم يمت الى الواقع بصلة ، وانما ينتمي الى العالم اللا محسوس ، حيث
تعيش روحها خارج الوجود البشري المؤلف ، تقول الشاعرة :

ويوتوبيا حلم في دمي	أموت وأحيا على ذكره
تخيلته بلداً من عبير	على افق حرت في سره
هنالك عبر فضاء بعيد	تذوب الكواكب في سحره
يموت الضياء ولا يتحقق	مالونه ما شذى زهره
هنالك حيث تذوب القيود	وينطلق الفكر من أسره

⁽¹⁾ ديوانها ، شظايا ورماد ، 2 / 153 .

⁽²⁾ المكان نفسه ، مقدمة القصيدة "يوتوبيا في الشمال" .

وحيث تنام عيون الحياة هنالك تمتد يوتوبيا⁽¹⁾

ان عزلة الشاعرة التامة هي التي تلهمها هذا الحلم ، المستحيل ، ولكنه في الوقت نفسه ، هو عزاء الشاعرة ، في مواجهته اغترابها ، والتخفيف من وطأتها. البياتي الذي فتح عيونه "على عالم نصفه ميت"⁽²⁾ كما يقول ، لا يرى في ماضيه الا الذكريات الحزينة ، فرما كان وعيه يقظا الى الحد الذي حال بينه وبين الاستمتاع بمرحلة الشباب كالآخرين ، وربما - ايضا - لان غربته المكانية خارج الوطن كانت مبكرة له من جهة ، وطويلة من جهة اخرى . فاذا تذكر زوجته - وهو في منفاه - تذكر صحراء حياته ، وجراح قلبه .⁽³⁾ واذا تذكر ولده ، قرن غربته في بلد الثلج ، بلوعة زوجته يوم الوداع ،⁽⁴⁾ اما اشتياقه الى بغداد فيعيده الى سجن بغداد والنخلة التي كانت تتوسطه ،⁽⁵⁾ ولكنه وهو محاصر باغترابه المكاني ، وفي لحظات انفعالية حادة ، اذ ينسى طموحه الشخصي ، ويتمرد على مكابرتة وكبريائه ، يعود الى ماضيه ، الى وطنه ، فيرى جمال الوطن ، بازاء وحشة اوروبا ، يقول الشاعر :

سماء اوروبا بلا نجوم
لا تذكرني بالخير او بالشر
يا صديقتي مدينتي الرقوم

(1) نفسه ، ص 36-37

(2) ديوانه ، اباريق مهمشة ، 1 / 226 .

(3) ينظر : ديوانه ، المجد للاطفال والزيتون ، 1 / 314 .

(4) ينظر : نفسه ، 334 .

(5) ينظر ، ديوانه ، كلمات لا تموت ، 1 / 565 .

فنحن في الشرق على الضياء

نحيا

على الدموع والدماء

مستنقع في وطني

أجمل

من بحيرة في ليل أوروبا

بلا ضياء (1)

ويهرب بلند الحيدري الى الماضي ، نافرا من الحاضر نفور المغترب الذي
سحقته اوجاع العزلة ، وأسباب الاحباط ، فحاضره تبعا لذلك خواء ، وتلاشٍ ،
يقول :

كل ما في حاضري يصرخ بي :أيها المجنون لا شيء هنا (2) وماضي الشاعر
هو الآخر ماضٍ حزين ، تسكنه المنغصات ، وتهبّ عليه رياح الاغتراب من كل
الجهات ، ولكن الشاعر يوهم نفسه ان فيه مأوى له ، يلتجئ اليه فرارا من
وحشة الحاضر وخوائه ، يقول :

هربت منها وراء الأبد	دقة الساعة ترثي فترة
منك أخرى برثاها فاهتدي	قلت : يا ساعة مهلا فانا
منك شبابي ونضاً من جلدي	فلقد أفنيت فيها قطعاً

(1) نفسه ، 566 .

(2) ديوانه ، خفقة الطين ، 94 .

كل عمري غابراً أحيا به حاضري ماضٍ وماضي غدي⁽¹⁾

وهكذا يهرب الشعراء من حاضر قاسٍ ، أثقل عليهم بغربة عزلتهم عن مجتمعهم حيناً ، وعن ذواتهم حيناً آخر ، الى ماضٍ قد يجدون فيه ما يخفف آلام الغربة ، ويلطف من قساوتها مهما كان عسف الماضي ، وحجم عذابه .

استلھام التراث :

دأب الشعراء عموماً ، وبعض الشعراء الرواد خصوصاً ، على استلھام التراث الانساني العربي والاسلامي ، لا سيما منه ذلك الذي ينضج بطولات وإجمادا ، ولا شك في ان " للتاريخ والبطولات سحراً خاصاً عند الشاعر اذ يحقق من خلال التغني به كثيراً من طموحه الذي يعجز عن بلوغه في مجتمعه ، ولحظته الحاضرة " ،⁽²⁾ وبصدق القول على الشعراء المغتربين الذين ربما استدعوا قصص التراث ، وبطولاته هرباً من الاغتراب الذي يقيد حاضريهم ، وبذلك يوازنون بين ماضٍ مكتنز بالمآثر ، اي ماضٍ لا مغترب وبين حاضر حافل بالمآسي ، اي حاضر مغترب . ففي قصيدة " في المغرب العربي " ينتصر السياب للرموز العربية المقدسة التي أساء اليها الغزاة ، ونالوا من قدسيتها ويفاجأ حين يبعث من قبره فلا يرى من اجماد الأمة غير أجرة حمراء ، وصحراء موحشة ، ومثدنة معفرة .⁽³⁾ ولكنه يستعيد معركة ذي قار كأحدى ملاحم العرب الخالدة التي تشخص الآن في ذاكرة الشاعر ، فيستعين باستدعائها على اغترابه الحاضر . يقول :

اله الكعبة الجبار

(1) نفسه ، 198 - 199 .

(2) الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر ، د. عبد القادر القط ، ص 353 .

(3) ينظر : ديوانه ، انشودة مطر ، 1 / 394 .

تدرع امس في ذي قار

بدرع من دم النعمان في حافاتها آثار

اله محمد واله آبائي من العرب⁽¹⁾

ولا يقف الشاعر عند المعركة التاريخية وإنما يربط رمزها بحالتين معاصرتين: حالة الثورة ونهوض في اقليم عربي ، وحالة تداع وبكاء في اقليم آخر ، فذلك الرمز كما يقول الشاعر :

تراءى في جبال الريف يحمل راية الثوار

وفي يافا رآه القوم يبكي من بقايا دار⁽²⁾

ويتهيئ الشاعر الى ان الغزاة يثأرون اليوم منا لماض كنا فيه سادتهم ، وفي قصيدة " ثلاث اغنيات عربية " تتخذ نازك الملائكة من "النسر المطعون" رمزا للانسان العربي ، فهو طائر " ظلله الهي " اقام بين النخيل السامق ، و" الصحارى المحرقات الرمال " . وقد بسط جناحيه من الخليج الى المحيط :⁽³⁾ تقول عنه الشاعرة :

في كبرياء الريش تحيا ذري

وأعصر يقظى ، ومجد عريق

اقام فوق الأرض لا يرتقي

نحو الاعالي في الفضاء الطليق

⁽¹⁾ نفسه ، 397 .

⁽²⁾ نفسه ، 397 - 398 .

⁽³⁾ ينظر ديوانها ، شجرة القمر ، 2 / 500 - 501 .

واللا نهايات تنادي وفي

ندائها همس الخلود العميق⁽¹⁾

وعلى الرغم من الكبوة التي عاناها هذا العملاق حين اغمدوا في قلبه
رحما يسعى "اسرائيل" الا ان الشاعرة تتفاءل بقرب الخلاص ، والشاعرة وهي
تستحضر امجاد العرب الغابرة في مواجهة الحاضر المنهار فإنما تلوذ بذلك الماضي
من اغترابها الحاضر ، وربما كانت تجد في بطولات الامة الغابرة ما يشبع تطلعها
الى المثل العليا ، والقيم الرفيعة التي طالما سعت اليها ، وتغربت في ذاتها من
أجلها .

اما البياتي فقد استلهم التراث من زاوية اخرى ، جانب التغيي بالأمجاد ،
والبطولات ، وركّز فيها على طبيعة النموذج المستلهم والصفات المشتركة
بينهما ، عبر ما يسمى بالقناع .

فقد قدم عدة شخصيات تراثية كالحلاج ومحي الدين بن عربي ، والمتنبي ،
والمعري ، والخيام ، وديك الجن ، والاسكندر ، وغيرهم في محاولة لاستبطان
مشاعرهم كأبطال نموذجين قصد التعبير "عن النهائي واللا نهائي ، وعن المحنة
الاجتماعية والكونية التي واجهوها ، في سعي فني وانساني لتخطي ما هو كائن
الى ما سيكون"⁽²⁾ عبر ما اسماه بـ "نظرية الحلول الثوري" التي تمنح هذه
الشخصيات نوعا من المعاصرة⁽³⁾ .

(1) ديوانها ، شجرة القمر ، 2 / 501 .

(2) تجربتي الشخصية ، 2 / 37 .

(3) دراسات نقدية ، محمد مبارك ، لقاء مع عبد الوهاب البياتي 145-146 .

وقد اختار ابطاله النموذجين من "الشخصيات الثورية في التاريخ التي تمثل العاشق او المتمرّد الثوري".⁽¹⁾ والبياتي من خلال هؤلاء لا يعبر عن ازمته الذاتية بل عن ازمة وجودية وانسانية عامة خاضها البطل النموذجي من اجل الحياة ضد قوى الموت والشر ، ومن خلال المسيرة الانسانية المركبة ، فإن نماذج الصراعات التي خاضتها تلك الرموز التاريخية قد تتجدد بصورة او باخرى في العصر الراهن ، وما على الشاعر الذي هو صوت الجماعة الا ان يلم باطراف وجوهر هذا الصراع وي طرحها بموضوعية عبر رؤيا كونية دونما اسقاطات ذاتية ، ولأن الشاعر منسحق - باستمرار - امام المصائر الفردية المفجعة لرموز الفكر والثورة المعاصرة ، ومازوم امام خيبات الثورة على المستويين العربي والكوني ، ولأنه ، ثانيا ، مأخوذ - بسبب تلك الهزائم - باغترابه المزدوج ، ولأنه ، ثالثا ، لما يزل ثوريا في الثورة ، فانه استمد عبر هذه النماذج / الاقنعة الامل ، والتفاؤل ، والإصرار ، ولكن مع الاقرار بالخيبات والمصائر المأساوية . ففي "موت المتنبي" يقول الشاعر على الرغم من نهاية المتنبي على يد قاتليه :

أرى بعين الغيب يا حضارة السقوط والضياح

حوافر الخيول والضياح

تأكل مذي الجيف اللعينة

تكتسح المدينة

تبيد نسل العار والهزيمة

⁽¹⁾ نفسه ، 147 . ولذلك انكر البياتي على الشاعر ادونيس تقديمه عبد الرحمن الداخل رمزا للصقر لان عبد الرحمن - كما يرى - لا يمثل النموذج الثوري ، وتجربته "لا تعبر عن طموح الجماهير الكادحة او الثورة" ، نفسه .

(1) وصانعي الجريمة

وفي "حنة أبي العلاء" يخاطب الشاعر التراثي الطغاة قائلاً :

فصبركم مضى الى الأبد

ولم تعودوا غير اشباح بلا قبور (2)

وفي "عذاب الحلاج" نسمعه يتحدث نيابة عن الشاعر ، وعن الجماعة :

موعدنا الحشر ، فلا تداعبي قيثاره الجسد

اوصال جسمي اصبحت سماء

في غابة الرماد

ستكبر الغابة يا معانقي

وعاشقي

ستكبر الاشجار

سنتقي بعد غد في هيكل الانوار (3)

إن حياة هؤلاء الابطال التي انتهت بالقتل "المتني" ، والموت بسبب الاحباط ربما "المعري" والصلب "الحلاج" بقدر ما توحى للشاعر باليأس ، والإحساس بالمرارة واستمرار المحنة ، فهي تمنحه القوة لمواجهة الشر ، من جهة ويحاول من خلالها تهدئة عناصر اغترابه وتخفيف وطأتها ، وجعلها نقطة انطلاق وكفاح له لا حاجزا يحول بينه وبين المضي الى امام من جهة اخرى .

(1) ديوانه ، النار والكلمات ، 1 / 716 - 717 .

(2) ديوانه ، سفر الفقر والثورة ، 73 .

(3) نفسه ، 29 - 30 .

صيغ تعويضية أخرى :

وجد الباحث صيغا تعويضية أخرى استخدمها الشعراء الرواد بالاضافة الى الصيغ المشتركة التي مر ذكرها ، فقد كانت صيغة السياب التشبث بالحياة ، وكانت صيغة نازك عودتها الى الايمان ، واتخذ البياتي من تحوله الى الثوري اللا ملتزم صيغته المضافة ، اما بلند الحيدري فقد كانت صيغته : المجون والصعلكة .

السياب والتشبث بالحياة :

لم يتعرض شاعر عربي معاصر لمحنة الجسد المريض كالسياب باستثناء الشاعر صلاح عبد الصبور الذي انصرف اواخر ايامه الى شعر الحزن " بكيان واهن وجسم معطوب " .⁽¹⁾ والشاعرة نازك الملائكة التي تعاني من مرض عضال منذ عامين⁽²⁾ ابعدها عن الشعر كثيرا ، وقد وضع المرض السياب وجها لوجه امام الموت ولكن الحياة لم تغب عنه ، لأن الموت والحياة عنده وجهان لقضية الانسان في هذا الوجود ، وقد " يندر أن تجد بين شعراء العربية من أدرك بمثل نفاذه كمون الموت في الحياة ، وكمون الحياة في الموت " .⁽³⁾

وبقدر ما كان صراخه بوجه الموت خوفا منه ، بقدر ما كان في الوقت نفسه حبا في الحياة ، وشفقة عليها ، ونحسب ان لو كان غير السياب في هذا الوضع لأثر الصمت مرغما تحت طائلة المرض ، ولكن الشاعر وعى " غزارة الحياة " .⁽⁴⁾ وجعل من المرض تجربته الخصبية التي لا تنضب ، ومع كل شراسة مرضه ، ويأسه من الشفاء فقد كان متفائلا ، اسمعه يقول :

⁽¹⁾ دراسات في الشعر الحديث ، د . عبده بدوي ، ص 295 .

⁽²⁾ حاول الباحث زيارتها في مستشفاهها بالاردن خلال عامي 1994 و 1995 اكثر من مرة ولكن زوجها حال دون ذلك .

⁽³⁾ السياب ، عبد الجبار عباس ، 243 .

⁽⁴⁾ النار والجوهر ، جبران ابراهيم جبران ، ص 69 .

ايه اقبال ، لا تيا سي من رجوعي

هاتفنا ، قبل ان اقرع الباب ، عادا

عازر من بلاد الدجى والدموع⁽¹⁾

وكلما الح عليه المرض بسكاينه تقرب الى الله ، فلم يحدف ، ولم يهتز
ايمانه بل اوصل العلاقة الى مستواها المثالي " بين الانسان والاله "⁽²⁾ وهكذا ،
وخلافا لما درج عليه المعذبون ، المسحوقون من ركوب الشك ، والتنكر للسماء ،
فان المرض عند السياب ارتفع بالعلاقة مع السماء عن مستواها الاعتيادي وان
لم يبلغ بها مرتبة التصوف ، يقول الشاعر :

لك الحمد مهما استطال البلاء

ومهما استبد الألم

لك الحمد ان الرزايا عطاء

وان المصيبات بعض الكرم⁽³⁾

ومع ان السياب عاش قساوة العصر ، بروح مرحة ، وجلد ايوبي كبير ،
الا انه ارتفع بجزئه - احيانا - الى مستوى التضحية ، وبذلك عانق اغترابه بندية ،
ولم يسمح له ان يجرده من كل عناصر الحياة والمقاومة ، يقول :

قالوا له " والداء من ذارماه

في جسمك الواهي من ثبته ؟ "

⁽¹⁾ ديوانه ، منزل الاقنان ، 1 / 262 .

⁽²⁾ بدر شار السياب دراسة في حياته وشعره ، احسان عباس ، ص 378 .

⁽³⁾ ديوانه ، منزل الاقنان ، 1 / 248 .

قال : " هو التكفير عما جناه

قابيل والشارى سدى جثته " (1)

كما بقي مسيطرا على آله الشعرية ، فعلى الرغم من اضطراب ذاكرته
احيانا " غير انه في قصائده لم يجد عن الخط الذي كان قد وضعه لنفسه ولم يخنه
قط صفاء ذهنه حتى النهاية " (2) وليس أدل على ذلك من شعره الذي حافظ
على اوزانه السليمة ، عدا بعض القصائد . (3) وهكذا تشبث السياب بالحياة من
خلال التصاقه بالشعر ، واحلامه في الشفاء ، ومقاومته المرض مقاومة الفادي
الأمر الذي يعني في المحصلة الاخيرة مواجهته الاغتراب والتقليل من آثاره
السلبية .

نازك والعودة الى الايمان :

كانت عزلة نازك شبه مطلقة وهي اقرب ما تكون الى الانطواء على
الذات ، وربما كانت على وفق هذا التوصيف " مرادفة للجحيم وللعدم " (4) فقد
كانت " مستغرقة في نفسها دون أن تجد لها مخرجا او مهربا ... لان الموضوع هو
العقبة الرئيسية في سبيل انتقال الذات من وجودها الداخلي واتصالها الروحي
بذات اخرى " (5) : وقد توسلت بالهروب الى الطفولة والماضي مرة ، وبالبحث
عن يوتوبيا خاصة بها مرة اخرى دون جدوى ، فما هو السبيل الى تجاوز هذا

(1) نفسه ، 1 / 296 .

(2) النار والجوهر ، جبران ابراهيم جبران ، ص 35 .

(3) ينظر البيئة الموضوعية والفنية للشعر الوجداني الحديث في العراق ، عبد الكريم راضي

جعفر ، رسالة دكتوراة مطبوعة بالآلة الكاتبة ، ص 370 - 371 و 382 - 383 .

(4) ينظر : العزلة والمجتمع ، برد ياثيف ، ص 117 .

(5) نفسه ، ص 120 .

الاغتراب المغلق ؟ يبقى ثمة "العامل الالهي هو وحده الذي يستطيع ان ينتصر على العزلة ... والله لا يمكن ابدا ان يكون موضوعا" (1)

وقد لاحظ الباحث ان ثمة تحولا في موقف الشاعرة من خلال قصائدها في رثاء امها ، فعلى الرغم من هذا الخطب الفادح وما قد يسببه من ألم لا متناه للشاعرة الا انها لم تجد لالمها منفذا آخر غير أن تحبه وتغني له . (2) فجاءت مراثيها الثلاث احتفاء رقيقا "بغلام مرهف سابح في بحر أريج" (3) خلافا لمعجم الشاعرة المعروف ويبدو أن هذا التحول جاء متزامنا مع بداية عودتها إلى الإيمان وربما كان ممهدا لها . (4) ولا شك في ان الإيمان سيصلها بالمطلق الذي طالما بحثت عنه وأخطأت الطريق اليه ، وسيضيء بعض جوانب روحها ، وستجد من خلاله نوافذ جديدة للاتصال بالآخرين على انه سيكون عاملا مخففا لا منقذا ، واذا كانت فيما مضى تستعين بالشك ، والرفض على ارتياد المجهول ومصارعة الالام ، فانها الآن "باسم الله تخوض صراعها مع الاحزان والدموع والاساطير والظلمات" (5) تقول الشاعرة :

باسمك باسمك باسمك باسمك

يا ضوئي يا عطري ما مجدي يا نجمي

(1) المكان نفسه .

(2) ينظر : ديوانها قرارة الموجة ، مقدمة قصيدتها : ثلاث مرات لامي " 2 / 311 .

(3) ينظر : نفسه ، 313 .

(4) ينظر لمحات من سيرة حياتي وثقافتي ، نازك الملائكة ، توفيت امها عام 1953 ، وتحدد الشاعرة مرحلة تشككها ما بين 1948 - 1955 . اوراق مطبوعة بالآلة الكاتبة ، ص 9-10 ، 19 .

(5) نازك الملائكة دراسات في الشعر والشاعرة ، ظاهرة التفاؤل في شعر نازك الملائكة ، سالم الحمداني ، ص 306 .

يا امواج انشقي انشقي
عن ساحرة وعروس البحور
تمسح جرحي ودموعي
تضمن ان اعبر كالبرق

للشاطيء حيث حصاد نجومى وزروعى⁽¹⁾

واذا كان صحيحا ان الماجنين " حين يزهدون يصير شعرهم قيشارة تنذب
بأوتار الندم والخوف " ⁽²⁾ فإن الملحنين اذا ما استيقظ فيهم الايمان سيعودون الى
الله ضارعين بقلوب خاشعة ، ونفوس متبتلة ، وهذا هو حال الشاعرة بعد سنين
من القلق ، والحيرة ، والته تعود الى حبيبها ومليكه ، تقول :

حُبُّه حُبُّ مليكى رحلة في اللانهاية

وجهه يستغرق الكون ، ومن آفاقه تبدأ لي كل بداية⁽³⁾

إنه الوجد الصوفي " والوجد حالة من الصفاء الروحي يستغرق فيه
الصوفي عن حواسه " ⁽⁴⁾ . وقد لاحظ الباحث ان معجمها الشعري مايزال حافلا
بالفاظ الغربة مثل الغيوبة ، والته ، ولج البحور ، والخفايا ، والمضيع ،
والاغتراب ، وماتزال قصائدها تنضج غربة على الرغم مما فيها من عذوبة
الوجد ، وعظم المجاهدة تقول مثلا :

⁽¹⁾ ديوانها ، للصلاة والثورة ، ص 120 .

⁽²⁾ التصرف الاسلامي في الادب والاخلاق ، د ، زكي مبارك ، 1 / 75 .

⁽³⁾ ديوانها ، يغير الوانه البحر ، ص 136 .

⁽⁴⁾ الشعر الصوفي ، عدنان حسين العوادي ، ص 95 .

اهيم مضبعة في شعاب القصيدة عبر شوارع

وأضرب في سكك ومزارع

تفاصيل وجهك مختومة بالضباب

وروحى مختومة بالمدامع

محجة في سواد براقع

وقلبي اغتراب (1)

ويرى الباحث ان عودتها الى الايمان خفت من حدة اغترابها ، ولم تنفّه
فقد دخلت في أقنوم التصوف والزهد الى حد ما ، و" الزاهد والمتصوف غريب في
عصره ، غريب بعزلته وتفكيره ، غريب بروحه التي تبغي الانعتاق " . (2)

البياتي وصيغة الثوري افلا منتمي :

ما كان للبياتي ليستمر في ثوب الثوري المنتمي ، وهو الذي يعيش
المتغيرات الفكرية في الغرب ، طامحا الى ان يكون شاعرا كونيا . وربما أدرك
بحسه أن صيغة الثوري المنتمي كانت أحد عناصر اغترابه وان الانسلاخ عنها
سيكون عامل تخفيف لغربته من جهة ، وإشارة مرور في الطريق الكوتي الذي
ربما لم يكن سالكا امام " الثورة المنتمية من جهة أخرى ولعلّه عانى من ذلك
الانتماء الأمر الذي جعله يصرخ :

(1) ديوانها ، يغير الوانه البحر ، ص 111 . وتنظر قصائدها : سنابل النار ، والسماء على
غابة الصبر ، وتمتات في ساحة الاعدام ، والسفر في المرايا الدامية ، وصور ونهويكات
امام اضواء المرور ، وكلها كتبت في العام 1974 ديوانها يغير الوانه البحر ، 118 و
141 و 160 و 171 على التوالي .

(2) الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث ، د . ماهر حسن فهمي ، ص 109 .

قدمت اوراق انتسابي لرسول الرب

وقوميسار الشعب

من اجل ان تشرق شمس الله

على الغد المسكون بالخوف وبالأشباح

لكنه سلمني لغرف التعذيب والسجون والبوليس

والنفي والتشريد⁽¹⁾

وهكذا امتلك بعضا من حريته، وأسترد وجهه العربي⁽²⁾ وشرع ينشد
للوطن العربي . على ان تحول الشاعر الى مرحلته الجديدة لا يعني خلاصه من
اغترابه ، وإنما يعني أنه فتح فضاءً له في سماء غربته ، خفف عنه وطأته ، وسمح
له بالتنفس ، لمعاينة مآسي جديدة يعيشها الانسان ، يقول :

رأيت يا حبيبي كل طغاة العالم القديم

لكنني اكتشف الآن طغاة العالم الجديد⁽³⁾

وعلى الرغم من هذه المآسي التي تستدعي الاحباط والحزن ، فان الشاعر
يظل متفائلا ، بغد الخلاص ، يقول :

ثانية سيقبل المخلص المسيح

ها أننا أراه في الغيب وفي بوابة المستقبل البعيد⁽⁴⁾

(1) ديوانه ، قصائد حب على بوابات العالم السبع ، 3 / 84-85 .

(2) دراسات في النقد الادبي ، د . احمد كمال زكي ، ص 126 .

(3) ديوانه ، قصائد حب على بوابات العالم السبع ، 3 / 78 .

(4) نفسه ، 3 / 116 .

وهكذا يصبح البياتي اللامتمي أقدر على مواصلة حياته في المنفى ، فقد أعانه وضعه الجديد على ارتياد التراث الانساني ، شخصيات ومدنا وحضارات، ينتقي منه ابطاله النموذجيين ، متخذاً من هزائمهم وانتصاراتهم بؤراً عصرية يطل منها على الكون من جهة ، ويشاغل غربته عبر ما يستخدمه من وسائل فنية تعادل اغترابه من جهة اخرى ، ولولا هذه الصيغة ما استمر البياتي ، شاعراً ، ولتوقف منذ زمن بعيد اولاً ، ولولاها ثانياً لما استمر حياة الغربة كل هذه السنين وهو بعد معافى الجسد والروح والقلب .

بلند ومرحلة المجون والصعلكة :

لم يكن دخول بلند عالم المجون والصعلكة اختيارياً ربما ، وانما كان انسياقاً لا شعوريا وجد الشاعر فيه نفسه بعد ان تلبسته الغربة النفسية الحادة ، ولم يجد في طفولته وماضيه ما يتقي بها جحيم عزلته ، فقد اندفع بلند الانسان مع بلند الشاعر الماخن ، فتشرد مع حسين مردان وترك المدرسة ، وعافر النوم في الشوارع ، في "انبساطية خارجية" ربما كانت مفتعلة للتمويه على "الانطوائية الداخلية" التي جُبل عليها ⁽¹⁾ وكأنه اراد بذلك الثأر من المجتمع الذي اعتزله ، من خلال التمرد على منظومته الاخلاقية ، من جهة ، والتعويض عن شبابه اليافع المهدور بالاستغراق في العبث والمجون ، من جهة اخرى ، يقول :

نزت الانام في عمري فتوري

وارقصي نشوى على قلبي الكسير

مضغ الحزن شبابي يافعا

⁽¹⁾ ينظر : مقابلة مع بلند الحيدري ، اجراها يوسف الصائغ ، م . الاديب المعاصر ، ع5 ،

مج 2 ، تموز -1973 ، ص 103 و 106 .

فأمضي بالشهوة القصوى مصيري⁽²⁾

وليقينه بأن حياته اغتراب في اغتراب ، فقد قاده ذلك الى تحدي الرمز المقدس ، والقيمة العليا فلم يعد يهوى "جنة الله" ، أو يخشى "السعير الخالد" ،⁽¹⁾ واتخذ من ابي نواس مثله الاعلى ورفيقه الدائم في ليالي المتعة والأنس ، يقول :

يا أبا نواس قم حيّ الدجى حانة الارواح واجمع شملنا⁽²⁾

ولأنه يعيش احباطا عاطفيا بسبب غياب المرأة التي تبادله الحب ، فقد راح يطأ الاثم في بيوت الاثم ، مدركا ان غضبه العاتي على المجتمع يساوي "شهوته العاتية" ، وانه لا سبيل الى اطفائها ، يقول :

في ليلة صور فيها القدر

ملاعب الرياح والمطر

والليل قد لاذ بأردانه

وكللت دنياه شتى صور

سيرني الشوق الى عالم منعزل ينفت إثمأ وشرأ

لمنزل خاف بكف الدجى الأ سنى يخاف أن يستتر

هذا جعيم مزيد بالخنى فكيف يظني شهوتي العاتية⁽³⁾

⁽²⁾ ديوانه : خفقة الطين ، ص 156 .

⁽¹⁾ ينظر المكان نفسه .

⁽²⁾ نفسه ، ص 150 .

⁽³⁾ ديوانه ، خفقة الطين ، ص 160-161 .

ان هذه الوسيلة الماجنة التي توسل بها الشاعر - من دون وعي ربما - قد تساعده على مواجهة عزلته ، ومقاومة غربته ولكن لمدة زمنية قصيرة هي ما تستغرقه تلك الممارسات المحمومة لانها من صنع انسان اغتزل مجتمعه ، وفقد الثقة به ، ولم يجد فيها امتهنه غير لذة قشرية خادعة ، هي اللذة المرة التي كانت وستظل من نصيب ذوي الاحساس المرهف ، والعقل اليقظ ، والنفس الغريبة .

هكذا حاول الشعراء ان يسلكوا نهجا تعويظيا بقدرة خيال تعويضي، تعبيراً عن عالم مفزع، كما يقول كولن ولسون،⁽¹⁾ وربما حالف الحظ بعضهم وربما خانهم جميعا .

⁽¹⁾ ينظر : المعقول واللا معقول في الأدب الحديث ، المقدمة ، ص 6 .

الفصل الثاني البنية اللغوية

القصيدة موضوعا لغويا :

لم يعد موضوع خلاف أن القصيدة "موضع لغوي من نوع خاص" ⁽¹⁾ يعالجه الشاعر بتوظيف متميز ، يختلف جذريا عن اليسباقيين : المعجمي والثري ، وذلك يعني ان الشعر " لغة داخل اللغة " ، ⁽²⁾ لا تجترح الا بعد تحطيم الالفاظ ، واستكناه دلالاتها واعادة صياغتها - عبر الخوض في اعماق التجربة الانفعالية - مولودا جديدا مطابقا لموصفات المنتج الذاتية والموضوعية وبصورة انسان تركيبته وعاطفية مبتكرة . وبذلك تكون اللغة شعرية لانها على وفق هذا التكوين ستقيم "علاقات جديدة بين الانسان والاشياء ، وبين الاشياء والاشياء ، وبين الكلمة والكلمة " . ⁽³⁾ وبمعنى آخر فانها تقدم "صورة جديدة للحياة والانسان" ⁽⁴⁾ ولأن وظيفة اللغة الشعرية " تعبيرية جمالية انفعالية تستخدم للتعبير عن احساسات واتجاهات واثارتها عند الآخرين " ⁽⁵⁾ فان تميزها عن اللغة الاشارية تحصيل حاصل ، لأن هذه الاخيرة قاصرة " عن ان تصف منظرا طبيعيا او وجها انسانيا " . ⁽⁶⁾ ولذا كان ميدانها هو العلم الى جانب كونها لغة الحياة اليومية .

⁽¹⁾ لغة الشعر المعاصر ، محمود الربيعي ، م. فصول ، ع4 ، يوليو ، 1981 ، ص 128 .

⁽²⁾ بنية اللغة الشعرية ، جان كوهين ، ص 129 .

⁽³⁾ سياسة الشعر ، أرونيس ، ص 154 .

⁽⁴⁾ المكان نفسه .

⁽⁵⁾ الأسس الفنية للابداع الفني ، مصطفى سويف ، ص 281-282 .

⁽⁶⁾ العلم والشعر ، إ أ ، ريتشارد ز ، ص 30 .

ولكي "يحرك الشاعر خيال قرائه ... بحيث تصبح تجاربهم بقدر الامكان تقليدا صحيحا لتجاربه" ⁽¹⁾ فان عليه ان يقوم بعملية اختيار دقيقة لالفاظه تضع المتلقين في عمق التجربة لا على سطحها . وهكذا يكون لكل شاعر معجمه الشعري الخاص ، ويظل اختيار المفردات "سرا لشاعر نفسه" ⁽²⁾ في ضوء تجربته الانفعالية .

ان الشعر "صفة علوية ، اي نقل مفاجيء تقوم به الالفاظ تحت تأثير خاص كما يقول الناقد هيربرت ريد" ⁽³⁾ ، ولذلك كانت لغة القصيدة لغة تكثيف وغرابة ، تتخذ الكلمات فيها "وزنا أثقل من الوزن الذي تحمله الكلمات نفسها عندما نصادفها في الكلام العادي او في صفحة جريدة او حتى في صفحة من الكتابة الثرية" ⁽⁴⁾ . مما يشير صراحة الى انه ليست هناك كلمات شعرية واخرى غير شعرية وانما هناك ثقل خاص لهذه المفردات تكتسبه في الشعر ، اذ أن السياق وحده هو الذي يمنح الالفاظ شاعريتها او العكس ، والشعر الجيد ايضا هو الذي يكسب الفاظه قوة ونضجا" ⁽⁵⁾ . وهذا ما أكدته عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري في نظرية النظم حين ذهب الى ان موقع المفردة من السياق هو الذي يمنحها الدلالة المناسبة والمؤثرة . وبذلك يكون الجرجاني قد يكن ((على عمل العناصر في البيئة اللغوية من أجل انتاج المعنى)) ⁽⁶⁾ وهو وليس على العناصر ذاتها ما اهتم به النقد الحديث ، فها هو الناقد الانكليزي ريتشاردز يقول : "ان النغمة الواحدة في اية قطعة موسيقية لا تستمد

⁽¹⁾ قواعد النقد الادبي لاسل أبركرمي ، ص 34 .

⁽²⁾ العلم والشعر ، ا . ا . ريتشاردز ، ص 31 .

⁽³⁾ الأسس الجمالية في النقد الأدبي ، د . عز الدين اسماعيل ، 345 .

⁽⁴⁾ الشعر والتجربة ، ارشيبالد مكليش ، ص 20 .

⁽⁵⁾ ينظر دلائل الاعجاز ، ص 36 .

⁽⁶⁾ علم اللغة العام ، فردينان دي سوسور ، مقدمة المراجع ، د . مالك يوسف المظلي ، ص

شخصيتها ولا خاصيتها المميزة الا من النغمات المجاورة لها ... كذلك اطلال في الالفاظ فان معنى اية لفظة لا يمكن ان يتحدد الا من علاقة هذه اللفظة بما يجاورها من الفاظ".⁽¹⁾

إن وضع الالفاظ في سياقاتها المناسبة لا يتم اعتباطا ، على الرغم من استغراق الشاعر في لحظات شعرية هي اقرب الى اللاوعي منه الى الوعي ، فلا مناص للشاعر من اختيار "الجميل المناسب ، والانيق الحسن" ⁽²⁾ من الالفاظ ، لكي لا يدع "الحالة الشعرية وما صاحبها من توقد ذهني وايقاعية ملحة تسرع الى قوالب مألوفة مجددة بجاذبيتها الموسيقية ، ومحددة بصداها في النفوس ، وكذلك بمضمونها المقرر" ⁽³⁾ لأن الشعر ... طبع ومهارة . ⁽⁴⁾ ولكي يتم "تحويل آلام الدم الى حبر" كما يقول اليوت . ⁽⁵⁾ كان لا بد من تأسيس معجم شعري لكل شاعر كبير ، ولان الشعر ذو جلال خاص ، "ولولا هذا الجلال لما عد الشاعر بمنزلة النبي" . ⁽⁶⁾ فان ثمة اشتراطات على الشاعر ان يحيط بها كالوعي والخبرة ، والقدرة على استيعاب الحاضر والماضي والافادة من تجارب المعاصرين والاسلاف ⁽⁷⁾ كيما يكون جديرا بملكوت الشعر ، وهذا ما كان عليه شعراؤنا الرواد مجسدا بمنجزهم الشعري ، ببنائه الهندسي ، وتقنياته المتقدمة ، ومعجمهم الشعري .

⁽¹⁾ قضايا النقد الادبي بين القديم والحديث ، د . محمد زكي العشماوي ، 320 .

⁽²⁾ لغة الشعر بين جيلين ، الدكتور ابراهيم السامرائي ، 10 .

⁽³⁾ دراسات في النقد الادبي ، د . احمد كمال زكي ، ص 123 .

⁽⁴⁾ المكان نفسه .

⁽⁵⁾ الشعر كيف نفهمه ونتذوقه ، اليزابيث دور ، ص 339 .

⁽⁶⁾ مفهوم الشعر ، د . جابر عصفور ، ص 288 .

⁽⁷⁾ ينظر : نفسه .

المعجم الشعري :

لكل شاعر كبير لغة متفردة إن على مستوى اللفظة او على التركيب او على مستوى البناء . ومنذ العصور الاولى كان " في كل شاعر مخترع لغة " .⁽¹⁾ فحين جدد ابو تمام في لغته الشعرية أثار حفيظة النقاد وكان معظمهم لغويين ليس لهم " بصر بالشعر ونقده " ،⁽²⁾ فحاكموا الشعر على اساس الدلالات المعجمية ، والتزامه بقواعد النحو والصرف ، ولكن العصور الاولى لم تفتقد واحدا مثل الخليل بن احمد الفراهيدي " ت 175 " يقول عن الشعراء انهم : " امراء الكلام يصرفونه أنى شاءوا ، ويجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم من اطلاق المعنى وتقييده ، ومن تصريف اللفظ وتعقيده ، ومد المقصور ، وقصر الممدود ، والجمع بين لغاته ، والتفريق بين صفاته ، واستخراج ما كلت الالسن عن وصفه ونعته ، والاذهان عن فهمه وايضاحه ، فيقربون البعيد ، ويبعدون القريب ، ويحتج بهم ولا يحتج عليهم " . وبهذا يقترب الفراهيدي - الذي⁽³⁾ عصره - من الموقف النقدي المعاصر الذي يؤكد ان " وما دامت⁽⁴⁾ اللغة فن الشعر " كما يقول بول فاليري وما دامت الالفاظ تخلق كما يخلق كل شيء يمر عليه اصبع الاستعمال في هذه الحياة المتغيرة " فمن حق الشاعر ان تكون له⁽⁵⁾ لغته الخاصة التي تعبر بدقة عن تجاربه الانفعالية في لحظات التأسيس الشعري . ولا يتم تأسيس المعجم الشعري بمعزل عن ذوق الشاعر ومزاجه⁽⁶⁾ لان استعمال مفردات معينة لدى شاعر معين يشير الى ان حالة نفسية خاصة وراء

(1) مقدمة ديوان " لن " ، انسي الحاج ، ص 14 .

(2) لغة الشعر بين جيلين ، د . ايواهم السامرائي ، 136 .

(3) منهاج البلغاء وسراج الادباء ، حازم القرطاجي ، 143-144 .

(4) نظرية البنائية في النقد الادبي ، د . صلاح فضل ، 347 .

(5) مقدمة شظايا ورماد ، نازك الملائكة ، 2 : 7 .

(6) ينظر : الشعر كيف نفهمه ونتذوقه ، اليزابيث درو ، 87 .

هذا الاستعمال ، ولذلك كان لكل شاعر فنان معجمه الشعري وهو حصيلة تكوينه الثقافي ، وقدرته الخاصة في التقاط المفردة التي تعبر عن معاناته .

وفي معاجم شعرائنا الرواد خصوصيات كل منهم فالمعجم هو الشاعر نفسه ، فما يميز معجم السياب هو جملة المشبه والمشبه به كما يرى عبد الجبار داود البصري .⁽¹⁾ وهو بتعبير الدكتور جلال الخياط ملئ "بأدوات التشبيه وأحرف النداء ، وعكازات لغوية لا حصر لها".⁽²⁾

أي أن معجمه الشعري أقرب إلى التراث منه إلى الأسلوب المعاصر ، وهو شيء طبيعي ، ولا يعيب السياب ، لأن "أكثر الكتاب أصالة إنما هو إلى حد بعيد راسب من الأجيال السابقة ، وبؤرة للتيارات المعاصرة ، وثلاثة أرباعه مكون من غير ذاته" على حد تعبير لانسون⁽³⁾

والجملة عند نازك الملائكة "لم تخرج عن قواعد التشكيل التقليدي للقصيدة فيما كان حراً وفيما لم يكن حراً".⁽⁴⁾

أما جملة البياتي فقد اتسمت بالتركيز⁽⁵⁾ وقامت على اختراق العلاقات المألوفة بين الكلمات ، والبحث عن النقيض والتضاد واللامعقول في تلك العلاقات".⁽⁶⁾

⁽¹⁾ ينظر : بدر شاكر السياب ، رائد الشعر الحر ، ص 40 .

⁽²⁾ الشعر العراقي الحديث ، ص 156 .

⁽³⁾ النقد المنهجي عند العرب ومنهج العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة ، الدكتور محمد مندور ، ص 407 .

⁽⁴⁾ نازك الملائكة دراسات في الشعر والشاعرة ، بنية القصيدة في شعر نازك الملائكة ، عبد الرحمن ياغي ، ص 717 .

⁽⁵⁾ النفخ في الرماد ، د. عبد الواحد لؤلؤة ، ص 17 .

⁽⁶⁾ الشعر العراقي الحديث ، د. جلال الخياط ، ص 181 .

كما أن الاستعارة هي اهم ما يميز جملة الحيدري فلا تكاد تخلو قصيدة منها ، بل ان القصيدة الواحدة احيانا تتسع لعدد كبير من الاستعارات .

ولا بد من الاشارة الى اننا ونحن نسوق هذه المقدمة لا نريد التوقف عندها لان ما يهم الباحث هو معجم الاغتراب الشعري ، ولذلك لم نشأ أن نمثل لما ذكرنا بالنص ، هذا من جهة ومن جهة اخرى فان معجم اي شاعر لا يقتصر على الجملة الشعرية بل يقوم على البناء الفني للقصيدة حيث تشكل البنى اللغوية والتصويرية والايقاعية كلا لا يتجزأ ، يعرف الشاعر من خلالها ، كما تعرف قسما وجهه .

اما معجم شعرائنا الخاص بالغربة والاغتراب فقد توافر الباحث من خلاله على اربعة امور هي : الفاظ الغربة ، والفاظ الطبيعة ، والتجسيد ، والفاظ الصوت وسوف أتطرق لكل حالة بأمثلة محددة خشية الاطالة .

الفاظ الغربة :

حفل معجم الرواد بكل الالفاظ التي تدل على الاغتراب والغربة ، وما يتصل بهما من اوجاع المكابرة ، وآلام المعاناة مثل : الرهيب - الكتيب - الوحيد - الطريد - الشريد - الغريب - الحزين - الهاوية - القبر - العبد - الأسير - الاشباح - الشقاء - اليد البالية - دم البائسين - اللا مكان - احداق الذئاب - الملل - مشلول - المهجور - الحلم المسجون - الشك - وغيرها من الالفاظ والمفردات المشابهة والبديلة . ولم تسقط هذه الالفاظ من معاجم شعرائنا بزوال المؤثر الرومانسي بل استمرت بسبب الخيبات الفردية والجمعية التي عاشوها أو تأثروا بظلالها ، واذا كان حقا " ان ذلك المزاج الحزين كان مزاج العصر " (1)

(1) علي محمود طه ، الشاعر والنسان ، انور المعداوي ، ص 23 .

فالاولى انه مزاج شعراء العصر قبل غيرهم .

يقول السياب في قصيدته " في غابة الظلام " :

عيناى تحرقان غابة الظلام

بجرتيهما اللتين منهما سقر

ويفتح السهر

مغالق الغيوب لي ... فلا انام

واسبر الأرض الى قرارها السحيق

الم في قبورها العظام

فطالعتني - كالسراج في لظى الحريق -

تكشيرة رهية رهية

تليحها جمجمتي الكثية

سخرية الآله بالآثام ⁽¹⁾

تتجوهر القصيدة في عبارة "عيناى تحرقان غابة الظلام" ، فالعين التي تشتعل في بؤبؤها على جمره تتغذى منها نار جهنم لا يمكن ان تنام ومن هذه العين / الجمره / تتفرغ المعاني الاخرى : السهر يفتح ابواب الغيب الموصدة ، ومن بؤرة السهاد هذه ينزل الشاعر الى قرارة الأرض يلم عظام الموتى ، ومن بين هذه العظام تروعه تكشيرة تصوورها تكشيرة جمجمته ، فهو - وان كان حيناً - الا انه يموت موتاً بطيئاً ، فمرضه العضال هو عربون الموت المؤجل الى ما بعد

(1) ديوانه ، شناسيل ابنة الحلبي ، 1 / 704 .

هذه الحمى التي جعلت من كل جاجم الموتى صورة لجمجمته ، فالمآل واحد .
وهكذا نرى ان السياب يدخل في الطبيعة اي انه التي بروحه في الطبيعة .

وفي قصيدتها "السفينة التائهة" تبدووا نازك الملائكة هيكلًا محطما تتقاذفه
الرياح ، بين اقدار قاسية لا ترحم ، وموت يحدق بها ، ورجوع تصطف فوقها ،
وهي بين كل ذلك ضالة ، تائهة ، لا تعرف طريقها ، في لجة البحر الرهيب
سفينة تحت المساء القت بها الاقدار في لجج المنايا والشقاء الريح تصرخ حولها
وتضج في ظلم الفضاء والموت يضر بها ويلقيها على شفة الغناء سارت ولا
ربان يهديها الى الشط السحيق (1)

اما البياتي فيرسم في قصيدة "الموت في الخريف" صورة كثيبة ، فاجعة ،
للليل الخريف : سنديان حزين ، وغيوم باكية ، ومدخنة ، وحن مهجور تخلف
عنه الندامى فبت عليه عصفورتان عشا من الدم الدخان : والشاعر هنا خلافا
للسياب - يلقي الطبيعة على الروح . يترك البياتي :

عيناك في ليل الخريف الى المدن تتطلعان

ماذا وراء الربوة الحمراء ؟ غير السنديان

وسحائب تبكي ومدخنة وحن

تبني لأمرها على شبابه عصفورتان

عشا من الدم والدخان

وأنت كالحلم المسجى ، ذابل ، دامي الجنان ، (2)

(1) ديوانها عاشقة الليل ، 1 / 612 .

(2) ديوانه المجد للأطفال والزيتون : 1 / 358 .

وفي قصيدة "انتظار" يحشد بلند الحيدري عدة الفاظ اغترابية ليرسم منها لوحة قائمة :

يمشي الشتاء بغرفتي متعثرا بظلامها
والدفء مشلول القوى جاث على اقدامها
والليل داج
ورياح كانون الكثيب
تبادل القلب اكتابي⁽¹⁾

لقد صورّ الشاعر الطبيعة وقد توحدت مع قلقه واكتئابه فلم يعد ثمة فاصلة بين الشاعر وبين الطبيعة ، فالغربة شديدة الوطأة ليس على الشاعر فحسب وإنما على الشتاء أيضا وهو ما قصده الشاعر من خلال تجسيد الصور بصفات محسوسة : "متعثرا بظلامها" و "فوق رغامها" و "العواطف نائحات خلف بابي" الى جانب الصور المدركة معنى : "الدفء مشلول القوى" و "جاءت على اقدامها" و "قلقا يمزغ ضوء المخبوق" .

الفاظ الطبيعة :

في كل شاعر مغترب نفس رومانسي هو "محور الذات الحاملة حين تلجأ الى الهروب من قسوة واقع خارجي ، يصبح احتماله ... اكثر من ان يطاق" ⁽²⁾

والطبيعة أحد ملاذات شعرائنا الرواد في المرحلة الاولى من اغترابهم في اقل تقدير ، فربما كان "عالم الطبيعة البريئة مصدر راحة" ⁽³⁾ الشاعر الحزين بعيدا عن التعقيد والتكلف والرياء الذي يلزم الحياة المادية ⁽⁴⁾

⁽¹⁾ ديوانه خفقة الطين ، 132-133 .

⁽²⁾ علي محمود طه ، الشاعر والانسان ، انور المعداوي ، ص 3 .

⁽³⁾ مواكب الحنان ، نص وتحليل ، د . عناد غزوان ، م الاقلام ، ع7 ، تموز ، 1987 ، ص

80-81 .

⁽⁴⁾ المكان نفسه .

فحين ينقطع ما بين الانسان والانسان ، وعندما يضيق المكان والزمان بالشاعر ، يقيم هذا فضاءه في داخل ذاته ، او يقيمه خارجها في غابة ، او في كوخ ، او في ريف ناء ، ولذلك فلا غرابة اذا ما امتزجت "مشاعر القربى بين الشاعر وبين الطبيعة الريفية بمشاعر الغربة وينصهر لديه الحنين والتمرد في بوتقة ابداعية واحدة" ⁽¹⁾ فليست الطبيعة الا صورة لحياتنا النفسية .

لقد توافر معجم الشعراء الرواد على العديد من الفاظ الطبيعة - وان كان يتفاوت من شاعر الى آخر - كالفراش ، والريح ، والعشب ، والنسيم ، والعندليب ، والهزار ، والبلبل ، والبوم ، والغراب ، والورد ، والزهور ، والدفلى ، والزنبق ، والفل ، والحقول ، والرياض ، والريبع ، والشتاء ، والخريف ، والصيف ، والصباح ، والضجى ، والليل ، والمساء ، والسحر ، والنخيل ، والبحر ، والنهر ، والشاطئ ، والنجوم ، والقمر ، والكواكب ، وغيرها .

يقول السياب في قصيدة " في القرية الظلماء " :

الكوكب الوسنان يطفئ ناره خلف التلال

والجدول الهدّار يسبره الظلام

إلّا وميضاً ، لا يزال

يطفئ ويرسب ... مثل عين لا تنام

ألقي به النجم البعيد

يا قلب مالك لست تهدأ ساعة ؟ ماذا تريد ؟

⁽¹⁾ واقع القصيدة العربية ، الدكتور محمد فتوح احمد ، 114 .

(1) النجم غاب وسوف يشرق من جديد ، بعد حين

انه كيف من الصور السود

كوكب يركن الى نوم خلف التلال ، وجدول غارق في الظلام ، ووميض
نجم بعيد يحتضر ، مثل عين سهرتها اوجاعها ، وقلب مضطرب قلق ، قد راعه
هذا الذي يجري امامه . ولكن يعبر الشاعر عن اختناقه المستمر ، استخدم الفعل
المضارع : يطفئ ، ويسبر ، ولا يزال ، ويطفو ، ويرسب ، ولا تنام اشارة الى
تجدد المأساة ، واستطالة الاغتراب ويتشبث الشاعر بأمل كاذب حين يتصور أن
النجم الذي غاب سيشرق مرة اخرى . فالتشبث بما هو آتٍ احدى وسائل
الشاعر في مواجهة احزانه .

في قصيدتها "جامعة الظلال" تقول نازك :

ومرّ على زمان بطيء العبور
دقائقه تتمطى ملالاً كأن العصور
هنالك تغفو وتنسى مواكبها أن تدور
زمان شديد السواد ، ولون النجوم
يذكرني بعيون الدخاب
وضوء صغير بلوح وراء الغيوم
عرفت به في النهاية لون السراب
ووهم الحياة
فوا خييتاه ! (2)

(1) ديوانه : ازهار واساطير ، 1 : 93 .

(2) ديوانها ، شظايا ورماد ، 2 / 99 .

كل شيء عند نازك يستحيل الى رماد ، الى عدم ، زمانها الماضي بطيء ، الى الحد الذي كانت فيه الدقيقة تساوي عصرا ! والى جانب ذلك فهو حالك الى الدرجة التي برزت فيه النجوم وكأنها عيون ذئاب لا كوى ضياء " اما ماشع وراء الغيوم من بصيص فهو سراب : ترى هل حقا عشقت نازك الطبيعة لانها " مظاهر الكون ، وهي الحياة ... وكان من أثر ذلك الهيام ان ألقت بنفسها في احضانها ، ودعت الى ارتيادها والعيش في ظلالها لانها ملاذ الانسان في هذا العالم الرهيب " كما يقول الدكتور احمد مطلوب ؟ ⁽¹⁾

ان نصها الشعري لا شيء بشيء من ذلك لان نازك تُسقط ما في ذاتها من حزن ، ووجع ، وغربة فتكسو عناصر الطبيعة بالسواد ، والضباب وتقتل كل جمال ، واشراق فيها ، وتلك مسألة خاضعة للاسقاطات النفسية التي ترى في الطبيعة على وفق الحالة النفسية .

أما البياتي - فهو مثل زميله - يقدم في قصيدة " وراء السراب صورة دامية لشخصه : فهو طير جريح يحمل بمنقاره زهرة مدمّة ألقاها بين يدي حبيبته ، فالغاب عند البياتي لم يكن ملاذ الشاعر من الخوف ، يستظل بظله ، ويستمتع بأمانه ، بل أصبح مزار الطير الجريح ، يقول :

رجعتُ اليك كطير جريح

يعود من الغاب عند المساء

يلوك بمنقاره زهرة

ملطخة ببقايا دماء

⁽¹⁾ نازك الملائكة ، دراسات في الشعر والشاعرة ، لغة نازك الملائكة ، ص 607 .

فألقى اليك باشلائها
وعاد جريحا كما هو جاء
يرف بعيدا وراء السراب
ويطوي الصحارى صحارى الظلماء⁽¹⁾

وفي قصيدته "صورة في كأس" يخفف بلند الحيدري المأساة فعلى الرغم من
أن شعاع البدر يحوم في أرجوحة قائمة إلا أنه - وشبابه مورك الظل تائه في
الاحلام الناعمة - جذلان من جذل الاحلام والاهام :

يكفي من البدر شعاعاته
تحوم في أرجوحة قائمة
ياسرها الليل بظلماته
فتتني ساخرة باسمه
كانها اشباح حلم غفت
في ظل اجفان الدجى الساهمة
فذا شبابي مورك ظله
يتيه في أحلامه الناعمة
يحوم في روضة أوهامه
جذلان من اشذائهما الهائمة⁽²⁾

وهكذا نرى أن ورود هذه الالفاظ كثيرا ما يكون بشكل ثنائيات متضادة
فالربيع الى جانب الخريف ، والليل بجوار الصباح ، والظلام مع الضياء ،
وهكذا.

⁽¹⁾ ديوانه : ملائكة وشياطين ، 1 / 51 .

⁽²⁾ ديوانه : خفقة الطين ، 101 .

الفاظ الصوت :

تفاوت احساس الشعراء الرواد بأهمية الفاظ الصوت مما افضى الى تفاوت في استعمالها نوعيا، فاذا كان ((الصوت في الكلمة الشعرية يلعب دورا هاما في تفسيرها ومضمونها))⁽¹⁾ فالأحرى بالالفاظ التي تدل على الصوت ان تلعب هذا الدور ، لانها فضلاً عما تمنحه للقصيدة من تجسيد صوري ، ورنين ايقاعي، فانها تعكس عمق تجربة الشاعر الانفعالية بتكثيف شعوري ودلالي معا . ويتقدم السياب في هذا الميدان على الآخرين لانه " ذو احساس حاد بالصوت في معنى الكلمة حيناً وفي لفظها حيناً آخر " .⁽²⁾

وربما كان ذلك لانه ((ذو مزاج حسي حاد)) .

يقول في قصيدة " غريب على الخليج " :

الريح تلهث بالهجرة ، كالجنام على الأصيل

وعلى القلوع تظل تطوي ، او تُنشر للرحيل

زحم الخليج بهن مكتدحون جواً بوبجار

من كل حافة نصف عاري⁽³⁾

الى ان يقول :

ويهدّ اعمدة الضياء بما يصعد من نشيج

أعلى من العباب يهدر رغبة من الضجيج

⁽¹⁾ في الرؤيا الشعرية ، د . احمد نصيف الجنابي ، 91 .

⁽²⁾ بدر شاكر السياب ، رائد الشعر الحر ، عبد الجبار داود البصري ، ص 39 .

⁽³⁾ ديوانه انشودة مطر ، 1 / 317 .

صوت تفجّر في قرارة نفسي الشكلى ، عراق

كالمدّ يصعد ، كالسحابة كالدموع الى العيون

الريح تصرخ بي : عراق

(1) والموج يعول بي : عراق ، عراق ليس سوى عراق

ان الفاظ الصوت : لهات ، ويهدر ، والضجيج ونشيج ، وصوت
وتصرخ ، وتقول ، امتلأت حتى اقصاها بالتجسيد لان الشاعر زواج فيها بين
الاستعمالات المجازية : الريح تلهث كالجنّام على الاصيل - كالمّد يصعد ، الريح
تصرخ الموج يعول ، وبين الافعال والاسماء المضعفة : يسرّح - محيّر - يهدّ -
يصعد - العباب - تفجّر .

كما ان خروج الافعال يهدر ، وتصرخ ، ويعول ، من دلالاتها اللغوية الى
دلالات صوتية جاءت لتتضامن مع تكرار كلمة عراق " سبع مرات في بيان
انسحاق الشاعر تحت وطأة غربة قاسية ، وحنين طاغ الى الوطن ، وكأن روح
السياب هي التي كانت تتحدث بما انطلقت الطبيعة معها في بوتقة موضوعية /
وجدانية / فنية مزدوجة توحدت الذات فيها بالموضوع بتلقائية واعية .
ويستعمل السياب نوعا آخر من الفاظ الصوت هو الرباعي الضاعف مثل
هسهس ، وغمغم ، ووسوس وسقسق . (2)

(1) نفسه ، ص 317-318 .

(2) لم يقتصر السياب على استعمال هذه الصيغة من الافعال على الفاظ الصوت ، بل
استعمل دغدغ ، وعسس ، مثلاً ، ويفسر الدكتور خليل ابراهيم العطية ذلك بأنه كان
طلباً لموسيقية المفردة ... وهرباً من الرخاوة . ينظر : التركيب اللغوي في شعر السياب ،
ص 67 .

ففي قصيدة "يا نهر" استعمل الفعل توسوس :
هيهات يسمع ، اذ توسوس في الدجى ، اصدااءه
بالأمس اطلقها لديك ترن في جرس الخفيف ⁽¹⁾
كما استعمل الفعل نفسه في قصيدة "تموز جيکور"
والنخل يوسوس اسراري
جيکور ستولد ... لكنتي
لن اخرج فيها من سجن ⁽²⁾

ان الفعل المذكور دلالة مضاعفة من الايحاء فضلا عن استعماله مجازيا ،
مما أفصح عما اوحاه الشاعر من الهمس بادنى درجاته ربما الى الدرجة التي
يتماثل فيها مع الصمت تعبيرا عن تعب الشاعر وأعياء صوته المشبع بآه الحزن .
وفي قصيدة "رنين المعول الحجري" يبلغ السياب درجة نوعية قصوى من
تجسيد الصوت :

رنين المعول الحجري في المرتج من نبضي
يدمر في خيالي صورة الأرض .
ويهدم برج بابل ، يقلع الابواب ،
ينجلع كل آجرة
ويحرق من جنائنها المعلقة الذي فيها
فلا ماء ولا ظل ولا زهرة ⁽³⁾

⁽¹⁾ ديوانه ك المعبد الغريق ، 1 / 170 .

⁽²⁾ ديوانه : انشودة المطر ، 1 / 412 .

جو عاصف ، مليء باصوات التفجير والتدمير والتمزق : ومن أين
للسياب ، تلك القوة التي يحتمل فيها المعول الحجري برنينه الشرس وهو يهوي
على نبض الشاعر المرتج ، فيدمر خياله ، وهو مركز تصوراته وأندياحاته ، ثم
ليقضي امام عينيه على معالم حضارة يتعشقها الشاعر ، ويتسربل اجواءها :
يتهدم برج بابل ، وتقلع ابوابه ، ويخلع آجره ، وتحرق الجنائن المعلقة ، وهكذا
يقود "الرنين" المرعب الى مجموعة افعال تتصل به ، وتتفرغ عنه ، يدمر - يهدم -
يقلع - يخلع يحرق وكلها اصوات مفزعة تتداخل مع بعضها لتحدث عاصفة من
الاصوات القاتلة والمدمرة .

ولناذك - كما السياب - احساس مرهف اتجاه الفاظ الصوت ، اسبغت
عليها من روحها القلقة ما يمنحها تجسيدا ، تقول الشاعرة :

أصيح الى همسات اليمام

وأسمع في الليل وقع المطر

وأنا قمرية في الظلام

تغني على البعد بين الشجر

وآهات طاحونة من بعيد

تنوح المساء وتشكو الكلال

تمر على مسمعي بالنشيد

وتفتأ تصدح خلف التلال⁽¹⁾

⁽³⁾ ديوانه شناسيل ابنة الجلبي ، 1 / 701 .

⁽¹⁾ ديوانها عاشقة الليل 1 / 577 .

في النص : تلتقط ذات الشاعرة الحزينة في سكون الليل المهيّب اصواتا شتى تثير الشجن ، وتستثير الوجدان ، وتبعث على الحزن والتأمل ، من همس ووقع وأنين وآهات وغناء ونواح ، وكلها الفاظ اشاع خروجها الى دلالات مجازية جوا من الرهبة الممزوجة بالحزن الشغيف . ففيها اعتزلت الشاعرة المجتمع ، اصطنعت لنفسها هذا المحراب المسكون بالتوجس ، واتخذت من اليمام ، والمطر ، والقمرية ، والطاحونة سمارا لها في وحشتها .

اما عند البياتي فان الفاظ الصوت تأخذ منحى آخر ليس له القتامة التي نستشعرها عند السياب والملائكة :

دَقَّت الساعات في قلب الضباب

نبعث عبر الميادين الكلاب

وأنا أدفن رأسي في كتاب

أبدا اسمعك الليلة عبر الف باب ⁽¹⁾

أبدا نتعب في الأرض الخراب

أبدا تأكل من لحمي

وتستلقي على صدري اضطراب

أيها المستنقع الأسن يا صوت الغراب

قدمي غاصت بأوحالك

يا صوت الغراب ⁽²⁾

⁽¹⁾ يلحظ اختلال الوزن .

تظهر الافعال دق - نبج - تنعب بدلالاتها المعجمية ولذلك قصرت عن اداء دور اكثر فاعلية في إنضاج الصورة ، وتجسيد حنين الشاعر ، ولكن الشاعر يستدرك هذا القصور فيركز على الغراب ودلالته الشؤمية فصوته مستنقع آسن، وقدم الشاعر تغوص بأوحوال هذا المستنقع وبذلك يكون النصف الثاني من النص الشعري - وبسبب اللمسة البلاغية - قد اقترب من حالة الشاعر النفسية .
ويبدو أن بلند الحيدري لم يحفل كثيرا بألفاظ الصوت ولذلك فقد ندرت في شعره ، ولكنه حين يستعملها فبطاقة ايجائية بالغة ، يقول الشاعر في قصيدة " الى مدينتي " :

يقال ما أتعس ما يقال

فبيئنا كتيب

تنعب في وحشته الظلال

ودرينا الغريب

قد هجرت سمرته الاطفال⁽¹⁾

الفعل "تنعب" هو الدال على الصوت ، وعلى الرغم من ان الشاعر لم يكرره ، فقد شحن الصورة الشعرية بما أراد الشاعر من زخم انفعالي يعبر بدقة عن قلقه وحزنه ، على مدينته ، لا سيما ان الشاعر استعمله في تركيب استعاري مؤثر "تنعب الظلال" فقد جسد "الظلال" وكأنها "أغربة" سود استوطنت خرائبها، ونلاحظ في النص نفسه تكرار الفعل "يقال" سبع مرات لتضخيم

⁽²⁾ ديوانه النار والكلمات 1 / 649 - 650 .

⁽¹⁾ ديوانه خطوات في الغربة ، ص 80 .

الحدث ، وقد لعب التكرار الى جانب الاستعارات الخمس التي وردت في النص، دورا في تأكيد الاخبار التي أقضت مضجع الشاعر ، وملأت حياته بالظلال القائمة ، وبذلك يقف المتلقي على الاغتراب الذي يعيشه الشاعر ، ويستشعر حجم عذابه .

التجسيد والتشخيص :

الى جانب ما مر من عناصر المعجم الشعري فقد وجد الباحث ان الشعراء الرواد يكثر من تبادل المحسوس والمعنوي ، فيتحول المعنوي الى محسوس قصد تجسيد تجربة الشاعر الانفعالية واستكمال بناء الصورة الشعرية ، والتأثير في المتلقي ، فلم توجد اللغة الا " للتعبير والتوصيل والتأثير " .⁽¹⁾

ويقول السياب في قصيدة "أتبعيني"

أمس جاء الموعد الخاوي ... وراحا

يطرق الباب على الماضي ، على اليأس .. عليا⁽²⁾

فقد منح الشاعر الموعد الخاوي صفة الكائن الحي الذي يطرق الباب وبذلك عبر عن خيبته في موعد خاو لم يتحقق.

وتوغل نازك الملائكة في هذا المظهر الفني لانها لا ترى في الحياة غير التفاهة والعدم لذا فقد اكسبت غربتها الروحية صفة الكائنات المحسوسة فالذنوب ، والحماقات ، تبكي تحت وطأة الحزن الكبير ، والندم العظيم :

انتهى اليوم الغريب

⁽¹⁾ التركيب اللغوي في شعر السياب ، د . خليل العطية ، 145 .

⁽²⁾ ديوانه ازهار واساطير 1 / 36 .

انتهى وانتحيت حتى الذنوب

وبكت حتى حماقتي التي سميتها

ذكرياتي⁽¹⁾

ويعاني البياتي من خيبة مزمنة بسبب انتكاسات الثورة التي كرس شعره لها ، فها هي تلاحقه وتجلبده : فالافكار لم تعد غير جثث تتعفن الى جانب لحوم الخيل والنساء ، لانها باتت وسيلة للشرب :

أيتها الأرض التي تعفنت فيها لحوم الخيل والنساء

وجثث الافكار

أيتها السنابل العجفاء

هذا اوان الموت والحصاد⁽²⁾

ان صورة الافكار / الجثث المتعفنة واضحة ، مقززة ، لأن الصورة الشعرية ككل مرسومة باللونين : الاسود والاحمر فالحزن الى جانب التحفز ، والموت الى جانب الحياة ، والزرع الى جانب الحصاد . ولبلند تنويعاته في هذا التجسيد لأنه يعمق اغترابه الروحي ويدفعه دفعا الى التعبير بدقة عن امتلائه المأساوي وهو احيانا يذهب الى ابعد مما ذهب اليه زملاؤه ، فاذا كان هؤلاء قد انزلوا المعنوي منزلة المحسوس فبلند ينزل المحسوس منزلة المعنوي فيكسيها حدودا وأبعادا مادية قصد تكثيف الایحاء وذلك يشير الى تساوي "المعنوي والمحسوس في بصيرته"⁽³⁾ وكذلك جعل من الملح المصفر ما يشبه الوباء فهو في أثره يتساوى مع اثر البهتان :

⁽¹⁾ ديوانها شظايا ورماد 2 / 93 .

⁽²⁾ ديوانه قصائد حب على بوابات العالم السبع 3 / 18 .

⁽³⁾ واقع القصيدة العربية ، د . محمد فتوح احمد ، 118 .

لن نقلب الفئجان يا صديقتي

لأننا

نؤمن أن الأرض للإنسان

بليها وصباحها

ملاحها المصفر كالبهتان⁽¹⁾

ان ما عاناه الشاعر من البهتان ، قد الجأه الى ان يمنحه صفة المحسوس ،
كما ان ما عاناه من الآمال الكاذبة / الأوهام قد دفعه الى انكار صفة الملح
المحسوسة وبذلك عبر عن جذر الغربة الضارب في اعماق روحه المنكسرة.

مستويات الاداء اللغوي :

لا يخرج اداء الشعراء الرواد عن واحد من ثلاثة مستويات هي : الاداء
بالكلام المحكي ، والاداء بالموروث ، أما الاداء الثالث فهو الذي تحرر من
كليهما ، على اننا حين نشير الى مثل تلك المستويات ، فاننا لا نقصد التقاطع
والاستقلالية في النص الواحد ، اذ اننا نجد تلك المستويات مجتمعة في نص
واحد، وما هذا التقسيم الا لغرض الدراسة النقدية .

الاداء بالكلام المحكي :

يبدو انه لا بد من الاحتراس ونحن نتناول الكلام المتداول او المحكي ،
ليبين ما هو المقصود بهذا النوع من الكلام ، لقد كان استخدام لغة التخاطب
اليومية جزءا من بيان المدرسة الرومانسية ، فخلافا لما درجت عليه المدرسة

⁽¹⁾ ديوانه رحلة الحروف الصفراء ، 42 .

الكلاسية من تقسيم الالفاظ على وفق تقسيم الطبقات المجتمع ، فان الرومانسية لا تفرق بين كلمات واخرى " فلا وجود لكلمات نبيلة اخرى مبتذلة ، بل يمكن ان يكون للكلمات المألوفة المبتذلة معنى رفيع يسمو بها في موضعها من الصورة الى ما لا يصل اليه سواها من الكلمات " (1) كما لا يخفي ان المدرسة الواقعية دعت هي الاخرى الى استعمال لغة التخاطب تقربا من الجمهور ، وهنا ينبغي ملاحظة عدة أمور اساسية ومهمة : فاستخدام المفردات لا يتم في ضوء فصاحتها من عدمها وانما على وفق حاجة الشاعر الانفعالية / الفنية المزدوجة ، والشاعر الفنان هو القادر على اعادة خلق المفردة وتحويلها الى طاقة شعرية ايجابية كبيرة تنفتح على ثراء معنوي وتصويري لا حدود له ، كما ان ما قصده شعراء كبار مثل ورد زورث واليوت الى اقبال الشعر بلغة التخاطب أريد منه بالتحديد " المادة الغفل " في بيئة هذه اللغة على حد تعبير اليوت . (2)

وفي موضوع الاغتراب والغربة في شعر الرواد نطالع نصوصا اشتملت على الفاظ من اللهجة العامية ، وعلى اشارات ، وامثال واغن شعبية تداولها الناس وباتت مشهورة على السنتهم ، والشاعر قد يوظف أيا من هذه الاشارات اذا وجد فيها ما يستجيب لحالته الانفعالية ، ويشكل منها قيمة جديدة .

وقد عرف السياب باستعمالات موفقة لالفاظ دارجة رآها - دون غيرها - مطمئة لتجربته " فاللفظ الشعبي لدى السياب طرى اذ ينتزع منه ... أسما لـ التكرار ويحذف ما تلف فيأتي وكأنه ولد جديدا طريا مستساغا " . (3)

(1) دراسات ونماذج في مذاهب الشعر ونقده ، د . محمد غنيمي هلال ، ص 86 .

(2) ينظر : قضية الشعر الجديد ، د . محمد النويهي ، ص 22 .

(3) بدر شاكر السياب والحركة الشعرية في العراق ، محمود العبطة ، 110 .

يقول في قصيدة "غريب في الخليج"

ما زلت اضرب ، مترب القدمين ، اشعث في الدروب

تحت الشمس الأجنبية

بين احتقار ، وأتهار أو ((خطبة))

والموت أهون من ((خطبة))⁽¹⁾

لا شك في ان السياب لم يلتجئ بسبب القافية الى مفردة "خطبة" بل لانه وجدها معبرة اصدق تعبير عن حالته المزرية البائسة في الكويت ، فهو منسحق تحت رحى غربة قاسية ليس له فيها نصيب بعد اضطرته ظروفه السياسية إلى ترك بلاده والالتحاء الى ايران ثم الكويت تعوزه الصحة كما يعوزه المال والاستقرار والامان . ولذلك أصبحت هذه المفردة جزءا أصيلا وطبيعيا من نسيج القصيدة لا يشعر المتلقي انها نشاز او متكلفة ، او في غير سياقها ، وفي قصيدة "رسالة" يستخدم الشاعر كلاما شعبيا على لسان ابنته بعد أن يكسبه من روحه ، ما يضعه في مستوى معماره الفني :

ويا حديثك عن "آلاء" يلذعها

بعدي فتسأل عن بابا "أما طابا"

أكاد أسمعها

رغم الخليج المدوي تحت رغوته⁽²⁾

(1) ديوانه انشودة مطر ، 1 / 321 .

(2) ديوانه شناسيل ابنة الجلبي ، 1 / 709 .

فالسؤال على لسان الصغيرة عن الأب الغائب المريض لا يمتلئ ، انفعالا وفنا ، بغير "أما طابا" كما جاء وقوعه بعد كلمة تماثله في الموسيقى "بابا" ليرتفع به الى مستوى تجربته الشاعر : الانسانية والشعرية على حد سواء . وقد ضمن السياب شعره - غير الفاظ المتداولة - الكثير من الاغاني اذ وجد فيها ما يستعين به على اداء معنى لا تحتمله البدائل . واذا كان الشاعر "يستخدم الفلكلور كعنصر اساسي من عناصر بناء قصائده مما يعطي لهذه القصائد طعما خاصا ورائحة شعبية"⁽¹⁾ فالامر يصدق على التراث ، يقول الشاعر في قصيدة "أم البروم" :

رأيت قوافل الأحياء ترحل عن مغانيها

تطاردها ، وراء الليل ، اشباح الفوانيس

سمعت نشيجَ باكيتها

وصرخة طفلها ، وثغاء صادرٍ من مواشيها

وفي الموج الظهيرة صارخا "يا حادي العيس"

على ألم مغنيها⁽²⁾

إن "حادي العيس" مقطع من قصيدة تُغني مقاما يقول مطلعها :

لما أنا خوا قبيل الصبح عيسهم

وحملوها وسارت بالهوى الابل

أما المقطع المذكور في قصيدة السياب فهو اشارة الى البيت :

⁽¹⁾ ادباء معاصرون ، رجاء النقاش ، 231 .

⁽²⁾ ديوانه المعبد الغريق 1 / 130 .

يا حادي العيس مهلاكي اودعهم

يا حادي العيس في ترحالك الاجل

لان رحيل الأموات وقد هدمت قبورهم يشبه رحيل الاحباب ، وحين وقف العاشق يودع احبابه وقد سار بهم الحادي فقد وقف السياب - في عز الظهيرة - يودع الاموات وهم عنده احياء وكأنما تصور نفسه واحدا من هؤلاء الموتى وقد هدم قبره ، ودُرت بقايا جسده في الهواء دون اعتراض من احد او أسى من آخر .

واستعملت نازك من الالفاظ المحكية "غنوة" و"حلوة" ، وملاحن .⁽¹⁾

ويرى الدكتور احمد مطلوب ان استعمالها تلك الالفاظ كان تأثرا بشعر محمود حسن اسماعيل وعلي محمود طه وابراهيم ناجي⁽²⁾ ولكن نازك الملائكة تستمر في استعمال لفظي "غنوة" و"حلوة" في ديوانها "يغير الوانه البحر" . تقول في قصيدة "الماء والبارود" :

وسبع مرّات سعت باكية بين الصفاء والمروة

تحمل فوق خدّها وردة حزن حلوة

ودمعها وحزنها على شفاه الريح

تنهيدة وغنوة⁽³⁾

⁽¹⁾ يقول الدكتور ابراهيم السامرائي : "فصبح العربية لا يثبت هذا ولكنه استعمال جديد طرأ في شعر السياب الحيدري وغيرهم من شعراء هذا الجيل" . ينظر : لغة الشعر بين جينلين ، 172 .

⁽²⁾ نازك الملائكة ، دراسات في الشعر والشاعرة ، لغة نازك الملائكة ، ص 618 .

⁽³⁾ ديوانها ، يغير الوانه البحر ، ص 39 .

لا يرى الباحث ان الشاعرة موفقة في استعمال اللفظتين : غنوة وحلوة ، لان الأم - وهي هاجر زوجة سيدنا ابراهيم ، التي تسعى بين الصفا والمروة ، خائفة على طفلها الظائي لا تحمل ورده حزن حلوة ، ثم كيف تكون ورده الحزن حلوة ؟! اما لفظة " غنوة " فهي الاخرى لم تقع الموقع الفني المناسب لان السياق العام مشحون بالرعب والفرع والترقب فأين كل ذلك مما توحى به " الغنوة " خلافا لمشاعر الأم هاجر وأيضا خلافا لمشاعر الشاعرة التي يفترض انها تعيش اجواء المأساة ، وتستدعي ظروفها ! ويبدو أن الشاعرة اضطرت لاستخدام المفردتين المذكورتين استجابة لدواعي القافية ليس الا . وتوافر شعر البياتي على الكثير من اللمسات الشعبية ، فالبياتي " أحد الشعراء المبكرين الذي كرسوا لغة الواقع والحياة الادبية الجديدة في الشعر وأصلوها في عملهم الابداعي " : (1)

يا عندليب الموت

يا مخالب الظهيرة

مدى الى بحر حياتي المظلم الضفيرة

وللمي الآنية الكسيرة

ودثريني فانا بردان في الظهيرة (1)

لفظة " بردان " ذات نكهة شعبية وضعها الشاعر في موقعها المناسب من السياق الشعري بتأثير جملة " دثريني " التي سبقتها ، وكذلك بما تثيره شبه الجملة "

(1) دير الملاك ، د . محسن اطيح ، 192 ، 193 .

(2) ديوانه ، النار والكلمات ، 1 / 690 .

في الظهيرة "من اجواء الصيف الحارة ولعل تكرار صوت "الراء" في كامل السطر الشعري قد جعل منها جزءا لا يتجزأ من النسيج الشعري وليست طارئة عليه ، او منفصلة عنه . ولكن الشاعر يخفق في توظيف المثل الشعبي "العين بصيرة واليد قصيرة" في مقطع آخر من القصيدة نفسها حين يقول :

فالعين يا حبيبي بصيرة

لكن يدي قصيرة

وأمنياتي فجّة ضريرة⁽¹⁾

فقد اكتفى الشاعر بتوزيع المثل على سطرين شعريين قانعا بما زاد عليه من سطر عن الامنيات الفجة الضريرة من دون ان يشحنه بطاقة ايجابية ، وتلك نتيجة طبيعية للتوظيف الحرفي .

ولبلند التقاطاته من الكلام المتداول ، والشعبي ، وحيانا الدارج ، ففي احدى قصائده يستعمل تركيب "ماشفتها" العامة :

لن اراها

كان حلما ذلك الوعد الذي شد خطاها

لن اراها

لن اراها

ربما "ما شفتها" يوما ولم ادرك رؤاها⁽²⁾

⁽¹⁾ نفسه ، ص 690-691 .

⁽²⁾ ديوانه ، اغاني المدينة الميتة ، 29 - 30 .

وأرى ان الشاعر اخفق في استعمال هذا التركيب ، لأنه - التركيب - لم يستطع ان يكون بديلا عن تركيب " لن اراها " الذي كرره الشاعر ثلاث مرات وأراد أن يجيء بديل له متحاشيا تكراره اربع مرات ، وكان بإمكان الشاعر أن يشحن اللفظ الدارج بالمجائية اعمق ، ولذلك فقد هبط تنامي الصورة ، وانخفض توتر القصيدة بسبب اقحام التركيب العامي دون ضرورة فنية او وجدانية . على ان الشاعر يلتقط الشخصية الشعبية " ساعي البريد " وينزع عنها دلالتها التبشيرية التي عرف بها بين الناس ، ويخرجها الى دلالة جديدة عبرت عن مشاعره الاغترابية ، وتلك هي المفارقة الطريفة :

ساعي البريد

ماذا تريد ؟..

أنا عن الدنيا بمنأى بعيد

أخطأت ...

لا شك فما من جديد

تحملة الأرض لهذا الطريق⁽¹⁾

الساعي هنا رمز الآخرين الذين اعتزلهم الشاعر ، ولذلك فلا جديد يرجى من هذا المخاطب ولو أن الشاعر قدم الساعي رمزا آخر ، لما احتفظ النص بهذه المفارقة ، والمفارقة هي التي تصدم القارئ ، وتقلق هدوءه ، ويقدم الشاعر مفارقة مثيرة حين يقول :

العدل اساس الملك

⁽¹⁾ ديوانه ، اغني المدينة الميتة ، 38 .

صه ، لا تحك

ماذا ؟

العدل اساس الملك

كذب ، كذب ، كذب

الملك اساس العدل

ان تملك سكيننا تملك حقك في قتلي⁽¹⁾

فقد قلب العبارة المأثورة "العدل اساس الملك" وفي هذا اغتراب لغوي ومفارقة هزت نمطية الموروث .

الاداء بالموروث :

لم يكن شعراؤنا الرواد بعيدون عن التراث في اية مرحلة من مراحل تطورهم الشعري ، والثقافي باستثناء بلند الحيدري .⁽²⁾ فالموروث الفني والابداعي جزء من حضارة الامة ، وليس في مقدور المبدع المعاصر أن يولييه ظهره ، تحت اية ذريعة ، وشعر القدامى على وفق هذا المنظور "نهر هائل يروى الحياة كلها" على ما يرى ستيفن سبندر ،⁽³⁾ ولذلك كان على الشعراء ان ينهلوا منه لكي لا يتحول الى "بحيرة راكدة تفصلهم عنها حواجز صخرية" .⁽⁴⁾

⁽¹⁾ ديوانه ، حوار عبر الابعاد ، ص 25 .

⁽²⁾ كان بلند يشعر بنفور من التراث ، كما كان يتابع العربية من خلال الأدب المترجم ، وفي مرحلة لاحقة يذكر انه تأثر بابي العلاء المعري ، وبأبي نواس وفي مرحلة اقرب يتأثر بالشعراء محمود حسن اسماعيل ، والياس ابي شبكة ، وعمر ابي ريشة ، ينظر : مقابلة مع بلند الحيدري ، اجراها يوسف الصائغ ، م الاديب المعاصر ، العدد 5 ، المجلد الثاني ، تموز ، 1973 ، الصفحات 103 ، 105 ، 106 .

⁽³⁾ الحياة والشاعر ، 104 .

⁽⁴⁾ المكان نفسه .

ان احتفاظ الموروث في الكثير من جوانبه وتجاربه باسرار لم تفض بعد ، واعماق لم تستكنه لحد الآن هو الذي يغري الشاعر المعاصر بالعودة اليه واستلهامه مضامين وشخصا ، وقد تراوحت علاقة شعرائنا بالتراث بين الاقتباس والتضمين والاشارة العابرة ، والاشارة المركزة ، فضلا عن استعمال المفردات التراثية ، وسوف اسوق مثالا محددًا للاداء باللفظة القديمة وآخر للاداء بالرمز ، أو الاسطورة ، او الحكاية تجنبًا للاطالة :

في قصيدة " اقبال والليل " يخاطب السياب زوجته بقوله : حبت لي " سدف " الحياة ، ومسحتها بسنا النهار ⁽¹⁾ فهل ثمة ضرورة فينة لاستعمال " سدف "؟ يريد الشاعر ان ينقل لزوجته صورة دقيقة عن قتامة حياته التي كانت زوجته وراء تجاوزها وربما وراء استحالتها الى ضياء ، فاستخدم المفردة " سدف " وهي لهذا اكثر التصاقا بتلك الحياة السوداء التي عاشها الشاعر ، وكان بإمكان السياب استخدام لفظة " ظلم " ولكنه أثر تلك التراثية لأن " السدف " لم تدرك بعد الكهرباء وغيرها من مبتكرات الحضارة الجديدة ، فهي موعلة في الظلام ، والسواد ، والقتامة بكل ما تشتمل عليها من خوف ، ورعب ، وعدم اطمئنان ولهذا فقد كان الشاعر موفقا في توظيف المفردة من ناحية التوصيف تلك الحياة ، وايضا من جهة ضخامة العمل الجليل الذي أدته الزوجة الوفية اتجاه الزوج المريض ، وليس هذا الأمر غريبا على شاعر كبير كالسياب برز عنده " روح الشعر العربي التقليدي ... بجزالة اللفظ وحسن السبك " ⁽²⁾

أما نازك الملائكة فهي ذات ثقافة عربية عالية ولكنها - ناقدة - متناقضة في فتاواها اللغوية : فقد دعت الى اجراء تغيير جوهري على المعجم الشعري بترك " استعمال طائفة من الالفاظ التي كانت مستعملة في القرن المنصرم " ⁽³⁾

(1) ديوانه ، شناسيل ابنة الجلي 1 / 718 .

(2) مقدمة ديوان بدر شاكر السياب ، ناجي علوش ، ص ب ب ب .

(3) مقدمة ديوان شظايا ورماد ، 9 - 10 .

ولكنها نفسها ، عادت واستعملت تلك الالفاظ " في مرحلتها الشعرية الجديدة بعد ان رأتها نافرة " .⁽¹⁾ ففي قصيدة " ويبقي لنا البحر " تستعمل كلمة زبرجد ، تقول : سألت عن البحر ، هل تتغير ألوانه ؟

ويصبح أخضر مثل أخضرار العيون الحزينة

ومثل زبرجد نهر النهاوند في قعر حزني⁽²⁾

طابع القصيدة العام تجريدي ، اطلقت الشاعرة من خلاله العنان لخيالها ليسبح في تحولات البحر الذي يعني عندها " الحياة والتدفق " ، واللون الأخضر واحد من تحولات البحر ، والزبرجد بلونه الأخضر مترسب في اعماق الشاعرة الغارقة في حزنها ربما لاقتراحه باحدى ذكرياتها ، وقد بدا موقع هذه المفردة - الزبرجد - مثيرا لأنه خرج عن دلالاته فالخضرة تدل على التفاؤل والأمل ، ولكنها من خلال الزبرجد اقترنت بالحزن .

ويستخدم البياتي لفظة شج في قصيدة موت المتنبى :

انا شججت جبهة الشاعر بالدواة

بصقت في عيونيه

سرفت منها النور والحياة⁽³⁾

⁽¹⁾ نازك الملائكة دراسات في الشعر والشاعرة ، لغة نازك الملائكة ، احمد مطلوب ، ص 603 ، وقد نظم الدكتور مطلوب كشفا بطائفة من الالفاظ التي نهت عن استخداماتها ثم عادت واستخدمتها لارتباطها بالموضوعات التي نظمت فيها والاجواء التي تنم عليها . ينظر : نفسه 602 - 604 .

⁽²⁾ ديوانها يغير ألوانه البحر ، 14-15 .

⁽³⁾ ديوانه ، النار والكلمات ، 1 : 714 .

ان استعمال الفعل "شجّ" اشارة الى حادث جرى بين المتنبي وابن خالويه في حضرة سيف الدولة . ضرب على اثره ابن خالويه المتنبي فشج رأسه وقد وفق البياتي في استحضار الجو التراثي من خلال الفعل المذكور : فهو اولا يشير الى طغيان المعتدي وثانيا يؤكد ان الضربة موجهة الى الرأس لان الشجة في الرأس خاصة . واذا كان المتنبي هنا يمثل الشاعر البياتي فان الضرب على الرأس هو ما يناسب حال الشاعر المعاصر ، الثائر والمتمرد لأن القضاء عليه هو هدف خصومه ، والقضاء على الانسان يتم عبر الضرب على رأسه . وفي احدى قصائده يستخدم بلند الحيدري لفظة "رغامها"

يمشي الشتاء بغرفتي متعثرا بظلامها

والدفء مشلول القوى جاث على اقدامها

قلقا يمرغ ضوءه المخنوق فوق رغامها⁽¹⁾

ان استخدام هذه اللفظة التي تنتسب للماضي اكثر من انتسابها للحاضر كان استجابة لضرورات الصورة الشعرية : فما يعاينه الشاعر من غربته الروحية يضاعف في الشتاء حيث الريح ، والبرد ، والوحشة ، والوحدة ، ولكي يرتفع في التعبير عن غربته الى افقها كان لا بد له من تصوير الدفء وهو هنا رمز الحياة واستقرارها في ادنى حالاته : متمثلة في تمرغ الدفء / الرمز بالرغام لأن انصراف الذهن الى عبارات مثل : رغما عنه ، او على الرغم منه ، او رغم انفه التي تثيرها لفظة "الرغام" سيقترن حتما بتصور حقيقي لحالة الشاعر : البائسة ، الذليلة ، تماما كما تثيره لفظة "جاث" من ايجاءات تناسب المقام .

(1) ديوانه ، خفقة الطين ، 132 .

ان الالتجاء الى المنخور من التراث هو احدى طرائق الاحتماء بالماضي لمواجهة حصار الغربية ، من خلال تقديم النموذج المختار شريطة ان تكون ثمة ضرورة فنية لاستدعاء النص . وبعد ان قدمنا نماذج لاستخدام الالفاظ الموروثة، نقدم الآن شواهد على استخدام بعض الاساطير والشخص التراثية .

في قصيدة ((ارم ذات العماد)) نقل المقطع الآتي:

اسرت الف خطوة ؟ اسرت الف ميل ؟

الى جدار قلعة بيضاء من حجر

كأنما الاقمار منذ الف عام

كانت له الطلاء

كأنما النجوم في المساء

سيلن عليه ، ثم فاض حوله الظلام

وسرت حول سورها الطويل

اعدت بالخطا مداه⁽¹⁾ (مثل سندباد

يسير حول بيضة الرخ ولا يكاذ

يعود من حيث ابتدا

حتى تغيب الشمس ، غشى نورها سواد

حتى اذا ما رفع الطرف رأى ... وما رأى ؟))

حتى بلغت في الجدار موضع العماد

تقوم فيه كالدجى بوابة رهيبة⁽¹⁾

⁽¹⁾ ديوانه ، شناسيل ابنة الجلبي ، 1: 604-605 .

ان مراجعة النص المحدد بالقوسين بعين الناقد تؤكد علاقته بسياق النص الشعري العام ، فالنص بمظهره العمومي يشير الى سعي الشاعر " او جده الراوية " حول جدار القلعة البيضاء دون الوصول الى مبتغاه ، تماما كما سعى السندباد - وهو من المذخور التراثي - حول بيضة الرخ ، وهذه الاشارة التراثية يسميها الدكتور محمد فتوح احمد " الاعتراض بالموروث " ⁽¹⁾ وهو اعتراض لا يقطع السياق الا ليؤكدده .

والسياب وهو يستذكر دوران السندباد حول الرخ فانما يتأسى به ، ويطلب العزاء لنفسه ، تخفيفا لآلامه ، ومداواة لجراحات نفسه .

وتتناول نازك في قصيدة " ولكنها ستكون الاخيرة " قصص الحب العربية الشهيرة :

وتعرف هذا بشينة في دركات الجحيم

ويدركه توبة وجميل

وكم غمغمته اناشيد قيس بصوت رخيم

وداست به حزن ليلي الطويل

وكم رددته شفاه كثير في نشوة

لعزة وهي تموت كسيرة

ولكنها ستكون الاخيرة يا حلوتي

ولكنها ستكون الاخيرة ⁽²⁾

⁽¹⁾ واقع القصيدة العربية ، ص 156 .

⁽²⁾ ديوانها ، شجرة القمر ، 2 / 478 .

ان النص الشعري المذكور لا يشي بأية التماعة فنية ، لأن الاشارة الى العشاق تقريرية اخبارية مجردة ، لم تضيف شيئاً الى الشخصيات التاريخية ولم تتناول بالتحليل أو بالتغيير أو بالزيادة وقائع حياتهم ، برؤيا معاصرة كما تقتضي الاستعانة الفنية بالموروث .

لكن الأمر يختلف عند البياتي الذي اعتمد التجريب المستمر تطلعا الى تجاوز دائم وتجدد في الشعر⁽¹⁾ ففي قصيدة "موعد في المعرة" يلتقط الحالة التراثية باشارة مركزة ومضيئة :

صاح هذي أرضنا من الف الف تنهد

وعليها النار ، والعشب

عليها يتجدد

صاح إنا

ابداً من عهد عاد نتغنى

والاقاحي والقبور

تملاً الأرض ولكناً عليها نتلقى

في عناقٍ او قصيدة⁽²⁾

لقد ابتنى الشاعر النص على بيت المعري المشهور :

صاح هذي قبورنا تملاً الحب

(1) الشعر العراقي الحديث ، د . جلال الخياط ، 181 .

(2) ديوانه اشعار في المنفى ، 1 / 373 - 374 .

قائمين القبور من عهد عاد

ومن هذه البؤرة الشعرية خاص الشاعر في ثلاث تضادات:

الاولى هي : النار والعشب :

فالنار رمز التطهر والخصب الذي يفضي الى العشب

والثانية هي : التهنيد × الغناء رمزين للحزن والفرح

والثالثة هي : الأفاحي × القبور رمزين للحياة والموت .

وقد خرج الشاعر بدلالة بيت المعري التشاؤمية الى دلالة جديدة فيها من التفاؤل والأمل ما يستطيع بهما شاعر من اختراق واقعه المأساوي متطلعا الى انتصار إنساني جديد .

أما بلند الحيدري فلا يضيف شيئا ذا قيمة فنية الى اشارته عن ابي نواس في قصيدة "انتفاضة كأس" فقد اكتفى بصيغة النداء التقريرية :

يا ابا نواس قم حي الدجى

حانة الارواح واجمع شملنا⁽¹⁾

وكان بمقدور الشاعر أن ينمي الصور الشعرية ، بتوظيف خصب للإشارة التراثية ولنه انساق بخطابية جامدة لم يخرج منها الا بخفي حنين .

التكرار ظاهرة أسلوبية :

يزخر الشعر المعاصر بالعديد من الظواهر الأسلوبية التي عني بها النقد الحديث ، ولم يقتصر الدراسات التي تمت في هذا الميدان على الشعر الحديث

⁽¹⁾ ديوانه ، خفقة الطين ، 150 .

وإنما تناولت نماذج من الشعر القديم قامت على أساس استخراج الظاهرة الاسلوبية وتعيين وظيفتها ، و"يبدو أن الظاهرة الاسلوبية تتوقف على طريقة الشاعر أو مذهبه الفني أكثر مما تتوقف على عصره" (1)

ومن هذه الظواهر ظاهرة التكرار التي انتشرت في شعر الرواد لما لها من دلالات معنوية تتخطى وجودها اللغوي ، فالتكرار "فضلا عن كونه خصيصة أساسية في بنية النص الشعري [فإن له] دورا دلاليا على مستوى الصيغة والتركيب" (2) فهو "أحد الأضواء اللاشعورية التي يسلطها الشعر على أعماق الشاعر فيضيئها" كما تقول نازك الملائكة (3)

وسأحاول من خلال بعض الشواهد تحديد وظيفة التكرار ، في موضوع الاغتراب دون الخوض في أنواعه تجنباً للاطالة التي لا تحملها هذه الفقرة من مبحث البنية اللغوية.

يقول السياب في قصيدة متى نلتقي :

الا يأكل الرعب منها الضلوع ؟

إذا ما نظرنا الى ظل تينة

فلاحت لنا ، من ظلام ، قلع

تهدهدها غمغمات حزينة ؟

(1) المتنبي مالىء الدنيا وشاغل الناس ، صيغة التفضيل في شعر المتنبي ، شكرى محمود عباد ، ص 141 .

(2) البنيات الاسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث ، د . مصطفى السعدني ، ص 147 .

(3) قضايا الشعر المعاصر ، 43 .

الا يأكل الرعب منها الضلوع ؟

الا تتحجر منا العيون

اذا لاح في الليل ظل البيوت

هزيلا كما ينسج العنكبوت

الا تتحجر منا العيون

ويلمع فيها بريق الجنون ؟

الا يأكل الرعب منا الضلوع

اذا ما نظرنا الى ظل تينة

فلاحت لنا من ظلام قلوب

تهدهدها غمغمات حزينة ؟

الا يأكل الرعب منا الضلوع ؟⁽¹⁾

لقد تكرر المقطع "الا يأكل الرعب منا الضلوع" اربع مرات لتجسيد الرعب الذي يتتاب الشاعر وهو يرى ويسمع ما يبعث على اليأس ويقود الى الخوف ، فالهول الذي يحيط بالشاعر وهو على سرير المرض القى امام عينيه بتلك الصور المفجعة وفي اذنيه تلك الغمغمات الحزينة .

ان تكرار المقطع يستدعي وعيا خاصا من الشاعر⁽²⁾ لأن طوله ، مكررا ، قد لا يحتمله القارئ / المستمع لذا فان الشاعر الحاذق هو الذي يصدم توقع

(1) ديوانه ، شناسيل ابنة الجلي ، 1 / 682-684 .

(2) ينظر : البنيات الاسلوبية في الشعر العربي الحديث ، د . مصطفى السعدني ، ص 164 .

الملتقي بما لا يتوقعه وحيثئذ يؤدي التكرار دوره في هز الملتقي : وهذا ما فعله السياب اذ غير فيما يلي المقطع المكرر ، فبعد التكرار الاول جاء المقطع " اذا ما نظرنا الى ظل تينة " وبعد التكرار الثاني نقراً : " الا تتحجر منا العيون / اذا لاح في الليل ظل البيوت / ... ويلمع فيها بريق الجنون " ولو أن الشاعر غير ما بعد التكرار الثالث لكان توقع التكرار المقطعي اعمق في النفس وأبعد اثراً في تجسيد احزان الشاعر .

اما تكرار الجملة فنجد في قصيدة " الماء والبارود " ⁽¹⁾ لناذك الملائكة اذ كررت " الله اكبر " سبع عشرة مرة ، فهذه الجملة هي المنوال الذي نسجت عليه كل التفريعات الاخرى ، فهي مرة متبرعة بـ " هتافة الأذان في سيناء تبهر " ومرة متبوعة بـ " نداء رحمة نذر تشربه الرمال " وهما صيغتان خبريتان ولكن الشاعرة تستبدل هذه الصيغة بصيغة انشائية بعد التكرار الرابع :

الله اكبر

يا صائمون افطروا

وبعد تكرار الخامس تعود الى صيغة السابقة :

على شفاههم غناء

ثم تعود الى الانشائية فالخبرية وبذلك تجعل من هذه التنويعات صوراً - شراكاً للملتقي، من جهة ، واصداء وهواجس تنبع من ذاتها القلقة اللائذة بالله، من هجير صحراء الغربية ، وهجير صحراء سيناء معا . فما تمتته من ماء للمقاتلين العرب هو ما تتمناه لنفسها مما يروى ظمأها ، ويخفف اغترابها ،

⁽¹⁾ ديوانها ، يغير الوانه البحر ، ص 25-51 .

وتأسيسا على ذلك فان استغراقها في "الله اكبر" جاء فيها يشبه المجاهدة الصوفة
لذات غرقى ، ونفس حائرة ، ومنه نستدل على ان التكرار - على وفق هذا
الشاهد - عند الشاعرة "لم يكن زينة او عكازا تلجأ اليه ... وانما هو حاجة نفسية
ومعنوية" ⁽¹⁾ ما كان للقصيدة ان تشع - بدونها - بهذه الطاقة الایحائية .

ونقرأ للبياتي المقطع الاتي من قصيدة "الرجل الذي كان يغني" :

ونادانا وناداه

صياح الديك ، اختاه

ونخلفناه في الساحة ، لا تطرف عيناه

- وداعا !

قالها واختنقت في فمه الآه

- وداعا ، لك يا طهران

يا صاحبة الجاه

وداعا لك يا بيتي

وداعا لك أماه

ودوت طلبة ، واختنقت في فمه الآه . ⁽²⁾

⁽¹⁾ نازك الملائكة ، دراسات في الشعر والشاعرة ، لغة نازك الملائكة د . احمد مطلوب ، ص
636 .

⁽²⁾ ديوانه ، اشعار في المنفى ، 1 / 415 .

وفي النص يتكرر الاسم "وداعا" أربع مرات ، والاسم الذي ارتبط عند العرب بالثبات والسكون ، منحه البياتي هنا سمة متجددة ، وإيماء ثريا وهو يلتقط ملمحا تراثيا بإشارة مركزة ، ومتوهجة فوداعا الاولى قالها الخيام مطلقة ، ولعلها موجهة الى الكون كله ، اما الثانية فقد قالها لطهران وهي وطن الشاعر المستحضر ، فيما اتصلت الثالثة بالبيت ، وهمس بالرابعة لأمه ، وهكذا أسس الشاعر كلا كبيرا ذا أربع دوائر تدرج منها نزولا : الكون ثم الوطن ثم البيت ثم الانسان ، وهي العوالم التي تعلق بها البياتي ، وكأنه هو الذي يتحدث من خلال الخيام ، او كأن الخيام يتحدث بلسان البياتي ، والوداع الشجي مختوما بالقتل "ودوّت طلقة" هو تعبير عن غربة الشاعرة ، وهاجس القتل الذي رافقه في منافيه .

اما تكرار الفعل فاخترنا نموذجا له من شعر بلند الحيدري:

اطفئْ له الانوار

اطفئْ ولا تقلق

واتركه للتّيار

يحمل للاغوار ما في الحلم من اغوار

يحمل للؤلؤة والمرجان والمحار

كل الحكايات عن الجذب

عن عالم يحيا بلا قلب

يحمل للاغوار ما يحمل في يديه

في عينيه

من اغوار

يحمل للبحار

لتيها المفلق

مرارة الضياع في البحار⁽¹⁾

يطالعا - في النص - الفعل المضارع "يحمل" مكررا اربع مرات وهو ، كأى فعل ، مرتبط بدلالة النمو والتجدد ، وتردده يعنى استمرار الحدث ، ومن هنا كان احساسنا بطاقة "التكرار المتراكم تأكيدا على الحدث والزمن بصوت الفعل نفسه " .⁽¹⁾ ان ما يعانيه الشاعر من قيد مفروض على ذاته اضطره الى ان يصرخ من خلال الفعل المكرر حالما ان يوزع آلامه بين الموجودات :

"الاغوار" ، و"اللؤلؤ والمرجان والمحار" ، و"البحار" ، بعض مظاهر اغترابه: "ما في الحلم من اغوار" و"كل الحكايات عن الجذب" و"مرارة الضياع في البحار" فقد تساوى عند الشاعر عالمه : الداخلي والخارجي فكلاهما جذب ، وضياع لأن الكون العام "بلا قلب" .

⁽¹⁾ ديوانه ، خطوات في الغربة ، 70 - 72 .

⁽¹⁾ البينات الاسلوبية في الشعر العربي الحديث ، 159 .

الفصل الثالث

البنية التصويرية

الصورة في البناء الشعري :

هل يمكن دراسة الصورة بمعزل عن اللغة ؟ كان هذا السؤال شاخصا في الذهن اثناء بحث البنية اللغوية ، الا انه يطرح نفسه بالحاح هذه المرة ، ذلك ان الفصل بين مكونات القصيدة الفنية أمر لا يخلو من تعسف لولا ما يتطلبه الدرس النقدي . لان الصورة تتداخل في اطار اوسع مع الخيال والمجاز لتشكّل ما نصلح عليه باللغة الشعرية التي تكون " مشحونة بالتصوير بدءا من أبسط انواع المجاز وصعدا الى المنظومات الاسطورية الشاملة العامة " .⁽¹⁾

لقد تعرضت الصورة الشعرية شأن المفهومات الاخرى الى تطور في المفهوم والدلالة ، فقدما كانت تقف " عند حدود الصورة البلاغية في التشبيه والمجاز " ⁽²⁾ والموروث البلاغي والنقدي عند العرب وان لم يتناول الصورة " بهذه الصياغة الحديثة ... ولكن المشاكل والقضايا التي يثيرها المصطلح الحديث ويطرحها موجودة في التراث " ⁽³⁾ معبرا عنها بمصطلح المعنى ، اما النقد الحديث فقد اضاف الى مفهوم الصورة القديمة " نوعين آخرين هما الصورة الذهنية، والصورة باعتبارها رمزا " ⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ نظرية الادب ، رينيه ويلك وأوستن ، 28 .

⁽²⁾ الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري ، د . علي البطل ، 15 .

⁽³⁾ الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، د . جابر عصفور ، 7 .

⁽⁴⁾ الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري ، د . علي البطل ، ص 15 .

وهذا يعني ان عناصر جديدة دخلت في التشكيل الصوري هي اللغة ، والعنصر الحسي والرمز والاسطورة⁽¹⁾ فضلا عن الانواع البلاغية الاخرى المعروفة كالمجاز . والآن ما الصورة الشعرية ؟ لا حاجة بنا الى استعراض كل ما قيل في تعريف الصورة ، لان معظم التعريفات تقترب من تعريف الشاعر الامريكي ازرا باوند حين قال عنها انها " تلك التي تقدم تركيبة عقلية وعاطفية في لحظة من الزمن "⁽²⁾ والصورة لا تنفصل عن اللغة لانها " انبثاق عن اللغة " .⁽³⁾ ومعنى هذا ان الصورة لا تتقرر بمحض الصدفة بل تولد من جهد الشاعر الفنان على وفق انتقائية دقيقة تقررها " الخصال الشخصية " . لانها عميقة الجذور " في التجربة المحسوسة " .⁽⁴⁾ على ان ما يجب ملاحظته هو أن الصورة كلما احتفظت بأسرارها لحن ، ونزعت الى الغموض الفني الموحى ، والجات القارئ الى التأمل ، كانت اقرب الى روح الشعر ، وألصق بمفهوم الشعرية لان " المعادلة ما بين وضوح الصورة وجلائها وما بين تأثيرها وظل عكسية دائما " .⁽⁵⁾

الصورة والمجاز :

المجاز عند البلاغيين هو " الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له " ⁽⁶⁾ بل ان ابن جني يقول : " ان اكثر اللغة مع تأمله مجاز لا حقيقة " ⁽⁷⁾ والمقصود به ان المجاز يخرج باللفظ " من الدلالة الواحدة الى الدلالة المتعددة " ⁽⁸⁾ وبعبارة

⁽¹⁾ ينظر : الصورة الفنية في نقد الشعر العربي الحديث ، بشرى موسى صالح ، رسالة دكتوراه مطبوعة بالآلة الكاتبة ، 105 .

⁽²⁾ التفسير العلمي للادب ، د . عز الدين اسماعيل ، 63 .

⁽³⁾ جماليات المكان ، جاستون باشلار ، 29 .

⁽⁴⁾ الاسطورة والرمز ، ترجمة : جبرا ابراهيم جبرا ، 60 .

⁽⁵⁾ تطور الشعر العربي الحديث ، د ، علي عباس علوان ، 48 .

⁽⁶⁾ مفتاح العلوم ، السكاكي ، 170 .

⁽⁷⁾ الخصائص 2 / 499 .

⁽⁸⁾ الثابت والمتحول ، ادونيس ، الاصول ، 107 .

اخرى فان المجاز هو الذي يكشف عن المعنى الكامن وراء اللفظ فيشحنه بطاقة ايجائية كبيرة ، ولهذا يؤكد كولردج ان " الشعر من غير المجاز يصبح كتلة جامدة ... لان الصور المجازية هي جزء ضروري من الطاقة التي تمد الشعر بالحياة " .⁽¹⁾

اما اهمية المجاز فتكمن في تلك الحرية التي يتيحها للشاعر ، وبتصرف من خلالها " في خلق اخیلته ورؤاه " .⁽²⁾ على ان هناك من يقول بإمكان أن يقوم الخيال الخصب مقام المجاز في الصورة⁽³⁾ وفي هذه الحالة فليس بمقدور سوى الشاعر الفنان على خلق صوره اعتمادا على اللغة وبمعزول عن العناصر البلاغية . وفي كل الاحوال فلا غنى للشاعر عن المجاز .

الصورة والخیال :

الخیال - كما هو معروف - جوهر العمل الشعري - والادبي عموما - فلا يذكر الشعر الا مقترنا بالخیال ، واذا كان لا بد من تعريفه فهو : " تلك القوة التركيبية السحرية التي تشيع نغما وروحا يمزج ويصهر الملكات احداها بالآخرى ... انه حالة عاطفية غير عادية وتنسيق فائق للعادة " .⁽⁴⁾ فالخیال اذن " اداة من اجل مزيد من الاضاءة للواقع " ⁽⁵⁾ وكلما اشتط ، واغرب ، توحد اكثر مع لغة الشعر التي تماثله في الاغراب والادهاش معا ، ولذلك فلا يمكن للخیال الا ان يكسو الاشياء شيئا من الضبابية فتحتفظ بشيء من اسرارها المجهولة . ومن هنا فهو " اداة لا غنى عنها للفنان ، لانه لا يستطيع الا بمعونته ان يتصور الاشياء

⁽¹⁾ الشعر كيف نفهمه ونتذوقه ، اليزابيث درو ، 59 .

⁽²⁾ دير الملاك ، د . محسن اطميش ، 246 .

⁽³⁾ ينظر : الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري ، د . علي البطل ، ص 25 .

⁽⁴⁾ الشعر والتجربة ، ارشيبالد مكليش ، 53 .

⁽⁵⁾ علم النفس والادب ، د . سامي الدروبي ، 147 .

والحوادث في صور حية قوية" ⁽¹⁾ وليس بين الخيال والحقيقة تعارض او تقاطع كما يظن بعضهم "فكلاهما عنصر فعال في مجال اوسع هو عالم الاشياء والاشخاص والاحداث ذلك العالم الدرامي النفسي "كما يقول "مورينو" ⁽¹⁾ ذلك يعني ان الشاعر حين يستخدم خياله لا يهرب من الحقيقة بل يلتبس الحقيقة كذلك في الخيال" ⁽²⁾.

ان الشعر يتجه اساسا لمخاطبة "ملكة الخيال" عند الانسان لا قوته العاقلة ⁽³⁾ ولان الخيال سر الشاعر - اذا صح القول - فقد تفاوت في القوة ، والخصب ، من شاعر الى آخر فوصف شاعر بانه ذو خيال خصب ، وآخر بانه ذو خيال فقير .

وكما نال الخيال منزلة اسمى عند "كانت" والرومانسيين من بعده في العصر الحديث فقد منح المتصوفة "الخيال اسمى ما يمكن ان يناله من قداسة وتقدير طوال عصور الفكر العربي" ⁽⁴⁾ فالصوفي تواق الى الاتحاد بالمطلق وسبيله الى ذلك الخيال المجنح فمن خلاله "يتم الكشف عن نوع مهم في المعرفة ، وينار الطريق لادراك طائفة من الحقائق المتعالية" ⁽⁵⁾ ومن هنا كان الخيال عند المتصوفة "اصل جميع العوالم" ⁽⁶⁾.

⁽¹⁾ شوبنهاور ، عبد الرحمن بدوي ، 133 .

⁽²⁾ التفسير النفسي للادب ، د . عز الدين اسماعيل ، 36 .

⁽³⁾ المكان نفسه .

⁽⁴⁾ ينظر : فنون الادب ، ه . د . تشارلتن ، 45 .

⁽⁵⁾ الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، د . جابر عصفور ، ص 51 .

⁽⁶⁾ المكان نفسه .

⁽⁷⁾ كشاف اصطلاحات الفنون ، التهانوي ، 2 / 351 - 353 .

ان مهمة الخيال خطيرة في العمل الفني والشعري بخاصة ، فالصورة الفنية " لا تكتمل بدونه مهما كانت قدرات الشاعر والفنان ، ولما كانت هذه الصورة قد استوعبت صفات التشكيل المكاني " ⁽¹⁾ فان الخيال ارتبط مثلها بالمكان الذي يدعونا للفعل ، ولكن قبل الفعل ينشط الخيال ، ينقي الأرض ويحرثها " ⁽²⁾

الصورة والاسطورة :

تحدد مهمة القصيدة الحديثة في "تنسيق احزان العالم" ⁽³⁾ واحزان العالم هي احزان الوجود ، "والشعر يهتم بالوجود والوجود لا نهائي" ⁽⁴⁾ وما دام الانسان في صراع مستمر مع الوجود - ومن اجله - فان الشاعر المعاصر هو احد اطراف هذا الصراع ، بل هو احد اطرافه الاساسيين ، ومن هنا جاء اهتمامه بالاساطير مستلهما دلالاتها البدئية ومستكنها ابعادها الانسانية لمواجهة خيبات العصر ، فالاسطورة "هي الماضي الحاضر في الحاضر" ⁽⁵⁾ وحين يستخدم الشاعر الاسطورة فانه بذلك "يقوم بعملية اختراق حضاري لماضي غابر غير حضاري يحمل معه براءة البشرية ونقاءها في عهود طفولته الاولى" ⁽⁶⁾ فاستدعاء الاسطورة على وفق هذا التصور لا يكون حلية عند الشاعر الفنان بل هو استجابة لسياقات الشاعر النفسية والفنية معا . ويترب على ذلك ان يعي الشاعر "ان استخدامه لهذا الرمز او ذاك لن يكون له قوة التأثير الشعري ما لم

⁽¹⁾ تشكيل المعنى الشعري ونماذج من القديم ، عبد القادر الرباعي ، م فصول ، ع2 ، م4 ، 1984 ، ص 65 .

⁽²⁾ جماليات المكان ، باشيلار ، 49 .

⁽³⁾ الصورة الشعرية ، سي دي لويس ، 20 .

⁽⁴⁾ الحياة والشاعرة ، ستيفن سبندر ، 186 .

⁽⁵⁾ الشعر العراقي الحديث ، د . جلال الخياط ، 159 .

⁽⁶⁾ المكان نفسه .

يحسن ... استغلال العلاقات أو الأبعاد القديمة لهذا الرمز ، وما لم يضاف الى ذلك ابعادا جديدة هي من كشفه الخاص " .⁽¹⁾

وبعبارة اخرى ، لكي يكون استخدام الاسطورة ناجحا ينبغي استدعاؤها ضمن السياق الطبيعي ، ومنحها الدلالة العصرية المناسبة من خلال ما يستلزمه السياق من تحوير وتغيير وزيادة ، فكلما تضافرت "العناصر الاسطورية في دلالتها مع الصورة العامة او العناصر الاسطورية اخرى في القصيدة" ⁽²⁾ اقترب الشاعر من روح الموقف الاسطوري فهذه الروح لا تخلو في جوهرها من لمسات شعرية .

ان الصورة الشعرية - في ضوء ما تقدم - هي سمة الشعر الحديث فمن خلالها يستطيع الشاعر ان يجسد فكرته في تعبيرية قادرة على استقطاب المتلقي وصهره في صميم التجربة الانفعالية ، ولكي يكون "العمل الشعري كله علاقات صورية كما يقول هربرت ريد" ⁽³⁾ توجب على الشاعر أن يؤسس بنية ايجابية مركبة تستمد عناصر تصويريتها من قوة التوهج الانفعالي ، غير تحطيم علاقات المادة المنظورة واقامة علاقات جديدة على وفق رؤيا الشاعر من خلال استخدام كل الحواس دون الوقوف عند حاسة البصر وحدها ذلك "ان الصورة يمكن ان تستقي من الحواس الاخرى اكثر من استقائها من النظر" .⁽⁴⁾

ان الصورة بمختلف انواعها قادرة على اقامة علاقات الجديدة بين الالفاظ، واستحداث استعمالات لغوية مبتكرة ، تقود حتما الى خلق صوري

⁽¹⁾ الشعر العربي المعاصر ، د . عز الدين اسماعيل ، 196 .

⁽²⁾ الرمز الاسطوري في شعر بدر شاكر السياب ، علي البطل ، 118 .

⁽³⁾ تشكل المعنى الشعري ونماذج من القديم ، عبد القادر الرباعي ، م فصول ، ع2 ، مج 4 ، 1984 ، ص 55 .

⁽⁴⁾ الصورة الشعرية ، سي . دي . لويس ، 21 .

جديد ليس على مستوى الدلالات الوظيفية او المعنوية المعروفة فحسب وانما على مستوى الدلالات النفسية ايضا ، وفي هذا الصدد يذهب ناقد معاصر الى " ان للصورة مستويين ... هما المستوى النفسي والمستوى الدلالي " ، ⁽¹⁾ مشيرا الى ان للصورة وظيفتين نفسية ومعنوية ، ومن خلال تحديد الوظيفة النفسية فان الصورة الشعرية ستتجاوز كثيرا للفقر الصوري الذي يتمخض عن القراءة البلاغية التقليدية . ⁽²⁾

في ضوء ما مر من مفهومات سأتعامل مع الصورة الشعرية في شعر الرواد، ومدى تعبيرها عن غربتهم متناولا عدة تشكيلات صورية هي :

التشكيل بالقصة

التشكيل بالموروث

التشكيل بالرمز الاسطوري

التشكيل بالرمز الادبي

التشكيل بالقناع

⁽¹⁾ جدلية الخفاء والتجلي ، كمال ابو ديب ، 22 .

⁽²⁾ يدلل المؤلف على صحة رأيه بالاستشهاد بآيات لابن المعتز موضحا الفرق الكبير بين القراءة البلاغية والقراءة الحديثة في ظل انسجام الوظيفتين المعنوية والنفسية ، كما يقدم امثلة اخرى من اشعار ابن المعتز وامرئ القيس والنابعة والشريف الرضي على عمل الوظيفتين " بالتجاهين متضادين او متغايرين " ، ينظر : جدلية الخفاء والتجلي ، 22 وما بعدها . كما ينظر التفسير النفسي للادب ، د . عز الدين اسماعيل ، وماقدمه من تطبيقات نفسية على احدى قصائد ذي الرمة " الصفحات 84 - 87 " احدى قصائد الشاعر عبده بدر " الصفحات 113 - 116 " .

التشكيل بالقصة :

حين ننسب قصيدة الى فن الحكاية او الى الفن القصصي فاننا لا نطمع الى ان تكون تلك القصيدة قصة متكاملة ، او حكاية ناضجة ، ذلك لان الشاعر حتى لو امتلك كل مقومات القاص او الروائي يظل شاعرا بالدرجة الاولى ، ولكنه قد يستلهم بعض ملامح شعره من الفن القصصي قدر ما تسعفه تجربته الانفعالية ، وادواته الفنية ، وقدرته في رسم الشخوص والاحداث .

وفي بعض شعر الرواد ترتسم ظلال الحكايات والقصص هنا وهناك مع تفاوت في الوضوح والضمور ، والقوة والضعف ، والنضوج والفقر ، فقد نقرأ للسياب شيئا من هذا في قصائده : في السوق القديم ⁽¹⁾ وغريب على الخليج ، والمخير ، وعرس في القرية ، ومدينة بلا مطر ، والموس العمياء ، وحفار القبور. ⁽²⁾ وتطالعنا في شعر البياتي بعض قصائده التي حملت جينات قصصية مثل : سوق القرية وعشاق في المنفى ، والحديقة المهجورة ، ومذكرات رجل مسلول . ⁽³⁾ والرجل الذي كان يغني ، ⁽⁴⁾ ومجنون عائشة ، ⁽⁵⁾ وأولد وأحترق بجبي . ⁽⁶⁾ وفي دواوين نازك الملائكة تطالعنا من حين الى آخر نماذج من قصائد تستقي ، بسرعة وعلى استحياء ، بعض ملامح القصة او الحكاية ، مثل : المقبرة الغريقة ، وبداية قصيدة السفينة التائهة ، ⁽⁷⁾ ومر القطار ، والخيط المشدود الى

⁽¹⁾ ديوانه : ازهار واساطير .

⁽²⁾ ديوانه : انشودة مطر ، 1 / 317 ، 338 ، 344 ، 486 ، 509 ، 543 ، على التوالي .

⁽³⁾ ديوانه : اباريق مهمشة 1 / 190 ، 210 ، 249 ، 270 على التوالي .

⁽⁴⁾ ديوانه : اشعار في المنفى 1 / 414 .

⁽⁵⁾ ديوانه : قصائد حب على بوابات العالم السبع 3 / 89 .

⁽⁶⁾ ديوانه : قمر شيراز 3 / 485 .

⁽⁷⁾ ديوانها عاشقة الليل 1 / 534 و 612 . على التوالي .

شجرة السرو ، ⁽¹⁾ ولعل قصيدتها لعنة الزمن ⁽²⁾ اقرب تلك القصائد الى فن القصة . ولم يكن بلند الحيدري بعيدا عن الشعر / القصة او الشعر / الحكاية ، فقد نلمس ظلالات باهتة او غامقة لهذا الفن او ذاك في قصائده : سميراميس ، وصور في كأس ، وربيع شقية ، ⁽³⁾ وثلاث علامات ، وشيخوخة ، والخطوة الضائعة ⁽⁴⁾ ووحشه ، وغصن وصحراء ومظفر ، ⁽⁵⁾ واعترافات من عام 1961. ⁽⁶⁾ وقد ارتأينا معالجة قصيدتين الاولى للسياب والثانية لبلند الحيدري .

تعد قصيدة " غريب على الخليج " احدى أهم قصائد السياب ، ففضلا عما توافرت عليه من ملامح القصة ، فانها قدمت نموذجا بشريا عبر تجربة انسانية فريدة عانى فيها البطل / الشاعر صراعا عميقا ضد قوى الوجود والطبيعة. ⁽⁶⁾ وعلى الرغم من تكديس المعاني والصور فيها وفي سواها من قصائد السياب الطويلة بسبب كونها " وصفية شبه قصصية اكثر منها مبدعة صراع " كما يرى الدكتور جلال الخياط ، ⁽⁷⁾ فإن عذر السياب في ذلك انه شاعر وليس قاصا او روائيا .

⁽¹⁾ ديوانها : شظايا ورماد 2 / 58 ، 185 على التوالي .

⁽²⁾ نفسه 2 / 242 .

⁽³⁾ ديوانه : خفقة الطين 61 ، 101 ، 125 ، على التوالي .

⁽⁴⁾ ديوانه : اغاني المدينة الميتة ، 57 ، 72 ، 96 على التوالي .

⁽⁵⁾ ديوانه : رحلة الحروف الصفر ، 13 ، 17 على التوالي .

⁽⁶⁾ ديوانه : اغاني الحارس المتعب ، 80 .

⁽⁷⁾ ينظر : الرؤيا الشعرية المعاصرة ، د . احمد نصيف الجنابي ، 61 ، وبدر شاكر السياب رائد

الشعر الحر ، عبد الجبار داود البصري ، 62 ودير الملاك ، د . محسن اطيماش ، 26 وما

بعدها .

⁽⁸⁾ الشعر العراقي الحديث ، 158 .

في بداية القصيدة يرسم السياب لوحة المشهد العام ، وكأنه يجسد مدخل
القصة :

الريح تلهث بالهجرة ، كالجنام على الاصيل
وعلى القلوع تظل تطوي او تنشر للرحيل
زحم الخليج بهن مكتدحون جوابو بحار
من كل حافر نصف عاري⁽¹⁾

حركة دائبة ومصطخبة : من قلوع بعضها يطوي وبعضها ينشر وبجارة
حفاة انصاف عراة يرتسم الكدح على جباههم ، وطقس خائق ، ساخن ، تلهث
الرياح فيه وكأنها كابوس ثقيل رهيب اطبق على الاصيل فقتل سحره ، وفي
هذا الجو المأساوي كان البطل يخوض صراعه :

وعلى الرمال ، على الخليج
جلس الغريب ، يسرح البصر المحير في الخليج
ويهد اعمدة الضياء بما يصعد من نشيج
اعلى من العباب يهدر رغبة ومن الضجيج
صوت تفجر في قرارة نفسي الشكلى عراق
كالمذ يصعد ، كالسحابة ، كالدموع الى العيون
الريح تصرخ بي : عراق

والموج يعول بي : عراق ، عراق ، ليس سوى عراق⁽¹⁾

⁽¹⁾ ديوانه : انشودة المطر ، 1 / 317 .

هذا هو البطل من الداخل : تأزم أقوى من عباب البحر ، واشتياق يعلو على كل ما عداه من الضجيج ، فهو غريب ، طريد ، يقف على غير أرض وطنه مدافعاً بالمناكب ، محترقا بالرياح ، ومسكوناً بالجوع والفاقة ، والخوف ، والحنين ، والعراق يملأ عليه المكان والزمان ، داخل ذاته ، وخارجها .

ويستمر الشاعر في رسم اللوحات ، وتوليد الصور : ففي اللوحة الثالثة : يسترجع الماضي من خلال مجموعة من الصور محدودة المساحة : فثمة صورة الأم وهي تهدد طفولة الشاعر ، وصورة النخيل المكتظ بالاشباح ، وصورة الاطفال وهم يعودون مبكرين مع الغروب خيفة تلك الاشباح ، وصورة المفلية العجوز وهي تروي قصة عفراء وحزام :

هي وجه امي في الظلام

وصوتها يتزلقان مع الرقوى حتى انام

وهي النخيل اخاف منه اذا ادلهم مع الغروب

فاكتظ بالاشباح تخطف كل طفل يؤوب

من الدروب ؟

وهي المفلية العجوز وما توشوش عن حزام⁽²⁾

ولكن خيط الماضي ينقطع ، فتلك انتباهه حملت الشاعر ، وها هو يصحو منها ، ليعود الى نفسه .. حيث هو ، غنيت تربتك الحبيبة وحملتها فانا المسيح يجر في المنفى صليبه فسمعت وقع خطي الجياح تير ، تدمن من عشار فتذرني عيني

⁽¹⁾ نفسه : 1 / 317 - 318 .

⁽²⁾ نفسه : 1 / 318 .

منك ومن مناسمها غبار⁽¹⁾ فالمسيح الذي يرتنه المنفى : "مترب القدمين" و"اشعث في الدروب ، تحت الشمس الاجنبية" تستدر الاطمار التي يرتديها العطف والشفقة ، ويكاد فقره يدفعه الى الاستجداء بثوث "الشحاذ الغريب" وقد حاقت به العيون الغريبة ، فبعض تحتقر وتزور وتنتهر ، وبعض ترق وتسخو⁽²⁾ وهكذا قدم الشاعر تشكيلا متدافعا من الصور ، هي في مجموعها قصة المناضل الطريد ، موزعا بين ماضي بريء وشاعري ، وحاضر قاس ، وصعب ، مع تشوف واضح ومتفائل الى المستقبل .

وتندرج قصيدة "اعترافات من عام 1962" لبلند الحيدري تحت هذا الباب فهي قصة الشاعر من خلال عمله الوظيفي اليومي ، تسحقه دوامة الروتين ، في البداية نلتقي بمشهد تمهيدي يحدد ملامح هذه الحياة من جهة ويشير الى التفرعات الصورية الاخرى من جهة اخرى .

ما أتعس ان اقضي كل حياتي في عتمة مكتب

نفس الوجه المرمي على الطاولة السوداء

نفس الزمن المترهل

في الظل

ونفس الاوراق الملساء⁽³⁾

لنلاحظ اللون الاسود الطاغى على اللوحة :

(1) نفسه ، 1 / 321 .

(2) ينظر : المكان نفسه .

(3) ديوانه ، اغاني الحارس المتعب ، 80 .

عتمة مكتب / الطاولة السوداء ، الزمن المترهل

في الظل . في المقطع الثاني يصنف الشاعر لوحة

حطت لفظ الجلالة زينت الجدار بحروف

كُتبت بالخط الكوفي وقد خيل للشاعر أن اللامين علامتان تنبئان
بالصلب: "من المصلوب بلامية: من المصلوب" (1)

وهذا الهاجس صدى لتمرد الشاعر وأنسياقه في تيار التجديف ، ثم يدخل
الشاعر في صلب حياته الوظيفية برؤيا متوجسه قلقه :

وكأمس

ذهبت

يفتح فراشي باب الغرفة ، يحني قامته العطشى

وبلهفة من عوده الجوع ان يحني

قامته

ويُدَلّ تحتيه حد الهمس

سيقول :

صباح الخير (2)

هذه "الصباح الخير" تستهلك نفسها على وفق تصور الشاعر ، وتصبح
لغزا : أهـي : اسم مغنية ، ام اسم قصيدة ، ام اسم جريدة . (3)

(1) نفسه ، 81 .

(2) نفسه ، 82 ، 83 .

ان سأم الشاعر ، وضيقه بالحياة الهمة كل تلك التوصيفات ، ولأن هذا السأم تلبسه فهو لا يرى في لوحة الحياة / الوظيفية غير اللون الاسود الذي يعود في الجزء الآتي من القصيدة لونا اساسيا يغطي كامل الصورة :

اغلق باب الغرفة

القهوة ... لا تنس ... مرة

وانا اكرهها مرة

اكره هذا القار الاسود

اكره هذا الدرب الاسود في قهر الفنجان

واكره حتى الحبر الاسود ... حتى .. اللا ...

... لا تكفر .. لن يغفر ربك هذي الفكرة

- مرة

- أجل ... مرة

فصاب بالسكري لا يأخذ قهوته إلا مرة .

- كيف اصببت به ومتى

- لا تسأل⁽¹⁾

هذه الحوارية "السوداء" بين الشاعر وبين الفراش ، او بين الشاعر وبين نفسه ، قصة او مقطع قصصي استقى من بحر الخيب ايقاعه الذي استوعب غربة

⁽³⁾ ينظر : نفسه ، 83 .

⁽¹⁾ نفسه ، 84 .

الشاعر، ثم جاء اللون الاسود ليزيد من قتامة الصورة، وليعبر عن قرف الشاعر :

فالقهوة المرة ، رمز للحياة المرة ، وهي ايضا رديف الدرب الاسود وهو درب الدل ، والاضطهاد ، والانسحاق ، وهذا القار الاسود رمز الاستخذاء والانصياع وربما كان الخبر الاسود عند الشاعر اشارة الى التقارير السوداء التي ترفع عنه ، اما السكرى فهو داء العصر ، ولكنه عند الشاعر داء السياسة ، لانه ارتبط عنده بالقهوة المرة السوداء .

ان اللون الاسود احد ثلاثة الوان عند بلند ، فهو رمز لقتامة الحياة الى جانب الاحمر الذي اقترن بمرحلته المجونية ، فهو رمز الطيش والشهوة ، واللون الاصفر هو ثالث هذه الالوان وهو رمز الغروب والتلاشي .⁽¹⁾

التشكيل بالموروث :

وجد الشعراء الرواد التراث " ضربا من الرؤية الفنية يقوم فيه الحس التراثي مقام الرصد التاريخي " ⁽²⁾ وقد تراوح استيحاؤهم التراث ⁽³⁾ بين التضمين ، والاقتباس ، والاشارة ، وحفلت دواوينهم بقصائد كثيرة تناولنا قسما منها في مبحث البنية اللغوية . وستناول هنا كما محدوداً تجنب اللا طالة .

فمن باب التضمين العجول لبيت شعري قديم قول البياتي :

⁽¹⁾ ينظر : الزمن في شعر الرواد ، سلام كاظم الاوسي ، رسالة ماجستير بالألة الكاتبة ، 225- 226 .

⁽²⁾ واقع القصيدة العربية ، د . محمد فتوح احمد ، 147 .

⁽³⁾ تناول د . علي حداد بشيء من التفصيل ابرز المضامين التراثية وهي الاسطوري ، والتاريخي ، والديني ، والادبي ، والشعبي ، ينظر : أثر التراث في الشعر العراقي الحديث ، 76 - 88 .

قالوا : "تمتع من شميم
عرار نوجد يا رفيق"
فبكيت من عاري
"فما بعد العشي من عراز"
فالباب أوصده "يهودا" والطريق
خال ، وموتا ك الصغار
بلا قبور ، يأكلون
أكبارهم ، وعلى رصيفك يهجعون⁽¹⁾

في النص تضمين للبيت الشعري القديم :

تمتع من شميم عرار نوجد فما بعد العيشة من عرار

ان الشاعر وهو يتحدث عن ضياع "يافا" قرن هذا الضياع ، بشميم عرار نوجد فكما ان الشاعر القديم سيفتقد هذا العرار فان البياتي / الانسان العربي الشاعر حيل بينه وبين "يافا" التي اوصد "يهودا" الطريق اليها وربما عبر الشاعر عن هواجسه شاعرا مغتربا صودرت احلامه اكثر مما عبر عن مشاعر الفلسطيني المشرّد . على اننا من جانبنا افتقدنا الصورة الشعرية التي ظل الشاعر سبيله اليها بسبب ما لحسه فيه من عجالة ، واذا أردنا الدقة بسبب سطحية التجربة الانفعالية بازاء الموضوع ، على ان البياتي تجاوز هذا القصور في اشعاره اللاحقة عبر تجريب مستمر ودؤوب وصولا الى القناع الذي تناول من خلاله هو عددا من الشخصيات التاريخية والتراثية .

⁽¹⁾ ديوانه : المجد للأطفال والزيتون ، 1 : 289 – 290 .

ويستخدم السياب موروثة شعيبا التقطه من اغنية شهيرة لمغن عراقي هو "حضيرى ابو عزيز" ففي قصيدة "هرم المغني" استعار الشاعر مقطعا من اغنية "سلم علي بطرف عينه وحاجبه". وقد كان استدعاء هذا المقطع موفقا من زاويتين على الصعيد الموضوعي : فقد كان جزءا اصيلا من نسيج القصيدة التي تتحدث عن مغنٍ هرم استلب الداء صوته والغني زمانه :

هرم المغني ، هذ منه الداء فارتبك الغناء
بالأمس كان إذا ترئم يمسك الليل الطروب
بنجومه المترنحات فلا تحر على الدروب
واليوم يهتف الف آه لا يهتز مع المساء
سعف التخيل ولا يرجع زورق العرس المحلى
بعيون آرام ودفلى
ودراك ارتعدت حناجرها فأرعدت
الهواء (1)

اي ان اسقاط صنعة المغني على الشاعر نفسه وليد عدة خصائص مشتركة بينهما : فكلاهما كان مشهورا في فنه ، وكلاهما أصيب بمرض عضال اختطف أحدهما ، وما يزال يتربص بالثاني .

أما الأمر الثاني في استدعاء هذا الموروث الشعبي ، فهو احساس الشاعر بالعزلة والاغتراب وحاجته الى العطف ، والرثاء مادام التعاطف ، مستحيلا كما يحسه :

(1) ديوانه ، منزل الاقنان ، 1 / 307 - 308 .

هرم المغني فاسمعه ، برغم ذلك ، تسعدوه
ولتوهموه بأن من أبلد شباب من لحن
وهوى تفرق مقلته له وينفع منه فوه
هو مائت ، أفتبخلون
عليه حتى بالحطام من الازاهر والغصون
أصغوا اليه لتسمعه
يرثي الشباب ولا كلام سوى نشيج : " بالعيون
سلم علي إذا مررت ... " .
اتى وسلم ... صدقوه !
هرم المغني فارحموه ⁽¹⁾

على ان السياب ، ولفرط احساسه بالعزلة من جهة ، وبإثارة الآخرين
وبخلهم من جهة اخرى تصرف بالاغنية ، فاستبدل الافعال الماضية بأفعال الأمر
استدارا لموقف اكثر انسانية وسخاء من الغير وتنفيساً عما يعتمل في نفسه من
الأم والغضب جراء انفضاض الناس من حوله ، اي ان الشاعر طور الحدث
والمعنى ⁽²⁾ وبذلك حقق الاستجابة الفنية الى جانب تحقيق الاستجابة
الموضوعية.

⁽¹⁾ نفسه ، 1 / 308 .

⁽²⁾ ينظر : دير الملاك ، د . محسن اطيماش ، ص 228 .

وفي فترة مرضه استخدم رمزا من الموروث الديني هو "ايوب" استجابة لما كان يحسه من غربة روحية مركبة :

اطفال ايوب من يرعاهم الآن ؟
ضاعوا ضياع اليتامى في دجى شات
يا رب ارجع على آيوب ما كانا
جيكور والشمس والاطفال راكضة بين النخلات
وزوجة تتعري وهي تبتسم
او ترقب الباب ، تعد وكلما قرعا
لعله رجعا
مشاعة جون عكاز به القدم⁽¹⁾

يؤسس النص صورتين متناقضتين : الاولى هي انعكاس للواقع الراهن ، صورة اطفال الشاعر / ايوب وقد حل عليهم شتاء قاس اسلمهم للريح والبرد والضياع فهم يتامى ينتظرهم مصير مجهول . والثانية صورة متخيلة تعكس رغبة الشاعر : صورة لجيكور غارقة بشعاع الشمس ، واطفال يلعبون تحت النخيلات ، فيما كانت زوجة الشاعر تأخذ زينتها اما المرأة تنتظر زوجها وقد عاد اليها دونما عكازة . وينبغي ملاحظة ما افرزه استخدام الرمز من مفارقة : فايوب النبي تخلّى عنه اهله جميعا بعد أن تركوه وحيدا يصارع المرض ، في حين ظل للشاعر زوج واطفال ينتظرونه ، ويحيطونه بالرعاية .

أما نازك فقد حفلت بواكير شعرها بالشعرات من الموروثات العربية والاغريقية : من آدم وحواء وهابيل وقايل وعاد وثمود وشهريار وشهرزاد الى رموز العشق العربي وسواهم .⁽²⁾ وقد لحظ الباحث ان استخدام الشاعرة لتلك

⁽¹⁾ ديوانه منزل الاقنان ، 1 / 257 - 258 .

⁽²⁾ ينظر : نازك الملائكة دراسات في الشعر والشاعرة ، من الموروث الاسطوري والديني في شعر نازك الملائكة ، محمد رجب النجار ، ص 357 - 421 .

الرموز يأخذ طابع النمطية لان الشاعرة انطوت "على الذات انطواء" (1) تاما مما حال بينها وبين اهتبال فرصة الاستخدام الفني الناضج من جهة ، ولأن معظم هذه الاستخدامات كان في مطولتها المنظومة بطريقة البيت الشعري الذي ربما اعاققت استدعاء الرمز بحرية وحركة منا سبتين كما هو الأمر في شعر التفعيلة ، من جهة ثانية ، ولأن "البنية التراكمية" (2) التي تميز قصيدة نازك بما فيها من استطلاعات وامتدادات وزوائد كان وراء ذلك القصور ، لأن التراكم يكون البديل عن التكثيف الذي يشع في النص ايجاء يقتنص للرمز شحنته الفنية المؤثرة من جهة ثالثة . واستخدامها رمزها جر في قصيدة الماء والبارود لم يستكمل نضوجه الفني عند الشاعرة الكبيرة الرائدة ، بالرغم من انها فيه تجاوزت كثيرا استخدامها رموز العشق العربي .

يقوم رمزها جر على رسم لوحتين : الاولى للجنود المصريين وهم يبتهلون الى الله ان ينزل عليهم المطر من اجل ان يفطروا ، تقول :

الله اكبر

يا صائمون افطروا

من أين يا ربّ لنا بالماء ؟

جرارنا عطشى وتمتد حوالى جد بنا الصحراء

شفاهنا من عطش سيناء (3)

(1) الشعر والشعراء في العراق ، احمد ابو سعد ، ص 192 .

(2) ينظر : نازك الملائكة دراسات في الشعر والشاعرة ، بنية القصيدة في شعر نازك الملائكة ، عبد الرحمن ياغي ، ص 705 .

(3) ديوانها ، يغير الوانه البحر ، 31 .

هذه الصورة تقابلها صورة الطفل اسماعيل يبكي عطشاً ومن ورائه امه
تركض سبع مرات بين الصفا والمروة ضارعة الى الله هي الاخرى ان يطفئ
عطش الطفل : في

الطفل اسماعيل يبكي عطشاً

لم يبق خديه لون وقمره

وقلب امه الحزين برعم منصهر

ودمعها على مرايا وجهها ينحدر

وسبع مرات سعت والهة

بين الصفا والمروة⁽¹⁾

ان ما يفقد الرمز من السقوط هو ان الشاعرة وضعتنا امام مفارقة لم
نتوقعها : فقدم الطفل تفجر الماء فتكون السقيا ، بينما تسقي الطائرات المعادية
الجنود بالصواعق بدل الماء الذي انتظروه من رب السماء . وكأن الشاعرة
ارادت ان تقول : إن خروجها من أسس الذات المغترية بحاجة الى معجزة " كما
هي تفجر الماء تحت قدم اسماعيل " ولكن هذه المعجزة لن تتكرر " كما لم
تستجب دعوات الجنود الا بالموت " فليست ثمة معجزة في العصر الراهن .

توظيف الرمز الاسطوري :

لقد وقفنا في الفقرة السابقة عند توظيف التراث العربي وتخصيصا التراث
الادبي الديني والشعبي ، وبتناول الآن استخدام الرمز الاسطوري وسيلة

(1) نفسة ، 32 - 34 .

لتشكيل الصورة الشعرية ، فقد كان للسياب خاصة فضل استدعاء هذا الرمز لضرورات انسانية وفنية معا تتصل بطبيعة التجربة الشعرية للشاعر المعاصر ، على ان التوافر على الاسطورة - خصوصا ومدنا وامكن ومواقف - اصبح سمة الشعر الحديث بعد ذلك ولشعرائنا الرواد عموما تنوعات شتى في هذا الميدان ، فلم يقفوا عند رمز اسطوري واحد بل اتخذوا لكل موقف ، ولكل تجربة رمزا خاصا في ضوء دلالاته الاسطورية والمعاصرة في آن ، واذا تجاوزنا المرحلة الاولى لهذا الاستخدام التي لم يتضح خلالها للرمز وظيفة فنية ، او ضرورة تتصل بالتجربة ، الى المراحل اللاحقة فنرى توظيفات موفقة اثبتت ان تلك الرموز كانت "رموزا حية على الدوام" (1)

وسأختار هنا شاهدين : للبياتي وبلند الحيدري ، اما البياتي فهو ذو خصوصية فنية منفردة أشرنا اليها في اكثر من موضع ، فقد حقق ما سعى اليه من منجز في من خلال النفاذ "من دائرة الذاتية الضيقة الى رحاب الانسانية" (2) وبذلك استطاع توظيف الرمز الاسطوري بما يخدم تجربته الشعرية وبناءه الفني ، وقد كرّس رموزا مثل السندباد وسيزيف ، وبروميثوس ، ولعل الاخير اقرب الى حقيقة الشاعر الفادي ومن هنا كانت احزانه هي "احزان برميثوس الفادي الذي ضحّى من اجل الانسانية" . (3)

يقول في قصيدة "سارق النار" :

وحدي احترقت أنا / وحدي وكم صبرت

(1) العربي المعاصر ، د . عز الدين اسماعيل ، 199 . الشعر

(2) عبد الوهاب البياتي والشعر العراقي الحديث ، احسان عباس ، ص 103 .

(3) الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث ، د . ماهر حسن فهمي ، ص 133 .

بيّ الشموسُ ولم تحفل بأحزاني
لإني غفرت لهم ، اني رثيتُ لهم
اني تركت لهم يا ربّ اكفاني
فلتلعب الصدفة العمياء لعبتها
فقد بصقت على قيدي وسجّاني (1)
البياتي هنا مُضحٍ ، وإن كان يائسا :
عصر البطولات قد ولى وما أنذا
اعود من عالم الموتى بخذلان (1)

ولكنه يأس مؤقت فالشاعر لم يلق سلاحه ولم يستسلم ، وما يقدمه النص من صورة ذهنية هي من صنع العلاقات الخاصة التي اقامها الشاعر بين الكلمات في قصيدة "سيرة ذاتية لسارق النار" (2) يكون بروميثوس والشاعر وشعراء الكدية ابطال القصيدة . فالشاعر يبحث عن بروميثوس ، ثم يلتقي به ، ثم يموت هذا الاخير بعد ان يبلغ الشاعر وصاياه .

اما بلند الحيدري فهو مثل نازك مستسلم لحزنه الشخصي ، وغارق في غربته حتى الضياع فكأنه بنى لنفسه عالما خاصا متماثل الخطوط والالوان . (4)
وقد استخدم من الرموز اوديب ، وبرميثوس والسندباد " وان لم يسمه صراحة " .
(5) في قصيدة "بروميثوس" يقدم الشاعر ضياعه ، الى جانب كبريائه :

(1) ديوانه ، اباريق مهمشة ، 1 / 181 .

(2) المكان نفسه .

(3) ديوانه ، سيرة ذاتية لسارق النار ، 3 / 369 .

(4) ينظر : الشعر والشعراء في العراق ، احمد ابو سعد ، 177 .

(5) تنظر : قصيدة الرحلة الثامنة ، ديوانه ، خطوات في الغربة ، 70 .

وكالذرى

تلك التي لا ترى

في صمتها القارس غير الرعود

اعيش في موتي واقتات من

سرى الذي كان فكان الوجود⁽¹⁾

انه يموت فوق قمة عالية توجّتها الوعود ، وران عليها الصمت القارس ،
ولكن موته حياة ، على الاقل بالنسبة للآخرين ، وهذه هي التضحية ، ولكنها
التضحية المشوبة ببعض اليأس :

هذي يدي نفضت عنها غدي

والف وعد راسف في القيود

فليحلم النمر بأمواته

ولتحلم الموتى بسر الخلود⁽²⁾

ولذا كانت الصورة غائمة في النص السابق لسيادة التجريد ، فان الشاعر
يحشد في قصيدة "اوديب" صوراً مكثفة وموحية ، ففي مقطع "الصورة" من
القصيدة نقراً :

وتطلّ على ليل ... عيناه

وتغور خطاه

(1) ديوانه ، اغاني المدينة الميتة ، 76 .

(2) ديوانه ، اغاني المدينة الميتة ، 77 .

احلام سوداء ومثاء

وهناك مثاء

ومتاء

يا الف سماء أئي ... الله ؟ (1)

الليل هو الصورة البؤرية : وثمة صورة منفصلة عنها ولكنها تلتقيان في آخر المطاف صورة العينين المطلتين على الظلام ، وصورة الخطى الغائرة ، والاحلام السوداء ، والمتاه الممتد الى اللانهاية ، وقد اتشحت جميعا باللون الاسود تعبيراً عن قتامة حياة الشاعر ، ونظرتة السوداوية . وفي مقطع " اوديب " من القصيدة يطالعنا الشاعر وحيدا ، اعزل :

مهجور كالليل انا

كالصمت انا مهجور

وهنا قرب يدي

ملء غدي

دنيا يا دجى مقرر

بيداء

ربداء

ونداء مبتور

ودهور تتساقط تيجر فيها امواه (2)

(1) ديوانه ، خطوات في الغربة ، 73 .

(2) نفسه ، 74 .

ثمة كون مظلم بارد ، وأزمة تتساقط كالأحجار فتجرفها المياه ، وثمة بيداء شاسعة ، رداء من الصمت وهو رمز للتلاشي والضمور ، وربما إشارة لاحتضار الحياة ، فاوديب الذي هام على وجهه بعد جريمة قتل أبيه والزواج من أمه ، أعمى يبتلعه الوجود اللا متناهي ، كذلك هو الشاعر في غربته الروحية والمكانية يموت عنده الزمن ، ولا يستشعر في حياته سوى عبثية الأشياء ولا جدواها .

التشكيل بالرمز الأدبي :

الرمز الأدبي "عمق" أو بعداً من أعماق أو أبعاد المعنى" ،⁽¹⁾ وهو هنا غير الرمز الاسطوري الذي تحدثنا عنه في الفقرة السابقة ، والذي توارثه الشعراء بالتوظيف والاستيحاء ، ولا الرمز البدائي الذي المحدر إلينا من الثقافات البابلية والفرعونية واليونانية والهندية ،⁽²⁾ وإنما هو ذلك الرمز الذي خلقه الشاعر بوحى من تجربته الانفعالية ، وانتسب إليه ، وارتبط بظروفه النفسية ، وهو على وفق هذا التوصيف "ابن السياق" .⁽³⁾ ومما لا شك فيه ان هذا الرمز "لا يقوم على العقل والادراك وإنما على نظرة وجدانية حدسية" ⁽⁴⁾ هي الأخرى وليدة التوقد الانفعالي ، والنزوع الحلمى للانفصال عن الواقع .

ولقد اصطنع شعراؤنا الرواد رموزاً شتى تراوحت بين الفاظ مستقاة من الطبيعة واسماء لشخصيات تاريخية ، فقد استخدم السياب "المطر" رمزاً شعاعياً

(1) مقالات في الشعر الجاهلي ، يوسف اليوسف ، 298 .

(2) للاطلاع على أنواع الرمز ينظر مثلاً : نظرية بنائية في النقد الأدبي ، د . صلاح فضل ، 469 - 470 .

(3) الصورة الأدبية ، د . مصطفى ناصف ، 155 .

(4) البنية الموضوعية والفنية للشعر الوجداني الحديث في العراق ، عبد الكريم راضي جعفر ، رسالة دكتوراه على الآلة الاكاتب ، ص 255 .

يبدأ بمحور ذاتي وينتقل الى مستوى اجتماعي فكري " ، ⁽¹⁾ ولذلك فقد شع في شعره بغزارة ⁽²⁾ اما عند البياتي فقد ارتبط المطر بالاغتراب ولذلك دعاه " بالعقيم " :

- وانا ...

- وانت ؟

- انا وحيد

كقطرة المطر العقيم ، انا وحيد ! ⁽³⁾

ويشارك البياتي والملائكة في استخدام رمز " البحر " . فهو عند البياتي " رمز التجوال والسفر " ⁽⁴⁾ ولذلك عد البحر عنوانه ⁽⁵⁾ اما عند نازك فهو رمز الاندياح المطلق واللانهاية ، والتغير والتجدد . ⁽⁶⁾

ومن الرموز السياقية التي استخدمها الرواد يبرز " السور " رمزا للحاجز الذي يحول دون التجاوز حيناً ، وحيناً رمزا للطغيان ، والعممة ، فعند البياتي

⁽¹⁾ حركية الابداع ، د . خالدة سعيد ، 134 .

⁽²⁾ ينظر : قصائده " جيكور والمدينة " و " انشودة مطر و " مدينة بلا مطر " ، 1 / 414 و 474 و 486 على التوالي .

⁽³⁾ ديوانه اباريق مهمشة 1 / 210 . وينظر كذلك : ديوانه 1 / 331 . يأتي ولا يأتي " ، 2 / 11 . وديوانه المجد للاطفال والزيتون 1 / 331 .

⁽⁴⁾ الزمن في شعر الرواد ، سلام كاظم الاوسي ، رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة ، ص 233 .

⁽⁵⁾ ينظر : ديوانه : كتابه البحر ، 2 / 225 .

⁽⁶⁾ ينظر دواوينها : ماساة الحياة واغنية للانسان 1 / 450 ، وعاشة الليل ، 1 / 670 ، ويغير الوانه البحر ، 11 .

يقترن بالليالي ، والدم ، ⁽¹⁾ فهو تحدٍ خارجي لا يقف الشاعر ازاءه سلبيا . وهو عند السياب يأخذ معنى الحاجز ، مرة ، كما هو رمز الاستبداد مرة ثانية . ⁽²⁾ ويكثر بلند الحيدري من استخدام "الصمت" و "الصدى" رمزين للتلاشي ، والضمور ، والخواء . ⁽³⁾

وتتخذ نازك الملائكة من الليل رمزا بدلالتين : فمرة يقتن "بالخيال والاحلام والتوحد والابداع" ومرة اخرى يقتن "بالكآبة ، والموت" كما يقول باحث معاصر . ⁽⁴⁾ وكما انفردت نازك الملائكة برمز الليل ، انفرد بلند الحيدري باستخدام الطاحونة رمزا للقوة القاهرة، الساحقة المميتة. ⁽⁵⁾

وخلقت نازك من الافعوان ، والسمكة ، والسعلاة رموزا لقوى خفية تطاردها كما تابع البياتي قصته مع "عائشة" ليجعل منها رمزا للولادة المنتظرة او الحلم الشاخص . اما عن الرمز : عنصرا سوريا فقد اخترنا السمكة عند نازك وعائشة عند البياتي ، فضاءين للتطبيق عليه ، واستخراج وظيفته الفنية .

⁽¹⁾تنظر : قصائده : الافاق 1 / 343 ، و "الموتى لا ينامون" 2 / 69 ، ميلاد عائشة وموتها في الطقوس والشعائر السحرية المنقوشة باللغة المسمارية على الواح نينوي ، 3 / 135 .
⁽²⁾تنظر على سبيل المثال دواوينه : المعبد الغريق 1 / 146 ، و 1 / 160 ، وانشودة مطر ، 1 / 460 .

⁽³⁾تنظر على سبيل المثال دواوينه : خفقة الطين ، ص 85 و 109 و 214 ، و اغاني المدينة الميتة ، ص 76 ، 109 ، وخطوات في الغربة ، ص 74 ، و اغاني الحارس الممتعب ، ص 26 .

⁽⁴⁾نازك الملائكة في دراسات في الشعر والشاعرة ، رمزية الليل وقراءة في شعر نازك الملائكة، جابر عصفور ، ص 524. ينظر : قصائدها : "في وادي العبيد" و "ثورة على الشمس" و "الغروب" رمز الدلالة الليل الاجابية ، ديوانها عاشقة الليل 1 / 494 ، و 499 و 594 على التوالي .

⁽⁵⁾ينظر : ديوانه اغاني المدينة الميتة ، ص 18 .

السمكة عند نازك رمز لقوة خفية تطاردها ، وهذه القوة قد تكون الزمن ، او المجهول ، او القدر الغشوم ، او الذكريات المحزنة ، او الندم .⁽¹⁾ وهذا الرمز هو رديف رمز "السعلاة" التي ترصدتها في المعبر ورمقت طيفها بفتور .⁽²⁾ ورديف رمز "الافعوان" الذي طاردها وسد عليها كل الطوقات واطل عليها مع ضوء القمر .⁽³⁾ تفتتح الشاعرة القصيدة بمشهد عام هو مجموعة من الصور الشعرية لقصة لقاءها بالحبيب في اصيل القت عليه الشمس الموشكة على المغيب لونَ الدم بينما كانت الاشباح تجوس الظلمة ، ووسط هذه الظلمة ارتسم للنهر والريح وجودا مكثف من "ظنون سوداء" و "مراوح نكراء" . يستغرق هذا المشهد خمسة مقاطع بلقطات احتشدت فيها صور الزهر والافق والشفق ، واوراق الشجر ، والاموج ، الى جانب اطلالة سريعة على الماضي المخدول وطرقه الخربة . ويبدو من الآن ان الشاعرة لم تترك قلبها ينساق مع احلامها / الاوهام في اهتبال لقاء صاف من دون منغصات ، كما ابدعت في وصف عاطفة النفس البشرية المأخوذة بسهر اللقاء :

وهجسنا شيئا منفعلا

في قلبينا ، شيئا ثملا

يلهث عاطفة بعد جمود سنين مرّت في استغراق

وانبجست اشواق وسنى

⁽¹⁾ ينظر : مبحث نازك الملائكة من الفصل الاول في هذا المبحث ، الفقرة الخاصة بـ "قوى المطاردة الخفية" .

⁽²⁾ ديوانها قرارة الموجة 2 / 402 .

⁽³⁾ ديوانها شظايا ورماد ، 2 / 75 .

من احيثنا لونا ... لونا

وتحرك في دمننا معنى

(1) ناري الشوق صلب تواق

في ذلك الجو المزدحم بالغموض والوضوح ، بالسعادة الموهومة ، والشقاء القادم ، وقف العاشقان في الظلمة يحلمان ، ويجركان اطواقا من النجوم والامواج ، ويجربان عالمها بعربات خرافية ، وهنا تبدو ملامح المشهد السعيد حيث "عطر الازهار الخجلات" و "أسلاك الضوء الألاق". ولكن الشاعرة سرعان ما تسوق الصورة النقيضة :

لأيا وتبيننا الحركة

ثمة واذا جثة سمكة

(2) طافية فوق الموجة ميتة والشاطيء في إشفاف

وتبدأ السمكة بالنمو ، والتعملق ، وتستمر الشاعرة في رسم جزئيات هذا العدو الفضاء الذي استغرقه : من الأحداق ذوات اللعنة القاتلة ، والزعانف السود ، والسحائب السود التي حجبت وجه القمر السحري ان ما يميز القصيدة هذا النسيج الدرامي الذي مد "الحركة والتحول والتطور" (3)

فقد بدأ الرمز بهمس يكاد لا يبين ، ثم استحال الى حركة ، ثم تطور الى جثة سمكة طافية ، بدأت تكبر شيئا فشيئا لتنتهي في صورة عملاق خرافي

(1) نفسه ، 2 / 245 - 246 .

(2) نفسه 2 / 247 .

(3) واقع القصيدة العربية ، د . محمد احمد فتوح ، 139 .

مرعب . ان الوعي الباطني هو الذي اهم الشاعر هذا الرمز ، مشبعا بغربة حادة، لذات واعية مهزومة حد الانسحاق .

و "عائشة" عند البياتي رمز فني وانساني ذو وظيفة اساسية في البناء الشعري ، وعائشة في الاساس صبية احبها الخيام في صباه ، ولكنها ماتت بالطاعون ، وقد استدعاها الشاعر "فبدا وجهها من تحت القناع في "الموت في الحياة" وجه شابة كانت قد ماتت منذ ازمنة موعلة في القدم" ⁽¹⁾ وهي كما يرى محيي الدين صبحي "قناع انثوي" . ⁽²⁾ والحقيقة ان قصائد عائشة من قصائد السهرة وليست من قصائد القناع . ⁽³⁾

وفي قصيدة "وسائل الى الامام الشافعي" يقول الشاعر :

تهدل النور على الرياض في "شيراز"

وفتحت ابوابها ، ورفرفت فراشة زرقاء

ناديتها : عائشة !

عائشة ! لكنها لم تسمع النداء

ولم تر العاشق جحيمة يزحف نحو النار

منتظرا في آخر الابواب ⁽⁴⁾

⁽¹⁾ تجريبي الشخصية ، 2 / 107 .

⁽²⁾ الرؤيا في شعر البياتي ، هامش الصفحة 194 .

⁽³⁾ في قصيدة القناع يقول الشاعر كل شيء من خلال الشخصية التي يتقصها ويتحد بها دون اعتماد على صوته الذاتي ، وفي قصيدة السيرة يتحدث الشاعر نفسه عن بطله . ينظر :

دير الملاك ، د . محسن اطيّمش ، 103 و 108 .

⁽⁴⁾ ديوانه ، قصائد حب على بوابات العالم السبع ، 3 / 69 .

صورة موحية ترسمها العلاقات الخاصة التي اتقن البياتي اقامتها بين الكلمات : شيراز يغمرها النور ، تفتح ابوابها العائشة التي بعثت بصورة فراشة زرقاء ، يهرع اليها الشاعر او الخيام ولكنها لا تأبه له ، لان انبعاثها كان حلما اكثر مما هو حقيقة ، ولكن الشاعر يظل ينتظر على الرغم من الجحيم الذي يزحف فيه . وفي "مجنون عائشة" يرسم الشاعر لوحة اخرى لعائشة وهي تطوف حول الحجر الاسود باكفانها :

خبات وجهي بيدي

رأيت

عائشة تطوفُ حول الحجر الاسود في اكفانها

وعندما ناديتها : هوت على الارض

رماداً ، وانا هويت

فنشرها الريح

وكتبت اسماءنا جنبا الى جنب على لافتة الضريح⁽¹⁾

لنلاحظ التضاد ، اكفان عائشة البيض ، والحجر الاسود : انه الامل الى جانب اليأس ، والحياة بازاء الموت . وفي القصيدة ايجاء الى ان الشاعر وعائشة كانا في الصحراء ، في الزمن العربي القديم فعائشة هي التي "فتحت للبدوي وهو في غربته الابواب" ، ثم هما معا يبحثان "في المعنى عن المعنى ، وفي شعر الخروج" حيث لم يجدا "بوابة البستان" بل وجدا

... خيام الحب في الصحراء

(1) نفسه : 3 / 94 .

منهوبة ، والبدوي حولها يداعب الرباب (1)

لقد دخلا ، اذن ، العصر العربي الحديث وهما في منفاهما فقد حدثته بذلك بعد مبارحتهما متحف اللوفر . ويتكرر طيف عائشة في قصيدة "ميلاد عائشة وموتها" (2) فتحدث الشاعر عن قصة حبها مع آشور بانيبال الذي احبها "وبنى من حولها الاسوار" ولكنها لم تبادله الحب لانها تكره القسوة والقهر اللذين اتسم بهما سلوك ذلك العاشق ، وبذلك ينتهي مصيرها الى ان تباع "في سوق الرقيق" حاملة "بالقرنفل الاحمر في حدائق الفرات" .

ولقد كان رمز عائشة صرح هذا البناء الشعري الحافل بالصور ، والاشارات ، والمواقف التي استطاع البياتي من خلالها ان يبعث الروح التي افتقدتها الشوق في الارض "التي فقدت عذوبتها" (3) .

التشكيل بالقناع :

يقول البياتي عن القناع "هو الاسم الذي يتحدث من خلاله الشاعر عن نفسه متجردا من ذاتيته ، اي ان الشاعر يعتمد الى خلق وجود مستقل عن ذاته ، وبذلك يتعد عن حدود الغنائية والرومانسية التي تردى اكثر الشعر العربي فيها" (4) فالقناع على وفق هذا التوصيف "شخصية فنية مؤمثلة بحيث تكون عناصرها حوامل للحقيقة المجاز" (5) وشعراؤنا الرواد هم الذين اسسوا هذا القناع ،

(1) نفسه : 98 / 3 .

(2) نفسه ، 135 / 3 .

(3) سهرة الرماد ، د . وفيق رؤوف ، 116 .

(4) تجربتي النفسية ، 37 / 2 .

(5) الرؤيا في شعر البياتي ، محيي الدين صبحي ، ص 10 .

ولعل قصيدتي بدر شاكر السياب تموز جيكور ، و المسيح بعد الصلب ، هما البدايات الناضجة الاولى لفكرة القصيدة القناع ⁽¹⁾ .

على ان البياتي حقق في القناع مستوى نوعيا رفيعا بسبب تطوافه الدائم في العالم ، وفي مدن التاريخ ، وطقوس الحضارات ، ونزعته المغامرة في التجريب ، مما افصح فيه "عن روح درامية متأزمة تقيم حوارا مع العالم ، وتتمثل في اساليب متطورة ، وقصائد تتخذ لها دورات متعاقبة ، وتتطلع دوما الى اشكال من التعبير تسابق الزمن في تجددتها المستمر" ⁽²⁾ . وهنا نستطيع ان نقول مع الدكتورة احسان عباس ان "البياتي كان اسبق المجددين الى تغيير طبيعة المحتوى في ذلك الشكل" ⁽³⁾ .

والحلاج ، شاعرا ومفكرا وانسانا ، ينتمي الى التراث الصوفي الذي استلهمه الشعر المعاصر لما فيه من ثيمات ثورية خاصة عند المتمردين والعشاق منهم .

ولا شك في ان بين البياتي والحلاج خصائص مشتركة فكلاهما شاعر ، تغرب ، وحورب ، وكلاهما ثوري النزعة ، ⁽⁴⁾ وقصيدة "عذاب الحلاج" تتكون من ستة مقاطع : في المقطع الاول "المريد" نسمع صوتين هما في النهاية صوت واحد ، صوت المريد وصوت البياتي ولكننا نستطيع ان نميز خيطا شفافا بينهما :

⁽¹⁾ دير الملاك ، د . محسن اطيّمش ، ص 105 .

⁽²⁾ الشعر والزمن ، د . جلال الخياط ، 103 - 104 .

⁽³⁾ اتجاهات الشعر العربي المعاصر ، د . احسان عباس ، ويريد بالشكل الجديد الشعر الذي اشترك في ريادته نازك الملائكة وبدر شاكر السياب .

⁽⁴⁾ وصف لويس ماسنيون الحلاج بانه "نزاع الى الثورة" ينظر : شخصيات قلقة في الاسلام ، ص 67 .

سقطت في العتمة والفراغ

تلطخت روحك بالاصباغ

شربت من آبارهم

اصابك الدوار

تلوثت يداك بالخبر وبالغبار⁽¹⁾

ربما يكون هذا صوت الشاعر البياتي ، او صوت الأنا الأخرى للحلاج ،
وقد يكون الصوت الروح الكوني اتصل بالحلاج . واذا تلقى الحلاج هذا
العتاب / الاتهام فانه يتكلم مدافعا عن نفسه :

يا ناحرا ناقتة للجار

طرقت بابي بعد أن نام المغني

بعد ان تحطم القيثار

من أين لي ؟ وانت في الحضرة تستجلي

واين انتهي وانت في بداية انتهاء ؟⁽²⁾

تلك احدى لحظات التجلي عند الصوفي وهو يتحسس خطاه حين التمس
الحقيقة بالوسيط "الخبر والغبار" ، وحين شرب من آبار الغير ولم يحفر بئره
بنفسه ، ولذلك كان متهما بنظر الصوت الاول⁽³⁾ . وفي المقطع الثاني "رحلة
حول الكلمات" ينفرد الحلاج بالتحدث :

⁽¹⁾ ديوانه ، سفر الفقر والثورة ، 2 / 145 .

⁽²⁾ المكان نفسه .

⁽³⁾ كان الحلاج يحب الله "والله اكبر من ان يحب" ، وحكم باهدار دمه ، فاستخفى زمنا ، ثم
سجن ، ولما اخرج من سجنه ليصلب عرف انه كان مخبول المطامع فأنشد يقول :

ما أوحش الليل اذا ما انطفأ الصباح

واكلت خبز الجياع الكادحين

زمرّ الذئاب

وخرّبت حديقة الصباح

(1) السحب السوداء والامطار والرياح

الحلاج في النص يعلن عن رفضه الواقع ، وهي البداية لاعلان الثورة ،

ثم يستمر :

يا مسكري بحبه

مخيري بقربه

يا مغلق الابواب

الفقراء منحوني هذه الاسمال

وهذا الاقوال

فمدّ لي يدك عبر سنوات الموت والحصار

نديمي غير منسوب الى شيء من الحيف
سقاني مثل ما يشرب فعل الحر بالضعيف
فكلما ارت الكأس دعا بالنطع والسيف
كذا من يشرب الراح مع التين في الصيف
فكان ذلك اعترافا منه بانه جهل قدر نفسه حين ارتضى ان يكون نديما للمحبوب القهار .
ينظر : التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق ، الدكتور زكي مبارك 1 / 183 - 184 .
(1) ديوانه ، سفر الفقر والثورة 2 / 146 .

والصمت ، والبحث عن الجذور والآبار ⁽¹⁾

الحلاج يشير للفقراء وذلك يعني شروعه في الثورة من اجلهم "الفقراء منحوني هذه الاسمال / وهذه الاقوال" ، والبياتي استخدم بعض اقوال الحلاج:

يا مسكري بحبه / محيري بقربه ⁽¹⁾

مما يعني ان الشاعر كان يعيش جو التصوق او جو مصطلح على اقل تقدير .

وقول الحلاج في النص :

فمَدَّ لي يدك عبر سنوات الموت والحصار

هو صوت البياتي نفسه ، وصرخته من اجل الخروج من سنين غربته ، كما انه في الوقت نفسه نداء الحلاج لاقتحام المجهول من اجل المحبوب . وفي المقطع الثالث "فسيفساء" يعرض الحلاج جانبا من حياة السلطان : فهذا مهرجه يحب ابنته ، وتشغف هذه باعمال المهرج ، ثم تموت ، فيصاب المهرج بالغم ، ويرى ان مهمته في القصر ستكون غير ذات جدوى برحيل الأميرة ، ولذا فقد جن بعد موتها ، ولاذت بالصمت "والحلاج يأخذ الوجه الآخر من هذا العبث، اي ركوب الجد وهو ما سيقوم عليه في المقطع الرابع "المحاكمة" :

بحثُ بكلمتين للسلطان

⁽¹⁾ نفسه 2 / 148 .

⁽²⁾ قال الحلاج : يا من اسكرني بحبه ، وحيرني في ميادين قربه
ينظر : اخبار الحلاج ، تحقيق ماسنيون وكراوس ، ص 17 ، نقلا عن الرؤيا في شعر البياتي، محيي الدين صبحي ، 140 .

قلت له : جبانٌ

قلت لكلب الصيد كلمتين⁽¹⁾

وبذلك يتجاوز التردد ويرد على الاتهام الذي وجه اليه : فقد قذف
السلطان ونام مستريحاً بانتظار الصلب . وفي المقطع التالي يقدم الشاعر صوراً
حسية من العناق ، والتحدث ، والباس التاج ، ومد الذراع كما يقدم صورة
حسية أخرى لعملية الصلب :

واندفع القضاة والشهود والسياف

فاحرقوا لساني

ونهبوا بستانني

وبصقوا في البئر يا محيري

ومسكري

وطردوا الأضياف .

وفي المقطع الأخير "رماد في الريح" نرى الى لوحات تشكيلية لتقطيع
اوصال الحلاج ، واحراقها ، ونثرها في الريح ، وانتهاب اوراقه واشواقه .
وهكذا يصور الشاعر ، من خلال اسقاط وضع الحلاج على حاله ، اغترابه وما
يعانيه في تعامله مع الوسط الذي يعيش فيه .

⁽¹⁾ ديوانه ، سفر الفقر والثورة 2 / 148 .

الفصل الرابع

البنية الاليقاعية

عضوية الموسيقى :

مما لا شك فيه ان للصورة الشعرية الأثر الكبير في بنية القصيدة الفنية ، لانها أداة خطيرة بيد الشاعر ، وفيها يكمن سر شاعريته . ولكن هذه الأداة لا يمكن بأي شكل من الاشكال ان تنهض بمهمات من غير أن تتأزر معها وسيلة أخرى من وسائل التعبير الشعري تلك هي الموسيقى .

ان تقرير مثل هذا القول ليس جديدا ، فقد بات اكيدا في تراثنا النقدي ان الصورة والوزن هما مصدرا الشعرية ، وهذا ما اكده ابن سينا حين ذكر في كتابه "الشفاء" ان الشعر هو ذلك الذي يجتمع فيه القول المخيل والوزن⁽¹⁾.

فمن "هاتين العلتين تولدت الشعرية"⁽²⁾ وهو ما يؤمن به النقد الحديث . يقول ماكس آيتمان : "ان المبدئين الرئيسيين الناظمين للشعر هما الوزن والمجاز، فهما متلاحمان ينبع احدهما من الآخر"⁽³⁾ . فمثل هذا التلاحم القائم بين الصورة والوزن ، نابغ من أن التوهج الانفعالي قادر على استدعاء الالفاظ المنسجمة موسيقيا معه ، ومعنى ذلك ان الشاعر ، من دون وعي مسبق ، ربما قادر على الاتيان بالالفاظ المتوازنة موسيقيا لاقامة التجربة الشعرية .

ان اتحاد الصور الشعرية بمختلف اغماطها بالصورة السمعية ، يقود الى مغادرة اللحظة الشعرية الواعية الى لحظة شعرية غير واعية . اي ان الامتزاج

⁽¹⁾ فن الشعر ، ارسطو طاليس ، 168 .

⁽²⁾ نفسه ، 172 .

⁽³⁾ الصورة الفنية في شعر ابي تمام ، د . عبد القادر الرباعي ، 223 .

الكامل بين اخطر اداتين " الصورة + الموسيقى " يقود الى دلالات يفيد منها الناقد لسبر غور اللغة العميقة من خلال الانحراف عن اللغة الاعتيادية أو السطحية ، ومن هنا ندرك اهمية الموسيقى في نقل القيمة التعبيرية / التصويرية الى المتلقي .

وتأسيساً على هذا الفهم ، فان اللغة الشعرية من دون موسيقى تظل دائرة على محور ثابت . والشعر - بأدواته جميعا - بحاجة الى حوار دائم مع النص ، ومع المتلقي في آن واحد . ولا نبالغ اذا قلنا ان الوزن - كما تذهب نازك الملائكة - " هو الروح التي تكهرب المادة الادبية وتصيرها شعرا ... فلا شعر من دونه مهما حشد الشاعر من صور وعواطف ، لا بل ان الصور والعواطف لا تصبح شعرية بالمعنى الحق الا اذا لمستها اصابع الموسيقى ونبض في عروقها الوزن " ⁽¹⁾ ، ولذلك عدت الوزن سحرا فاعلا في النص ، وفي الوظيفة : " ان الوزن هزة كالسحر تسري في مقاطع العبارات تكهربها بتيار خفي من الموسيقى الملهمة . وهو لا يعطي الشعر الايقاع فحسب ، وانما يجعل كل نبرة فيه اعمق واكثر اثارة وفتنة . ولذلك كان الشعر مؤثرا بحيث كان القدماء يعدونه ضربا من السحر يسيطر به الشاعر على الجماهير " ⁽²⁾ لان الوزن " خلق مسافة توتر بين المكونات اللغوية العائمة في وجودها العادي خارج الشعر ووجودها داخله " ⁽³⁾ ومن دونه " نرى لغة الشعر تنحط تدريجيا الى ما ليس بلغة شعر " . ⁽⁴⁾

إن الشاعر " حين تعثره الحالة الشعرية يصبح ذهنه مشحونا بالموسيقى . وهذه الموسيقى تجعل الالفاظ تنبعث في عقله الباطن وترفع الى سطحه عشرات

⁽¹⁾ قضايا الشعر المعاصر ، 238 .

⁽²⁾ نفسه ، 225 .

⁽³⁾ في الشعرية ، د . كمال ابو ديب ، 89 .

⁽⁴⁾ قواعد النقد الادبي ، لاسل أبر كرمي ، 44 .

الكلمات المطموسة المعالم مما رقد في الذهن الجماعي للأمة وبعثته موسيقى الحالة الشعرية .

وطبقا لهذا الفهم ، فإن البنية الموسيقية يجب ان تؤدي وظيفتها في التجربة الانفعالية تعبيرا وتوصيلا . بمعنى ان الموسيقى تسهم اسهاما فاعلا في احلال الدلالة في قضاء منفتح على التجربة الشعرية .

بازاء هذه القيمة الفنية لموسيقى الشعر ، يمكن ان ندرس نمطين من الموسيقى في الشعر : الاول الموسيقى الخارجية التي تعتمد على الصورة الزمنية " التفعيلة " ، والثاني الايقاع الداخلي الذي يفعل فعله في الموسيقى الخارجية من اجل توحيد القصيدة .

لا شك في ان للايقاع الداخلي وقعا صوتيا على الاذن الامر الذي يؤدي الى تثبيت حالة شعورية تكون قد نهضت بالاستناد الى قيمة تعبيرية معتمدة على الفاظ . وهذه الالفاظ هي من التقاط تلك الحالة الانفعالية . وعلى هذا الأساس تكون النفس - وقت التجربة الشعرية او تمثلها - قد غاصت في مساحة واسعة من الالفاظ فاجتذبت اليها ما يشكل المواءمة . وتأسيسا على ذلك ، فان القيمة الايقاعية تجيء من الاشتغال الفاعل مع النشاط الذي تحدثه النفس التي انفعلت فاطمأنت ثم كتبت القصيدة ، ووظيفة ذلك الاشتغال تنطلق من الوجدان الذي يحطم الرؤية البصرية والسمعية ليبنى بناء جديدا " الصورة + الصوت " وصولا الى البلاغ الشعري .

ان ما يراد بالايقاع الداخلي تلك الاحساسات الخاصة بالاصوات ، والالفاظ والتراكيب ، بحيث تكون مؤثرة في النص وقادرة على خلق الدلالات الجديدة التي تنطلق من سياق خاص . وفي هذا فهم مدرك لجماليات التجاوز

والتباعد من خلال "رؤية سمعية" تؤلف تأليفا جديدا ، بحيث يسمع الشاعر فيها ما لا يسمعه الآخرون . ومعنى ذلك ان مثل هذا التأليف يتعد عن الصورة الزمنية للتفعيله التي تشكل صورة الوزن الشعري او البحر الشعري ، وتلك مسألة شاقة لا تشرب فيها إلا أعناق الشعراء التي استندت الى الموهبة والتحصيل المكتسب . غير انني يجب أن اشير الى مسألة مهمة هي أن تحقيق مثل هذا الايقاع قد لا يخضع الى تخطيط مسبق ، وانما يرتبط بحركة الآن التي توجه الانفعال . لأن الشاعر الحق "يستطيع ان يستعمل الالفاظ استعمالا ناجحا ولكنه لا يدري كيف تتم العملية" .⁽¹⁾ ان مثل هذا الاستعمال الناجح يؤدي دورا بارزا في تحقيق البناء الموسيقي . وهذا الدور يتمثل "في التعبير والتلقي للشحنات الانفعالية التي هي مجال العمل الشعري" ،⁽²⁾ وفي هذا قدرة على خلق الاستجابة ، وشد المتلقي ، ومن ثم خلق قاعدة دلالية تنهض من سياق خاص يرتبط أساسا بالانفعال والعاطفة .

تكرار الاصوات :

ان قارئ شعر الرواد ، وهو يستلهم تجربة الغربة باشكالها المختلفة ، يجدهم يتوسلون بوسائل كثيرة من اجل تحقيق ايقاع منسجم والتجربة ، ومن هذه الوسائل تكرار الاصوات :

يقول بلند الحيدري في قصيدته "أرض مرة"

من يدري ؟

قد نرحل عند الفجر

⁽¹⁾ العلم والشعر ، رتشاردز ، 31 .

⁽²⁾ لغة الشعر العربي الحديث ، د . السعيد الورقي ، 209 .

لا تقلق

مرساة

لا تبدر

بذرة

فالأرض هنا صماء كالصخرة

عمياء كالصخرة⁽¹⁾

الشاعر كرر في النص صوت "الراء" تسع مرات ، الأمر الذي اشاع ايقاعا استطيع تسميته "ايقاعا اهتزازيا" . وأقصد بذلك ان الايقاع المتولد من هذا الصوت اشاع نوعا من الايقاع القادر على التردد بين درجتين : الانخفاض والارتفاع الأمر الذي ادى الى انسجام الدلالة الاغترابية مع الخطاب الذاتي الذي تشكل على نحو حوار داخلي "منلوج" .

ويقول بلند في قصيدة "وحدتي" مكررا "الميم" ، و "النون" ، و "التاء" :

هكذا انت تموت

قفرة جرداء لم تحلم بنبت

قفرة جرداء كالحخية

كالخية أنت⁽³⁾

هنا يتكرر صوت "النون" ست مرات وصوت "الميم" ثلاث مرات ، وصوت "التاء" تسع مرات . ان تكرار "النون" وضعف تكرار "الميم" هو الذي اشاع غنة ايقاعية في طقس الانفراد والوحشة ، كما ان تكرار "التاء" — وهو

(1) ديوانه : خطوات في الغربة ، 32 .

(2) ديوانه : اغاني المدينة الميتة ، 45 .

صوت مهموس - بزيادة ثلاث مرات على صوت النون وست مرات على صوت الميم يشكل جوا هامسا للدلالة على الاعماق الخاوية التي تثير عتيا يصل الى حد الوخز ، وبذلك تحقق الايقاع المطلوب .

وتراوح نازك الملائكة بين صوتي "السين" و "الشين" بطريقة 1:2 فغيابها ثم 2 ، فتعود الى 1:2 . تقول في قصيدتها "الى العام الجديد" :

يا عام لا تقرب مساكننا فنحن هنا طيوف

من عالم الاشباح ينكرنا البشر

ويفر منا الليل والماضي ، ويجهلنا القدر

ونعيش اشباحا تطوف

نحن الذين نسير لا ذكرى لنا

لا حلم ، لا أشواق تشرق ، لا منى ⁽¹⁾

ان ايقاع الصوتين المهموسين "السين والشين" استطاعا ان يشيا بدلالة ترتقي في احضان الوحدة والغربة ، ومثل ذلك الترتيب الايقاعي قاد الى تحويل الانفعال الى طاقة صوتية هامة تمتاز بالجهود - كما يقرر علماء الأصوات - او انها مجهدة للتنفس ، لأننا نحتاج الى كمية من هواء الرئتين اكبر مما تتطلبه الاصوات المجهورة . ⁽²⁾

ويستعمل السيّاب اصوات "العين" و "الغين" و "الحاء" بتداخل فيحس المتلقي بالاثّر الجلي للايقاع الداخلي . يقول في قصيدته "الباب تفرعه الرياح" :

⁽¹⁾ ديوانها : قرارة الموجة ، 2: 251 .

⁽²⁾ ينظر : موسيقى الشعر ، د . ابراهيم انيس ، 27 .

الباب ما قرعته غير الريح ...

آه لعل روحا في الرياح

هافت تمر على المراقيء أو محطات القطار

لتسائل الغرباء عني ، عن غريب أمس راح⁽¹⁾

إن اشتغال صوت "العين" خمس مرات ، ومثله صوت "الحاء" بإزاء ثلاثة ترددات لصوت "الغين" ، اسهم اسهاما واضحا في تصعيد الطبقة الایقاعية ، فالصوتان المتماثلان في العدد - الحاء والغين - ينطلقان من أقصى الحلق وهي هنا إشارة الى مدى ما يكابده السياب من آلام الغربة الممضة. وإذا ما احتجنا الى تخطيط مثلناه بما يأتي :

1. ع غ ح

2. ع ح ح

3. ع ح

4. غ ع ع غ ح

= 5 ع 3 غ 5 ح

غير ناسين الأثر الذي يحدثه الشطر الرابع في ترتيب صوتي "الغين" و "العين" وانتهائه بصوت "الحاء" .

ويكرر عبد الوهاب البياتي صوت "لا" في قصيدة "مسافر بلا حقائب" :

من لا مكان

⁽¹⁾ ديوانه : شناسيل ابنة الجليبي ، 1 : 615 - 616 .

لا وجه ، لا تاريخ لي ، من لا مكان
تحت السماء ، وفي حويل الريح ، اسمعها
تناديني : " تعال !"
لا وجه ، لا تاريخ ... اسمعها تناديني :
" تعال ! " (1)

إن تردد " لا " خمس مرات ، له أثر ايقاعي في الجملة الشعرية . ومن أجل
التركيز على النفي - وهو غربة مكانية - حشد هذا الصوت ليكون إلحاحا على
نفي المكان الذي ينفي " الوجه " ثم " التاريخ " .
أصوات المد :

وأصوات المد من الاساليب الايقاعية التي تحدث أثرا موسيقيا ، لانها -
كما يقول علماء الاصوات - تسهم في مد النفس " إذ انها ... اطول من
الاصوات الساكنة " . (2)

تقول نازك الملائكة في قصيدة " في جبال الشمال " :

عد بنا يا قطار
فالظلام رهيب هنا والسكون ثقیل
عد بنا فالمدى شاسع والطريق طويل
والليالي قصار

(1) ديوانه : اباريق مهمشة ، 1 : 168 .

(2) الاصوات اللغوية ، د . ابراهيم انيس ، 154 .

عد بنا فالرياح تنوح وراء الظلال

وعواء الذئاب وراء الجبال

كصراخ الأسي في قلوب البشر

عد بنا فعلى المنحدر

شبح مكفهر حزين⁽¹⁾

ان تراكم مثل هذه الاصوات في الصورة الشعرية للقصيدة ، من شأنه ان يشكل ايقاعا يحس نبض الحالة النفسية التي ركزت على غربة مكانية لا تطيقها الشاعرة . والتعبير عن السأم تمثله النص من خلال امتداد هذه الاصوات ، الأمر الذي اشاع ايقاعا ذا حركة متثاقلة وبطيئة تنسجم مع بطء الحالة الآنية التي كانت تسكن الشاعرة ، هذا فضلا عن الأثر الموسيقي المتباطيء الناشيء عن القافية المقيدة .

ويتوسل بلند الحيدري بصوت التضعيف في قصيدته "الخطوة الضائعة" :

كان الشتاء يحز أرصفة المحطة

وللرياح هواء قطرة

يهتز فانوس عتيق

فيهز قرينتنا الضئيلة

ماذا سأفعل في المدينة⁽²⁾

⁽¹⁾ ديوانها : شظايا ورماد ، 2 / 124 .

⁽²⁾ ديوانه : اغاني المدينة الميتة ، 96 .

التضعيف الصوتي ، هنا ، في افعال تدل على الحاضر . والحاضر به وقع خاص في وجدان الشاعر ، فجاءت تلك الصيغ الصوتية "يحز - يهتز - فيهز" لتشمل مساحة زمنية صوتية واحدة ذات نهايات مدببة تتمثل بصوت الحاء والزاي تتردد بين صوت الهمس "الحاء" والجهر "الزاي" ، وبذلك يتوتر الايقاع مع توتر التجربة الشعرية .

التدويم :

ويتوسل السياب بالتدويم ... ويقصد بالتدويم "تكرار النماذج الجزئية والمركبة بشكل متتابع او متراوح بغية الوصول الى درجة عالية من الوجد الموسيقي" .⁽¹⁾ يقول في قصيدة "جيكور والمدينة" :

وتلثف حولي دروب المدينة

حبالا من الطين يعضن قلبي

ويعطين ، عن جمرة فيه ، طينة

حبالا من النار يجلدن عري الحقول الحزينة

ويحرقن جيكور في قاع روحي

ويزرعن فيها رماد الضغينة⁽²⁾

هنا استخدم السياب صيغة لغوية هي : "يفعلن" اربع مرات ، الأمر الذي أدى الى تحقيق تدويم موسيقي ملحوظ يقود الحاحه الى الضيق الذي تنشره "دروب المدينة / الحبال" حول السياب .

⁽¹⁾ ظواهر اسلوبية في شعر شوقي ، صلاح فضل ، مجلة فصول ، ع2 ، يوليو 1981 ، ص 211 .

⁽²⁾ ديوانه : انشودة مطر ، 1 / 414 .

ويستثمر بلند الحيدري تكرار الجملة لتحقيق الايقاع الداخلي . يقول في قصيدته " الخطوة الضائعة " :

ماذا سأفعل في المدينة ؟..

وسألتني :

(1) ماذا ستفعل في المدينة ؟

إن تشكيل لقطة الحوار الداخلي في الجملة الاولى يؤدي الى تثبيت اللا جدوى المنبعث من التكرار للمدينة حيث تضعي الخطوات ، من هنا يجيء الالتفات الايقاعي في الجملة الثانية التي استبدلت " ستفعل " بـ " سأفعل " التوكيد الصوت الداخلي . وبذلك اسهم الايقاع في قراءة الهمس الداخلي للشاعر الذي يتضاد مع المدينة .

التوقع القافوي :

ويتوسل السياب بما يمكن ان اسميه " التوقع الايقاعي القافوي " المقصود به ان الشاعر احيانا يوحى الى المتلقي بتوقع مجيء قافية ما من خلال السياق الذي اشاعه ، يقول السياب في قصيدة " ليلة في باريس " :

وذهبت فانسحب الضياع

(2) أحسست بالليل الشتائي الحزين ، وبالبكاء

ان انسحاب الضياء هو المولود للبكاء ، والملحظ ان ايقاع هاتين الصورتين يتشكل من " الكامل " وبتوزيع 2: 4 اي ان الشاعر من اجل اقامة هذا الايقاع جاء بتفعيلتين في الشطر الاول ثم بأربع تفعيلات في الشطر الثاني .

(1) ديوانه : اغاني المدينة الميتة ، 96 .

(2) ديوانه : شناسيل ابنة الجلبي ، 1: 621 .

ومثل ذلك في قصيدة "اختناق" لبلند الحيدري :

رغم الغد المفتوح في الأفق

أحس بي

سأختنق⁽¹⁾

"فالاختناق" يتضاد مع "الأفق" على الرغم من الانفتاح على الغد ، وهو هنا بنية مفارقة ، الأمر الذي أدى الى تصعيد في البنية الايقاعية وصولا الى هبوطها بما ينسجم والاختناق . ولعل توزيع التفعيلات على نحو 3: 1: 1 ، قد اسهم في بلورة ما ذهبت اليه .

تكرار التخصيص :

في قصيدة البياتي "الليل والمدينة والسل" يسجل الشاعر صورة ايقاعية اخرى لموقفه المتضاد من المدينة مع اعترافنا أنها اكثر التصاقا بموقفه المنتمي المنفي ، ففي هذه المرايا لم تعد المدينة وحشا ضريرا يتخبط ليصرع الطيبين وأجساد النساء فحسب ، وانما عادت ذات دورة حياتية منتظمة تبدأ من الولادة وتنتهي الى العدم ، ولذلك عمد الشاعر الى التضاد والى ما يمكن تسميته "تكرار التخصيص" وتكرار الفاظ بعينها . يقول :

في ليالي الموت والخلق

وفي الاعماق اعماق المدينة

لم تنزل كاهرة السوداء

⁽¹⁾ ديوانه : رحلة الحروف الصفر ، 57 .

كالأم الحزينة
تلد الأحياء في صمت
وأعماق المدينة
تبصق الموتى على الارصفة الغبر السخينة
في ذراع الليل ، ليل السل ،
كالأم الحزينة
لم تنزل تبصق آلاف المساكين : المدينة
في مقاهيها ، وفي حارتها السود اللعينة
وعلى اشجارها الصفرة الدميمة
يولد الخوف ، كما تولد في أعماقها السفلى
الجريمة ⁽¹⁾

إن جو الإسقاطات النفسية على المدينة هو الذي هيأ إيقاعاً ترجم الموقف التعبيري ، فجاء هذا التضاد (الموت والخلق) وتكرار التخصيص : (الأعماق أعماق المدينة) ، و (ذراع الليل ليل السل) ، وتكرار الفاظ بعينها : (المدينة) و (لم تنزل) ، و (تبصق) ، و (يولد ، تولد ، تلد) وفي هذا اشباع لقيمة إيقاعية .

تردد النسق الإيقاعي :

وتتوسل نازك الملائكة بما أسميه (تردد النسق الإيقاعي) وأقصد بذلك أن القيمة الإيقاعية للصورة الشعرية تتأثّر من تردّد عبارات بعينها مع بعض التحوير الناتج من الحذف والإضافة . تقول في قصيدة " في جبال الشمال " :

⁽¹⁾ ديوانه : يوميات سياسي محترف ، 1 : 428 - 429 .

شبح الغربة القاتلة

في جبال الشمال الحزين

شبح الوحدة القاتلة

في الشمال الحزين⁽¹⁾

فالتردد الایقاعي متناظر في (شبح الغربة القاتلة) و (شبح الوحدة القاتلة) ، مع استبدال (الغربة) بـ (الوحدة) وحذف الخافض ، وكذلك التردد حاصل (في جبال الشمال الحزين) و (في شمال الحزين) بعد حذف (جبال) مما اشاع ايقاعاً سكونياً هو عبارة عن صدى (ايكو) حوار النفس سرا وعلانية .

وثمة وسيلة أخرى تلجأ إليها نازك الملائكة ، هي إلباس التفعيلة الاولى ما يناسبها ايقاعاً من دون ان تكمل الكلمة ، والملاحظ ان مثل هذا الإلباس يقف على صوت المدّ . تقول نازك في قصيدتها " في جبال الشمال " :

وهناك همس عميق

لائع خلف كل طريق

في شعاب الجبال الضخام

ووراء الغمام

في ارتعاش الصنوبر ، في القرية الشاحبة

في عواء ابن آوى ، وفي الأنجم الغاربة

في المراعي هناك صوت شرود⁽²⁾

(1) ديوانها : شظايا ورماد ، 2 \ 125 .

(2) نفسه ، 2 \ 126 .

فالإيقاع قد استحوذ على التفعيلة من خلال (في شعا ، في ارتعا ، في عوا ، في المرا) ووزنها (فاعلن) ، وتدويمها على مساحة اربع تفعيلات من شأنه ان ينهض بالإيقاع الداخلي .

تجزئة الوزن :

وقد ينشأ الإيقاع الداخلي من خلال تجزئة الوزن حيث يصبح هذا التجزئي وقفات يكون التوقف عليها منسجما مع التقطيع الصوتي . وفي هذا التوقيع الصوتي وحدات إيقاعية هي ليست إيقاع القصيدة بمجموعها ؛ غير أننا بضم الإيقاع العروضي الى بعضه فان الوزن يبرز من جديد ، وطبقا لتلك الوقفات يتنوع الإيقاع . يقول السياب في قصيدته (امام بيت الله) : ⁽¹⁾

أصرخ في الظلام أستجير

فاعل فاعلات فاعلان

مستعلن متعلن فعول

يا راعي النمل في الرمال

مستعلن فعول فاعلان

مستعلن متعلن فعول

وسامع الحصاة في قرارة الغدير

متعلن فعول فاعلن متعلن

متعلن متعلن متعلن فعول

⁽¹⁾ ديوانه : المعبد الغريق 1 : 135 .

فمثل هذا التقطيع يؤدي الى نشوء ايقاع جديد ، ولكن عند ضم التفعيلات الى بعضها نجد انها تنتمي الى (الرجز) .

موسيقى الاطار :

لحظنا في الصفحات التي مرت بنا الجانب المتحقق من الايقاع الداخلي . وفي هذه الصفحات الآتية سنتعرف على مدى ما حققته الأوزان الشعرية - موسيقى الاطار - من دلالات شعورية تتوافق مع الانفعال الذي تثيره التجربة الشعرية ، بوصف المدرك الصوتي ، - ونحن نتحدث هنا عن الموسيقى الخارجية - والصورة الشعرية كعنصرين يعملان على تحويل القيمة الانفعالية الى قيمة تعبيرية .

إن الذي لا نشك فيه هو أن "للوزن رغم شكلية الخارجية قيمة انفعالية هامة تتعلق بتخدير الحواس من الناحية الفسيولوجية ، كما أنه يرتبط بالاحاسيس الفطرية لدى الانسان وما يتصل بها من تفريج بايولوجي ، مما يجعل من الشعر التعويض الضروري والحيوي لتوترات انفعالية كثيرة " .⁽¹⁾ وطبقا لذلك فإن الوزن ليس زينة تتزيّن بها القصيدة ، بمعنى آخر ان الوزن ليس قالبا جامداً مفروضاً على القصيدة من الخارج ، بل ان الوسائل التعبيرية الفنية ، وبضمنها الوزن ، تولد في لحظة الخلق . على اساس هذا الفهم فان الباحث لا يُقرّ بتلك الآراء التي سلكها بعض النقاد العرب القدامى والمحدثون ، حين ربطوا بين الوزن والموضوع الشعري . يقول ابن طباطبا مثلاً إنّ الشاعر حين يريد "بناء قصيدة مخض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثراً وأعدّ له ما يلبسه اياه من الألفاظ التي تطابقه والقوافي التي توافقه ، والوزن الذي يسلس له القول

⁽¹⁾ لغة الشعر العربي الحديث ، د . السعيد الورقي ، 209 .

عليه ⁽¹⁾ " وهذا حازم القرطاجني يرى ضرورة "أن تحاكي ... المقاصد بما يناسبها من الأوزان فإذا قصد الشاعر الفخر حاكي غرضه بالأوزان الفخمة الباهية الرصينة ، وإذا قصد في موضع قصداً هزلياً أو استخفافياً وقصداً تحقير شيء أو العبث به حاكي ذلك بما يناسبه من الأوزان الطائشة القليلة البهاء ، وكذلك في كل مقصد " ⁽²⁾ .

ان النظرة الصحيحة يجب ان تطلق من كون الأوزان العربية وسائل صوتية قادرة على ترجمة العواطف والانفعالات المختلفة بما يتوافق والتجربة ، وعلى هذا الأساس ، فان المحاولات النظرية التي قالت بالربط بين الوزن والموضوعات الشعرية لا تخلو من تعسف .

ان رفض تلك الآراء يتأتى من ان "حركة الوزن حركة آنية لا تنفصل عن حركة المعنى أو تعقبها . ان الشاعر يفكر في مستويات التجربة وأبعادها تفكيراً آتياً لا انفصام بين عناصره ، وحركة خياله داخل التجربة حركة موحدة " ⁽³⁾ . ومعنى هذا أن الوزن يكتسب صفاته وخصائصه من داخل التجربة الشعرية من خلال علاقات متفاعلة داخل القصيدة الواحدة أو النص الواحد ، فثمة قصائد تنتمي الى وزن واحد ولكنها تختلف عن بعضها بالايحاء . فالوزن "رغم أنه صورة مجردة [فإنه] يحمل دلالة شعورية عامة مبهمة ، ويترك للكلمات بعد ذلك تحديد هذه الدلالة " ⁽⁴⁾ .

⁽¹⁾ عيار الشعر ، 5 .

⁽²⁾ منهاج البلغاء وسراج الادباء ، 258 . ويذكر أن عبد اللطيف الطيب أحمد المتحمسين لتلك الفكرة ، ينظر : المرشد الى فهم اشعار العرب 1 : 72 ، وينظر : النقد الأدبي ، احمد امين ، 1 : 87 وما بعدها .

⁽³⁾ مفهوم الشعر ، د . جابر عصفور ، 264 .

⁽⁴⁾ التفسير النفسي للادب ، د . عز الدين اسماعيل ، 51 .

أذن على وفق حركة الوزن في استيعاب حالة الشاعر النفسية سنحاول
المعالجة في الفقرات الآتية .

تقول نازك الملائكة :

عُدُّ بنا يا قطار

فالظلام رهيب هنا والسكون ثقیلٌ

عُدُّ بنا فالمدى شاسع والطريق طويل

والليالي قصار

عُدُّ بنا فالرياح تنوح وراء الظلال

وغواء الدثاب وراء الجبال

كصراخ الأسي في قلوب البشر

عُدُّ بنا فعلى المنحدر

شبحٌ مكفهرٌ حزينٌ

تركت قدماي على كل فجرٍ أتر

كل فجرٍ تقضى هنا بالآسى والحنين⁽¹⁾

تنتمي القصيدة الى وزن (المتدارك) / (فاعلن) ، ونواة المتدارك تتألف
من سبب خفيف (فا) ، ووتد مجموع (علن) . ان النبر يقع على الوتد
المجموع ، ومن أجل أن تستوعب الشاعرة التجربة الاغترابية المكانية ، فقد لجأت
— طبعا من دون وعي مسبق — الى قافية مقيدة (ساكنة) من دون استثناء أي

⁽¹⁾ ديوانها : شظايا ورماد ، 2 : 124 - 125 .

شطر . فضلا عن ذلك فقد استعملت اصوات المد بشكل مكثف ، الأمر الذي أدى الى مد الأصوات على مساحة زمنية أطول . ولا شك في أن سبعة وثلاثين صوتا محدودا وردت في المقطع لها - شتتا ام أينا - دور كبير في إضاءة الدلالة المعنوية والشعورية يساعدها في ذلك صوت الروي الساكن . ان قراءة واحدة لهذا النص تثير في المتلقي الحالة السكونية المهيمنة على الشاعرة ، ومثل تلك الحالة هي المسؤولة عن تطبيع هذا الاطار الخارجي ليكون منسجماً مع الضيق والسكون اللذين يلفان التجربة حيث الخوف من أرض لم تألفها الشاعرة ، ومن شأن ذلك توليد ايقاع قادر على الانسجام مع الصورة الشعرية والانفعال الشعري . ولعلّي لا أبالغ اذا قلت إنّ الشاعرة استطاعت ان تنسجم مع تجربتها والوزن من خلال ايراد (ضرب) لم يعرفه المتدارك ، اذ ان للمتدارك عروضين: الاولى فاعلن أو فعلن وضربها مثلها ⁽¹⁾ غير أنّ الشاعرة استعملت ضربا لا يجيء في المتدارك . وحين استعيد بعض المصطلحات العروضية من بحور اخرى، لقلت انها استعملت علة (التذييل) وهي "زيادة حرف ساكن على ما آخره وتد مجموع" ⁽²⁾ .

ان الاضافة الايقاعية الجديدة ، من شأنها إطالة زمن أصوات المد التي هيمنت على النص وهذا ما يشير اليه الاحصاء الذي قمنا به : فقد تشكّلت القصيدة من (62) شطرا ، توزعت اصر بها على النحو الآتي :

فاعلان = 52

فاعلن = 10

⁽¹⁾ ينظر : ميزان الذهب ، احمد الهاشمي ، 96 .

⁽²⁾ نفسه : 14 .

فاعلن فعلن فاعلان والفرق بين العددين شاسع وحين نعاود النص سنجد أنه يشكل على وفق الجدول الآتي:

$$44 = 5 \ 3 \ 11 \ 25$$

ان المدقق في الجدول يجد ما يأتي :

الفرق الحسابي بين (فاعلن) و (فعلن) هو (- 13) ، وبين (فاعلان) و (فاعلان) هو (- 2) وهذه الفروقات تبرز النبذة الالقاءية الممتدة متمثلة في (فاعلن) و (فاعلان) وبذلك فقط نقول ان التجربة الشعرية بدت منسجمة مع الغربة المكانية التي كانت تعاني منها الشاعرة ⁽¹⁾ فامتدت هذا الامتداد الناتج عن كثافة (فاعلن) التي حافظت على الوند المجموع فضلاً عن تأثير القافية المقيّدة كما أسلفنا .

ويقول عبد الوهاب البياتي في قصيدة "الالهة والمنفى" :

1. وتمزقتُ وقاتلتُ طواحين الهواء
2. وأمتطيتُ القمر الاسود مهرا
3. عبر صحراء غنائي
4. وصنعتُ الشعر من آلام أهلي الفقراء
5. ثم ماذا ؟
6. هذه أنت حزينه
7. تمضغين الثلج والأوراق في ليل المدينة
8. تلعين الموت بالجر ، وسراً تعشقينه

⁽¹⁾ حددنا نوع الغربة هنا لتأكيد حالة الشاعرة الظاهرة في مكان بعث في نفسها الخوف ، لأن غربة الشاعرة غربة روحية مركبة .

9. تلعين الدم من قلبي

10. وتبكين حزينه

11. ثم ماذا ؟

12. هذه أنت وهذا ما تريدينه

13. هذه انت : بحيرات سهاد

14. وسهوب من رماذ

15. أبدا يزرعها

16. فارس الميت في وهج الظهيرة

17. درعه بالدم مصبوغاً

18. وبالحبر أياديه الصغيرة

19. عينه : نجمة صبح ، غرقت عبر ضفيرة⁽¹⁾

قام النص على بحر الرمل (فاعلاتن) . وهذه النواة تتألف من سبب خفيف + وتد مجموع + سبب خفيف . ومثل هذه النواة فيها انبساط موسيقي لكونها ذات وتد وسطي يقع بين سببين خفيفين . يتوزع النص بين ثلاث حركات ، تبدأ الحركة الأولى من 1 - 4 ، والحركة الثانية من 6 - 10 ، والثالثة من 12 - 19 .

والملاحظ على هذه الحركات الثلاث ما يأتي : تشكلت الحركة الأولى من أربعة اشطر ومثلها الثانية . أما الثالثة فقد تشكلت من ضعف ما شكلته الأولى والثانية .

⁽¹⁾ ديوانه : اشعار في المنفى ، 1 : 412 - 413 .

ان قراءة فاحصة للحركات الثلاث من حيث التفعيلات الصحيحة والزاحفة والمعلولة والخارجة على النظام الايقاعي⁽²⁾ تبين ما هو موجود في الجدول الآتي :

13	صفر	2	4	7	الحركة الأولى	1. ز/ز/ز/ع.
						2. ص/ز/ز.
						3. ص/ز.
—	صفر	%15,38	%30,76	%53,84		4. ز/ص/ص/ع.
						النسبة المئوية

5. ثم ماذا ؟

15	2	صفر	9	4	الحركة الثانية	6. ص/ز
						7. ص/ص/ص
						8. ص/ص/ز/ص
						9. ص/ز/فع
						10. فعولن/ز
	13,3 %	صفر	60 %	26,66 %		النسبة المئوية

11. ثم ماذا ؟

24	7	صفر	6	11	الحركة الثالثة	12. ص/ز/ص
						13. ص/ز/ز
						14. ز/ص
						15. ز/فعلن
						16. فاعلاتن فاعلاتن
						فاعلن فع
						17. ز/ز/فع
						18. فعولن/ز/ص
						19. ص/ز/ز/ز
	%29.16	صفر	%25	%45.83		النسبة المئوية

⁽²⁾ سنرمز للتفعيلة الصحيحة بـ (ص) وللزاحفة بـ (ز) ، وللمعلولة بـ (ع) والخارجة على النظام بـ (خ) .

يتضح من الجدول أن نسبة التفعيلات الزاحفة في الحركة الاولى بلغت 53,84٪ وهي نسبة تترّج على نسب الحركتين الثانية والثالثة . واذا ما حاولت تفسير الدلالة الايقاعية فاني اشير الى ان الشاعر حاول ان يمر سريعا للدخول في قضيته الرئيسية : الغربية ، ولذلك لجأ الى "خبث" ⁽¹⁾ التفعيلة "فاعلاتن - فعلاتن" ، وفي هذا الاجراء ضياع للوتد المجموع الذي يركز عليه النبر ، ومن ثم تشكيل ثلاث حركات "فاعلاتن" في بداية التفعيلة الأمر الذي يؤدي الى سرعة ايقاعية ملحوظة .

من هنا وجدنا في الحركتين الاخريين تناقضاً في التفعيلات الزاحفة ، لأن الحركتين تبثان التجربة الشعرية التي تركز على الغربية . وملاحظة اخرى تخص الخروج على النظام الصوتي لتفعيلة الرمل "فاعلاتن" لقد وجدنا هذا الخروج في الحركة الثانية اذ بلغت نسبته 13.33 ٪ . في حين خلت الأولى منه تماماً أما الثالثة فقد بلغت نسبته 29.16٪. ولنا في هذا الأمر تفسير اجتهادي ، على الرغم من علمنا ان القارئ يستطيع تدوير الاشطر ليحصل على التفعيلة الخاصة بالرمل :

ان مثل هذا الخروج يشير الى تأزم نفسي حاد ، حاصر الذات الانسانية التي ثبتت ايقاعها الخاص ، غير انها حاولت ان تتخلص من ذلك بافرادها وهذا ما رثبه الشاعر : تفعيلات لا تنتمي للرمل فهو بحسب هذا الفهم جاء بحركة تعويضية صوتية بمعنى انه استطاع المحاولة للخروج على الرتابة الأسيرة الناتجة من غربة النفي .

(1) الخبث زحاف يعني حذف الثاني الساكن .

ويستغل السياب البحر "المقارب" لتمثيل تجربته الاغترابية المدنية يقول في قصيدة "جيكور والمدينة":

وتلنف حولي دروب المدينة

حبالا من الطين يعضن قلبي

ويعطين - عن جمة فيه - طينه

حبالا من النار يجلذن عرى الحقول الحزينة

ويحرقن جيكور في قاع روعي

ويزرعن فيها رماد الضغينة

دروب تقول الاساطير عنها

على موقد نام : ما عاد منها

ولا عاد من ضفة الموت سار

كان الصدى والسكينة

جناحا ابي الهول فيها ، جناحان من صخرة في ثراها دفينة

فمن يفجر الماء منها عيوننا لتبني . قرانا عليها ؟

ومن يرجع الله يوما اليها ؟⁽¹⁾

النص التفات الى الداخل لبث حالة انفصام العلاقة بين السياب وبين المدينة . والعلاقة علاقة مقت تنزف من روح مغتربة ، تنهج نهجا مسدوداً لانكفاء الذات على نفسها بسبب انعدام التوافق فهو لا يملك القدرة على

⁽¹⁾ ديوانه : انشودة المطر ، 1 / 414 - 415 .

خرق السور ، كما انه غير قادر على بعث الحياة من جديد وما دامت الحالة هي تلك ، فلا بد من استيعاب ايقاعي يلم الاطراف في دائرة واحدة ، فكان هذا "النضج الذي يضح دما متحولا الى حبر ... هذا هو النص . ان الارتكاز على "المقارب" : فعولن ، يعني الضغط على النواة "فعو" ، وهذا الضغط يتولد في بداية التفعيلة . ومن شأن البداية ان تجهر بالدرجة التوقيعية ، غير أن السياب استطاع ان يضفر الصورة والوزن فجاء النص مخترقا الجهر ليستقر هادئا منسجما مع الخطاب الشعري الذي بدا حوارا هامسا مع النفس التي تتضاد مع المدينة .

القافية :

ومما يتصل بالبنية الايقاعية : القافية فمما لا شك فيه انها قيمة موسيقية بوصفها "عدة اصوات تتكرر في اواخر الاشطر أو الابيات ... وتكررها هذا يكون جزءا هاما من الموسيقى الشعرية" .⁽¹⁾

والشعراء الرواد في هذا الموضوع لم يتخطوا القافية وهم ينظمون قصيدة شعر التفعيلة بل اعاروها اهتماما كبيرا لانها "ركن منهم في موسيقية الشعر الحر ... تثير في النفس انغاما واصداء ، وهي فوق ذلك فاصلة قوية واضحة بين الشطر والشطر ، والشعر الحر احوج ما يكون الى الفواصل" كما تقول نازك الملائكة ،⁽²⁾ وهذا ما ذهب اليه السياب إذ عدّ نفسه من أعداء المتفلتين من القافية في الشعر الجديد . يقول في رسالة بعث بها الى الشاعر عبد الكريم الناعم "انا من اعداء التفلت من القافية" ،⁽³⁾ ويعلل ذلك بقوله : "ان اللغات الخالية من الحركات - كل اللغات ما عدا العربية - واوزان الشعر التي تعتمد على الارتكاز وليس التفعيلة قد تخفف مما يحدثه خلو الشعر من القافية ، على الاذن من وقع منغوم" .⁽⁴⁾

⁽¹⁾ موسيقى الشعر ، د . ابراهيم انيس ، 273 .

⁽²⁾ قضايا الشعر المعاصر ، 192 .

⁽³⁾ رسائل السياب ، جمع وتقديم ماجد السامرائي ، 108 .

⁽⁴⁾ نفسه .

وانطلاقاً من هذا الفهم فإن الشعراء الرواد لم ينبذوا القافية ، وإذا ما حاولت الاستشهاد على ذلك فاني سأجتزئ نماذج لأن الشواهد على ما ذهبت اليه كثيرة جدا .

يقول السياب في قصيدة " غربة الروح " :

يا غربة الروح في دنيا من الفجر
والثلج والقار والفولاذ والضجر
يا غربة الروح .. لا شمس فائتلق
فيها ولا أُنقُ (1)

فالقافية في هذا النص تمثل : 11/ ب ب وتقول نازك :

عُد بنا قد سَمْنَا الطوافُ
في سفوح الجبال وعدنا نخاف
أن تطول ليالي الغياب
ويغطي عواء الذئاب
صوتنا ويعز علينا الإياب (2)

فالقافية هنا تمثل : 11/ ب ب ب .

ويقول البياتي في قصيدة " قصائد حب على بوابات العالم السبع " :

أشرد من دائرة الضوء الى الواحات

(1) ديوانه : شناسيل ابنة الجلبي ، 1 : 660 .

(2) ديوانه : شظايا ورماد ، 2 : 125 .

اهبط من منازل الكواكب الاخرى الى ' اللوفر'
مأخوذاً بسحر العالم المجنؤ في اللوحات
بالباطن الاعمى الذي يطارح الغرام
أنشاه في الظلام
بالكلمات وبنار الغسق المطفأة الزرقاء
بوجه ' بيكاسو' وراء واجهات الزمن الضائع والغابات
بلمسة الفرشاة
على اديم جسد المرأة والوردة والسماء
بصيحة المهرج السوداء
وهو يرى قناعه يغرق في ' اللور'
اعود للبيت وفي رأسي ضجيج مدن الامطار
وعنكبوت النار⁽¹⁾
فالقافية هنا تمثل :

||| / ب ب / ج ج ج / د د د .

اما بلند الحيدري فيقفز بنا خطوات الى الامام وهو يلتزم قافية واحدة في
احدى قصائده المتأخرة وهي : " خيبة الانسان القديم " التي نقتطع منها النص
الآتي :

صليت يا اختاه

⁽¹⁾ ديوانه : قصائد الحب على بوابات العالم السبع : 3 / 75 - 76 .

صليت حتى صارت الذنوب في مجاهلي

صلاة

وصمت حتى جفت الشفاه

وقلت :

في الشفاه

في الخشب المعد للشتاء لي

اله

وانني سحابة جادت بها يداه

وانني حلم الرمال السمر بالمياه

وانني من يبسي أفجر الحياة

وكانت الحياة

تسمر الصليب في الجباه

وتصلب المسيح كل ساعة

تصلب هذا الميت كل لحظة

فيتنشي من المي مداه

وفي عيوني الباسمات ترتمي سماه

حكاية عن تائه تخنقه خطاه⁽¹⁾

يتضح من النصوص المتقدمة - وهي جزء يسير من اشعار الرواد الاربعة
تمائلها في البنية الموسيقية - أن الاحتفاظ بالاطار الموسيقي العربي - والقافية جزء

⁽¹⁾ ديوانه : رحلة الحروف الصفر ، 10 - 11 .

هام منه - ليس "مما يعيب الشعر العربي او اي شعر" ⁽¹⁾ مادامت القافية بشكل خاص ، وذلك الاطار عموما ، امرا فنيا شعوريا مطلوبا . على ان القافية عند الرواد "لا يبحث عنها في قائمة الكلمات التي تنتهي نهاية واحدة ، وانما هي كلمة ما من بين كل كلمات اللغة يستدعيها السياق المعنوي والموسيقي للسطر الشعري" . ⁽²⁾

تنوع الاوزان في القصيدة الواحدة :

وهذه قضية موسيقية ترد عند الرواد في القصيدة الواحدة ذات المقاطع المتعددة ، فالشاعر الكبير لا يمكن ان يغير الوزن من مقطع الى آخر ما لم يكن ذلك من اجل غرض موسيقي ، يعتقد انه ملائم لحالته الانفعالية ، وبعبارة اخرى فان التنوع جاء من اجل "توظيف الموسيقى لا براز بعض النواحي الموضوعية او النفسية التي يحرص الشاعر على ابرازها" . ⁽³⁾ وقد وجدت السياب سبع قصائد ⁽⁴⁾ للبياتي ثماني قصائد ⁽⁵⁾ ولنازك ثلاث قصائد ⁽⁶⁾ ، فيما

⁽¹⁾ موسيقى الشعر ، الدكتور ابراهيم انيس ، 18 .

⁽²⁾ الشعر العربي المعاصر ، د . عز الدين اسماعيل ، 68 .

⁽³⁾ دير الملاك ، د . محسن اطيمش ، 285 .

⁽⁴⁾ هي سفر ايوب من ديوان منزل الاقنان ، وجيكور المدينة والعودة لجيكور ، ورؤيا في عام 1956 ، ومدينة السندباد من ديوان انشودة المطر ، وفي انتظار رسالة ، ومن ليالي السهاد من ديوان شناسيل ابنة الجلبي .

⁽⁵⁾ هي سفر الفقر والثورة من ديوان سفر الفقر والثورة ، اما الست الاخرى فهي من ديوان كتاب البحر وهي : تحولات نيتوكريس في كتاب الموتى ، والاميرة والغجري ، واحمل موتي وارحل ، والرحيل الى مدن العشق والمعبودة ، وسأنصب لك خيمة في الحدائق الطاغورية ،

⁽⁶⁾ هي ثلاث مرات لا مي من ديوان قرارة الموجة ، وخمس اغان للالم ، وثلاث اغنيات عربية من ديوان شجرة القمر .

خلت دوواوين بلند الحيدري منها . وسأكتفي بإيراد مثال واحد طمعا في
الايجاز .

تتكون القصيدة "مدينة السندباد" للسياب من خمسة مقاطع ، في المقطع
الاول نقرأ ما يأتي :

جوعان في القبر بلا غذاء

عريان في الثلج بلا رداء

صرختُ في الشتاء

أقضى يا مطر

مضاجع العظام والثلوج والهباء

مضاجع الحجر

وانبت البذور ، ولتفتح الزهر

وأحرق البيادر العقيم بالبروق

وفجّر العروق

وأثقل الشجر⁽¹⁾

البحر هو الرجز ، وقد طوّعه الشاعر بما يناسب عواطفه التي اتسمت هنا،
بالفوران ، والحساسية المفرطة بازاء ما تعانيه مدينة الشاعر - ومن خلالها العراق
- من جوع وعري وجذب . ومع ان الشاعر ابتداء القصيدة بالانا : جوعان

⁽¹⁾ ديوانه : انشودة مطر ، 1 : 463 .

وعريان ولكن صرخته كانت من اجل الآخرين . والرجز ذو فعالية راقصة ⁽¹⁾ استغله الشاعر لاستشارة "المطر" كي يتحرك لينهي الجذب ويوجد الخصب . فكان الشاعر هنا "يؤنس" المطر ، فالشاعر اختار الرجز مخاطبا من خلاله المطر وعارضا حاله وحال المدينة ملتمسا الحل والخلاص . اما في المقطع الثاني فقد استبدل الشاعر موسيقى الرجز بموسيقى المتدارك "فعولن" ولكي نكون موضوعيين في تحديد علاقة الموسيقى الجديدة بالموضوع لا بد أن نقرأ جزءا من المقطع :

أهذا أدونيس؟ هذا الخواء؟

وهذا الشحوب ، وهذا الجفاف؟

أهذا ادونيس؟ أين الضياء؟

وأين القطاف

مناجل لا تحصد

ازاهر لا تعقد

مزارع سوداء من خير ماء!

أهذا انتظار السنين الطويلة

أهذا صراخ الرجولة؟

أهذا انين النساء؟

ادونيس ايا لا ند حار البطولة

لقد حطم الموت فيك الرجاء

واقبلت بالنظرة الزائغة

⁽¹⁾ ينظر : تطور الشعر العربي في العراق ، د . علي عباس علوان ، 247 .

وبالقبضة الفارغة⁽¹⁾

الشاعر هنا يستعرض بند هاش ما حلّ بآد ونيس من خواء وشحوب وجفاف ، وهواله الجمال والخصب والانبعاث . وكأن الشاعر لا يصدق هذا الذي يحدث امام ناظره ولذلك قاده توهج التجربة الشعورية لـ "المقارب" فتسأل "بهدوء" عما يجري ، وانكر "برباطة جأش" ما حل بالمناجل ، والا زاهر والمزارع ، ثم عاد الى التساؤل "بجدية" مشوبة بقليل من السخرية عما حل بالرجولة والبطولة وضياح الامل . ولعل "المقارب" قد استوعب كل تلك الشكوى وذلك التساؤل والاندهاش فكما ان الشاعر لا يملك غير ان يشكو ويسال كذلك لا يملك "المقارب" غير توصيل الشكوى والتعبير عن الخذلان . فالشكوى المهموسة تمر من خلاله .

وفي المقطع الثالث يعود الشاعر الى الرجز مرة ثانية لأن ما يراه الشاعر الآن ليس فقط "الخواء والجذب والشحوب" بل الموت والعقم وهما لا شك - الى جانب الدم المسفوح في كل مكان - اعلى مرتبة من الخواء والشحوب :

الموتُ في الشوارغ

والعقم في المزارغ

وكل ما نحبه يموتُ

الماء قيدوه في البيوت

والهث الجداول الجفاف

هم التار اقبلوا ، في المدى زعاف وشمسنا دم، وزادنا دم على الصحاف

⁽¹⁾ ديوانه : انشودة المطر ، 1 : 465 - 466 .

محمد اليتيم احرقوه في المساء
يضيء من حريقه ، وفارت الدماء
من قدمه ، من يديه ، من عيونه
واحرق الاله في جفونه
محمد النبي في حراء قيدوه
فسمر النهار حيث سمروه
غداً سيصلب المسيح في العراق
ستاكل الكلاب من دم البراق⁽¹⁾

الرجز هنا يمنح الموضوع كامل موسيقاه . فالموت الذي حاق بالحياة ،
والدم المنبجي من الشمس ، والطعام ، والرعب الذي مبعثه حرق الرمز لا كبر
محمد والخوف من مصير الرمز الآخر "المسيح" في غد ، كل ذلك يدفع الشاعر
الى الولولة ، والصراخ ، والاعلان عن النهاية الفاجعة . وأظن ان الرجز
بديناميته الحركية ، وخفته ، وحساسيته قد استطاع ان يتوافر على كل تلك
العينات من الرعب ، والموت ، والعقم وليس الموسيقى وحدها قد استجابت
للموضوع بل ان اللغة ايضا كانت حاضرة .

وفي المقطع الرابع يستمر الشاعر مع موسيقى الرجز لان الموضوع
استمرار لما هو عليه في المقطع السابق : شيء من الصراخ ، وشيء من الولولة ،
وشيء من التوبيخ :

(1) نفسه ، 1 / 467 - 468 .

يا ايها الربيع

يا ايها الربيع ما الذي دهاك ؟

جئت بلا مطر

جئت بلا زهر

جئت بلا ثمر

وكان متهاك مثل مبتداك

يلفه النجيع ...

واقبل الصيف علينا اسود الغيوم⁽¹⁾

هنا لا يشكو الشاعر ، بل يعتف ، ويؤنب ويوبخ ، فالربيع الذي جاء بلا زهر وبلا مطر وبلا ثمر ، الربيع الذي يتساوى مبتدؤه ومنتهاه ، الربيع الذي يسر بله الدم : لا يجدي معه غير التوبيخ والتقريع ، ولأن الشاعر لا يشكو وكأنه يخاطب نفسه كما رأينا عند المتدارك في المقطع الثاني ، فقد استخدم موسيقى الرجز المفتوحة بخفتها على الاندياح والجهر ، للتعبير عن انفعالاته الصاخبة . وفي المقطع ايضا تقريع للصيف بصيغة الغائب - لا بصيغة المخاطب - وانكار لمطره الذي خبا الوباء في قطراته :

من الذي اطلق من عقاها اللذاب ؟

من الذي سقى من السراب ؟

ونخبأ الوباء في المطر ؟⁽²⁾

⁽¹⁾ نفسه ، 1 / 468 - 469 .

⁽²⁾ نفسه ، 1 : 469 - 470 .

ومرة اخرى نلتقي بالموت :
الموت في البيوت يولد
يولد قايل لكى يتنزع الحياة
من رحم الارض ومن منابع المياه
فيظلم الغد
وتجهض النساء في المجازر
ويرقص اللهيب في البيادر
ويهلك المسيح قبل العازر⁽¹⁾

وتستمر موسيقى الرجز - الى جانب لغة الالم الصاخبة - في المقطع الاخير حين وقف الشاعر على مدينته وقد آلت الى خرائب ، لا "اله فيها ولا ماء ولا حقول" فيما راحت "خناجر التتر" تنغرز في جسدها .

لقد عبر تنوع الموسيقى عن حالة الشاعر الاغترابية ، فهي تصخب وتجار حين يثقل عليه الالم ، وتفيض الغربة ، فيرى نفسه مستجيرا ، لائذا بالآخرين ، معلنا السخط والغضب ، وهي تهدأ وتحفت - ربما حد الهمس - حين يلتفت الشاعر الى نفسه الحزينة ليلتقط انفاسه ، فيبعث شكواه مخدولة مستكينة .

التناوب :

وهذه ظاهرة موسيقية اخرى - وان كانت اقل شيوعا من الظاهرة السابقة - وردت في بعض قصائد البياتي والسياب . ويعني التناوب : ((تكوين القصيدة موسيقياً من الشكلىن: التقليدي والحر، وغالباً ما يأتي هذا التناوب على شكل مقاطع أيضاً)) .⁽²⁾

⁽¹⁾ نفسه ، 1 / 470 .

⁽²⁾ دير الملاك ، د . محسن اطيماش ، ص 285 . وقد سمي الناقد عبد الجبار داود البصري هذا النوع من القصائد بالمزدوجات . ينظر : بدر شاكر السياب رائد الشعر الحر ، ص

ولا يريد الباحث تناول هذه المسألة على وفق الاهمية التي تستحقها ، ولكنه رأى ان يلم بها الماما سريعا في هذا الفصل ، لانه لا بد من وجود علاقة ما تربطها بالمضمون الشعري وتحولات الموقف الانفعالي خلافا لما يعتقده البعض من عدم وجود ضرورة نفسية او فنية لها .⁽¹⁾

ولان هذه الالتفاتة تمهيدية وعجلى كما يرى الباحث - فسوف اتجاوز ما ورد في قصائد البياتي⁽²⁾ واركز على ما ورد في شعر السياب وهي ثلاث قصائد: "رسالة" وقد أرخت في 3 / 8 / 1964 ، و"اقبال والليل" وقد قال عنها الناشر انها "آخر قصيدة كتبها الشاعر" احتمالا⁽³⁾ و"ليلي" وهي "من القصائد التي نظمت في الكويت ولا يعرف تاريخها".⁽⁴⁾

يتضح مما تقدم ان السياب كتب هذه القصائد المزدوجات في ايامه الاخيرة الأمر الذي يحملنا على الاعتقاد ان جمع الشككين الشعريين لم يكن ترفا ، او اظهارا لقدرة الشاعر ، وانما جاء استجابة لحالة انفعالية وجد الشاعر نفسه مزحوما بها بسبب استفحال مرضه وتفاقم يأسه من الشفاء أي - بتعبير آخر - ان استشرأ حالة الاغتراب المركب الذي أخذ بخناق الشاعر كان وراء تناوب الشككين في القصيدة الواحدة ، وهل ثمة اغتراب مكاني ، وروحي ، ادهى وأشد من الذي عاشه السياب لا سيما في أيامه الأخيرة ، وفي ضوء هذا الرأي سأحاول ان اجتهد في قراءة قصيدة "ليلي" .

يتكئ السياب في قصيدة "ليلي" على ابيات من الموروث الشعري بطريقة الاقتباس المباشر . وقصيدة "ليلي" تتشكل من اربعة مقاطع كتبت بطريقة

⁽¹⁾ ينظر : دير الملاك ، د . محسن اطيّمش ، ص 285 .

⁽²⁾ يستطيع القارئ ان يرى هذا النوع من القصائد في ديوانه : كتاب البحر مثل - تحولات

نيتوكريس في كتاب الموتى 'و' المعبودة 'و' سانصب لك خيمة في الحدائق الطاغورية .

⁽³⁾ ينظر ديوانه ، 1 / 719 .

⁽⁴⁾ نفسه ، 1 / 720 .

التناوب "اثنان منهما تنتميان الى شعر البيت واثنان الى شعر التفعيلة . قوام المقطع الاول ثمانية ابيات يستهلها الشاعر بمخاطبة صاحبه :

قُرب بعينيك مني دون اغضاء
وخلني اتملى طيف أهوائي
ابصرتها ؟ كادت الدنيا تفجّرني
عينيك دنيا شمس ذات آلام
ابصرت ليلي فلبنان الشموخ على
عينيك يضحك ازهاراً لأضواء⁽¹⁾

ايات تذكرنا بالشاعر الجاهلي وهو يخاطب خليليه ، او صاحبه ، وفيها يسأل الشاعر صاحبه ان كان قد رأى " ليلي " في لبنان ، الجو تراثي بما فيه اسم ليلي الذي نستحضر من خلاله " الليلات " العاشقات ، وقد زاد السياب في شحناته التراثية بمفردة " بؤبؤيك " التي اصبحت " محور الثقل "⁽²⁾ في المقطع :

اني سألثمها في بؤبؤيك كمن
يقبل القمر الفضي في الماء
ليلى اهواي الذي راح الزمان به
وكاد يفلت من كفي بالداء
حنانها كحنان الأم دغرني
فأذهب الداء عن قلبي واعضائي⁽³⁾

(1) ديوانه : شناسيل ابنة الجلبي ، 1 / 720 .

(2) واقع القصيدة العربية ، د . محمد فتوح احمد ، 2 / 149 .

(3) ديوانه : شناسيل ابنة الجلبي ، 1 / 720 - 721 .

لقد اراد الشاعر ان تكون زفراته "عمودية" مثل ابياته وقد اثراها البحر البسيط بموسيقى غزيرة تجود "في كل ما له صلة بالشجن" ⁽¹⁾ . و يفاجئنا الشاعر بانتقاله الى شعر التفعيلة في المقطع الثاني وتلك هي المفارقة الاولى . اما المفارقة الثانية فهي تغير الوزن من البسيط الى الكامل :

روحي الاعز علي من روحي وآمالي وعصري

حملت صغيرتها هواي كأنها أمواج نهر

حملته نحو مدى السماء

نحو المجرة والنجوم ونحو جيكور الجميلة ⁽²⁾

هنا نقلنا الشاعر من الصحراء التي طاعت باذهاننا في المقطع السابق ، الى جيكور الجميلة . وقد لعب "الكامل" دورا في اذكاء الحزن ، وتأجيج الشجن لانه مناسب للتجارب ذات الحس الحزين القائم ⁽³⁾ ويرسم الشاعر في المقطع صورة له وهو في جيكور فتى يتصيد الاحلام تحيطه "الفراشات الخضيلة" كما يتصيد الاشعار والقوافي والغناء ، وقد حاول الشاعر اقامة نوع من التوازن بين الصحراء رمز الحياة المنصرمة ، وبين جيكور رمز الحياة الحاضرة تخفيفا لما يشعر به من غربة جسدية وروحية تتوزع بين الماضي الحزين والحاضر الحزين فيما يقف الشاعر حيالها راضيا قانعا او هكذا يخيل اليه . ولنلاحظ ان آخر سطر في المقطع الثاني هو :

وهناك نبي نحيمتين من الناسي ⁽⁴⁾

⁽¹⁾ دراسات في النص الشعري ، د . عبده بدوي ، 49 .

⁽²⁾ ديوانه : شناسيل ابنة الجلبي 1 / 720 .

⁽³⁾ ينظر : الشعر الحر في العراق ، يوسف الصائغ ، 140 .

⁽⁴⁾ ديوانه : شناسيل ابنة الجلبي 1 / 722 .

ومن هذا التمني ينتقل الى المقطع الثالث وهي ابيات لشوقي يستعيرها
دونما تغيير او تحوير تبدأ بهذا البيت :

ليلى منادٍ دعا ليلى فحفت له

نشوان من جنبات الصدر عريداً

ان اقتباس هذه الايات يدل على اعجاب الشاعر بها اولا ، كما " قد " يوحي لنا بانه عجز عن التعبير الدقيق عن تجربته الشعورية ورأى في ابيات شوقي ما يستكمل بها آفاق تجربته ، على أن جو هذا المقطع يعيدنا الى جو المقطع الاول العابق بذكر الصحراء ، والتراث والحب العربي . وفي المقطع الاخير يستعيد الشاعر مرة اخرى شعر التفعيلة ليقدم لنا صورا متقابلة : قثمة صورة للعاشقين وقد قطعا الصحراء متعانقين يهمس الرمل تحت ارجلها تقابلها صورة - لعلها لجيكور - وقد نام الخيل المروجع بها بينما يتعالى من بعيد نباح كلاب . ولان الشاعر ظامي للحب ، والحلم الجميل فقد اختلق آخر صورة لصحراء تفجر منها الماء :

وتكركر الصحراء عن ماء وراء فم الصخور

فاظلل بالكفين أسقيك المياه فترتوين⁽¹⁾

وهكذا تكون القصيدة المزدوجة - في جانبيها الموضوعي والفني - اشباعا لانفعال اغترابي عاشه السياب بخاصة ، بسبب المرض الذي اقعده وعزله عن العالم ، وأشعره بالعجز ، وقربه من الموت ، فالشكل القديم من القصيدة ملاذ يحتمي به الشاعر عن حاضره المغترب ، المروجع ، يصله ، عن ناحية ، بالشاعر العربي القديم ، ووقوفه على اطلال الأحبة ، مخاطبا خليله ، متنقلا على ظهر ناقته او فرسه من مكان الى آخر ، متمتعا بفحولته وفتوته . وهو ، من ناحية اخرى ، يعيده الى شبابه حيث العافية ، وصحة النفس ، وعنفوان الرجولة .

(1) ديوانه : شناسيل ابنة الجلبي 1 / 723 .

خاتمة الكتاب

عاش الشعراء الرواد الاربعة انواعا من الاغتراب بسبب الظروف السياسية والاجتماعية التي كانت سائدة يومئذ . فقد كتب عليهم ان يواجهوا تحديا سياسيا فرضته المؤسسة السياسية القائمة ، اذ ربطت العراق بعجلة الغرب الاستعماري ، وفرطت بالثروات الوطنية ، وصادرت الحريات الشخصية والعامّة . كما واجهوا تحديا اجتماعيا مثله جمود المنظومة الاجتماعية والاخلاقية، والاستخذاء امام قيم الطبقات المتنفذة ، وبحكم موقع الشاعر في مجتمعه ، فقد اضطلع الشعراء الرواد برسالتهم في حركة التغيير الاجتماعي والسياسي المنشود ، ابان اربعينيات هذا القرن والسنين التي تلتها ، الأمر الذي انعكس عليهم بصورة خيبات متلاحقة من النكوص والاحباط وهكذا كتب عليهم ان يعيشوا الاغتراب الاجتماعي مدخلا لاغتراباتهم اللاحقة .

ولا شك في ان العزلة من طبائع الذات الانسانية سيما الذات الشاعرة والفنانة ، على ان هذه العزلة نسبية ، ولكنها قابلة للنمو والتضخيم في الظروف التي تشكل قيда على حرية الفنان ، وحاجزا امام انطلاق فكره ، واندياح ابداعه، كذلك التي نشأ في ظلها الشعراء الرواد . ولهذا اندفع هؤلاء نحو الحب ، والعمل السياسي ، لكي يتجاوزوا عزلتهم النسبية ، ولكن اخفاقهم في هذا وذاك ، اسلمهم الى الاغتراب العاطفي ، والسياسي ، والمكاني ، وصولا الى الاغتراب الروحي الذي يعني الاغتراب المركب .

ولكي لا يتحول الاغتراب الى جحيم لا يطاق ، فقد سعى الشعراء الرواد الى تجاوزه ، او التخفيف من آثاره في اقل تقدير ، من خلال منهج تعويضي تمثل في ردود مشتركة هي العودة الى الطفولة ، واستعادة الماضي ، وبناء المدن

الحلمية، وفي صيغ اخرى خاصة : هي التشبث بالحياة عند السياب ، واستعادة الايمان عند نازك ، والتحول من الشوري المنتمي الى الشوري اللامتنمي عند البياتي ، وامتهان المجون والتشرد عند بلند .

اما السياب فقد كان لمرضه الاثر الكبير في استمرار اغترابه وصولا الى الاغتراب الروحي الذي حاول مقاومته ، لولا الموت . واما نازك فقد اقترن اغترابها الاجتماعي الحاد نسبيا باغتراب عاطفي حاد هو الآخر ، واقترن الاثنان بنزوع جامح نحو مثل اعلى غير موجود ، ولذلك استسلمت لاغتراب روحي مطلق ، ولم تملك امامه سوى الانكفاء على الذات واعتزال العالم ، واما البياتي فقد اختار المنفى خارج الوطن ، واستطاع من خلال تطلعه الى المجد الشعري ، ومحاولاته الفنية التجديدية ، وطول فترة اقامته ، ان يعادل اغترابه بما يساويه - وربما يتجاوزه - من المنجز الفني ، والمجد الشخصي . وهكذا جعل من اغترابه المكاني - وربما من اغترابه النفسي - حالة اعتيادية ، لا اغترابا - وهو ما يفسر بقاءه خارج العراق بعد زوال اسباب هجرته . واما بلند الحيدري فقد كان اغترابه الاجتماعي حادا نسبيا - شأن نازك - بسبب ظروفه الخاصة ، وسرعان ما اسلمه احباطه السياسي ، وحرمانه العاطفي الى اغتراب روحي حاد نسبيا هو الآخر ، اسلمه بدوره الى المنفى الاختياري ، حيث شهد نهايته شاعرا ، ممتهدا العمل الصحفي ضمن مؤسسات تدين بفكر حاربه الشاعر في شبابه ، وربما كان في ذلك ، ما يساوي اغترابه بل ما يتفوق عليه في القوة ، وبذلك لم يعد اغترابه اغترابا ، وانما اصبح حياة اعتيادية يعيشها الشاعر .

وفي كل شاعر مغترب : تلك هي الحقيقة التي يؤمن بها الباحث ، ويبقى اعتزال المجتمع ، او الاندماج به ، او علاقة البين بين شأنا خاصا ، وربما سرا خاصا من اسرار الشاعر نفسه .

المراجع والمصادر

اولا : الكتب :

- ابو القاسم الشابي شاعر تونس ، الطاهر فيفه وآخرون ، 1984 .
- اتجاهات الشعر العربي المعاصر ، الدكتور احسان عباس ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، مطابع اليقظة ، 1398هـ - 1978 .
- الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر ، الدكتور عبد القادر القط ، بيروت ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، 1978 .
- أثر التراث في الشعر العراقي الحديث ، علي حداد ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، الطبعة الاولى ، 1986 .
- ادباء بغداديون في الاندلس ، الدكتور محسن جمال الدين ، بغداد ، دار التضامن للتجارة والطباعة والنشر ، 1962 - 1963 .
- أدباء معاصرون ، رجاء النقاش ، بغداد ، وزارة الاعلام ، 1972 .
- أدب الغرباء ، ابو الفرج الاصبهاني "علي بن الحسين بن محمد الاموي القرشي ، ت سنة 356 هـ" ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، بيروت ، دار الكتاب الجديد ، 1972 .
- أدبنا الحديث بين الرؤيا والتعبير ، ريتا عوض ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الاولى ، نيسان "ابريل" ، 1979 .
- اسرار البلاغة ، الجرجاني "ابو بكرهيد القاهر بن عبد الرحمن - 471 هـ" تحقيق هـ . ريتز ، "استانبول ، مطبعة وزارة المعارف ، 1954" .
- الأسس الجمالية في النقد الادبي ، عرض وتفسير ومقارنة الدكتور عز الدين اسماعيل ، بغداد ، دار الشؤون الثقافية العامة ، الطبعة الثالثة ، 1986 .
- الأسس النفسية للابداع الفني في الشعر خاصة ، الدكتور مصطفى سوييف ، القاهرة ، دار المعارف بمصر ، 1969 .

- الاسطورة في شعر السياب ، الدكتور عبد الرضا علي ، دار الشؤون الثقافية والنشر ، بغداد ، 1978 .
- الاسطورة والرمز ، ترجمة : جبرا ابراهيم جبرا ، وزارة الاعلام ، 1973 .
- الاشارات الالهية ، التوحيد " ابو حيان علي ت 745هـ " تحقيق الدكتورة وداد القاضي ، ج 1 ، ومعه ملخص من الجزء الثاني ، بيروت ، دار الثقافة ، 1973 .
- الاصوات اللغوية ، الدكتور ابراهيم انيس ، مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة الخامسة ، 1979 .
- الاغاني ، ابو الفرج الاصبهاني ، ج 9 ، مصورة عن طبعة دار الكتب ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، مطابع كوستاتوماس وشركاه ، د . ت .
- الاغاني ، ابو الفرج الاصبهاني ، ج 18 ، تحقيق : عبد الكريم ابراهيم الغرباوي اعداد لجنة نشر كتاب الاغاني باشراف محمد ابو الفضل ابراهيم ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، المطبعة الثقافية ، 1390 هـ - 1970 م .
- الاغتراب ، د. محمود رجب ، منشأة المعارف بالاسكندرية ، مطبعة اطلس ، ج 1 ، 1978 .
- الاغتراب ، ريشارد شاخت ، ترجمة : كامل يوسف حسين ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط 1 ، 1980 .
- الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي ، عزيز السيد جاسم ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط 2 ، 1407هـ - 1987م .
- الاغتراب في شعر بدر شاكر السياب ، احمد عودة الله الشقيرات ، الاردن ، عمان ، دار عمار للنشر والتوزيع ، ط 1 ، 1407هـ - 1987م .
- الانسان والاغتراب ، مجاهد عبد المنعم ، دمشق ، سعد الدين للطباعة والنشر ، ط 1 ، 1985 .
- الايقاع في الشعر العربي من البيت الى التفعيلة ، مصطفى جمال الدين ، النجف الاشرف ، مطبعة النعمان ، ط 2 ، 1394هـ - 1974م .

- البحث عن الجذور ، خالدة سعيد ، بيروت ، دار مجلة نشر ، 1960 .
- البحث عن معنى ، دراسة نقدية ، الدكتور عبد الواحد لؤلؤة ، بغداد ، وزارة الاعلام ، 1973 . للدراسات والنشر ، بيروت ، الطبعة الثانية ، 1983 .
- بدر شاكر السياب ، ريتا عوض ، سلسلة اعلام الشعر العربي الحديث ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، مطبعة اوفسيت الانتصار ، بغداد ، الطبعة الثانية ، 1984 .
- بدر شاكر السياب ، حياته وشعره ، عيسى بلاطة ، دار النهار للنشر ، بيروت ، 1971 .
- بدر شاكر السياب دراسة في حياته شعره الدكتور احسان عباس بيروت - دار الثقافة .
- الطبعة الثانية 1972 .
- دار الثقافة ، الطبعة الرابعة 1978 .
- بدر شاكر السياب ، رائد الشعر الحر ، عبد الجبار داود البصري ، بغداد ، دار الشؤون الثقافية العامة ، الطبعة الثانية ، 1406 هـ - 1986 م .
- بدر شاكر السياب والحركة الشعرية في العراق ، محمود العبطة المحامي ، بغداد ، مطبعة المعارف ، 1965 .
- البنيات الاسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث ، دكتور مصطفى السعدني ، منشأة المعارف بالاسكندرية ، جلال حربي وشركاه ، 1987 .
- بنية اللغة الشعرية ، جان كوهين ، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري ، دار تو بقال للنشر ، المغرب ، الدار البيضاء ، الطبعة الاولى ، 1986 .
- البياتي والشعر العراقي الحديث ، الدكتور احسان عباس ، دار بيروت للطباعة ، بيروت ، لبنان ، 1955 .
- البياتي الوجه والمرأة ، حمزة مصطفى ، الموسوعة الصغيرة "393" ، وزارة الثقافة والاعلام ، دار الشؤون الثقافية العامة ، 1994 .
- تاريخ الادب العربي "العصر الجاهلي" ، شوقي ضيف ، القاهرة ، دار المعارف بمصر ، 1960 .

- التجزئية في المجتمع العربي ، نازك الملائكة ، بيروت ، دار العلم للملايين ، 1974 .
- التركيب اللغوي في شعر السياب ، الدكتور خليل ابراهيم العطية ، الموسوعة الصغيرة ' 183 ، بغداد دار الشؤون الثقافية العامة ، 1986 .
- التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق ، الدكتور زكي مبارك ، المكتبة المصرية للطباعة والنشر ، صيدا - بيروت ، المطبعة المصرية ، ج 1 ، د . ت .
- تطور الشعر العربي الحديث في العراق ، اتجاهات الرؤيا وجماليات النسيج ، الدكتور علي عباس علوان ، وزارة الثقافة والاعلام ، 1975 .
- تطور الفكر الفلسفي ، تيودور اويزرمان ، ترجمة : سمير كريم ، بيروت ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، ط 4 ، ايار ' مايو ' ، 1988 .
- التفسير النفسي للادب ، دكتور عز الدين اسماعيل ، القاهرة ، مكتبة غريب ، دار غريب للطباعة ، ط 4 ، 1977 .
- الثابت والمتحول ، ادونيس ، ج 1 ، الاصول ، بيروت ، دار العودة ، ط 1 ، 1974 .
- ثورة الشعر الحديث ، عبد الغفار مكاوي ، المجلد الاول ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1972 .
- جدلية الخفاء والتجلي ، دراسات بنيوية في الشعر ، كمال ابو اديب ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ط 1 ، آذار ' مارس ' 1979 .
- جماليات المكان ، جاستون باشلار ، ترجمة : غالب هلسا ، كتاب الاقلام ' 1 ' ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، 1980 .
- الحداثة في الشعر ، يوسف الخال ، بيروت ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، 1978 .
- حركية الابداع ، دراسات في الادب العربي الحديث ، الدكتورة خالدة سعيد ، بيروت ، دار العودة ، ط 2 ، 1982 .
- حكيم المعرفة ، عمر فروخ ، بيروت ، مطبعة الكشاف ، الطبعة الثانية ، 1948 .
- الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث ، الدكتور ماهر حسن فهمي ، معهد البحوث والدراسات ، القاهرة ، مطبعة الجبلاوي ، 1970 .

- الحياة والشاعر ، ستيفن سبندر ، ترجمة الدكتور محمد مصطفى بدوي ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، سلسلة الالف كتاب ، د . ت .
- الخصائص ، صنعة ابي الفتح عثمان بن جني "ت 392" ، تحقيق محمد علي النجار ، الجزء الثاني ، مشروع النشر العربي المشترك ، الهيئة المصرية العامة للكتاب - دار - - -
- الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، سلسلة كنوز التراث ، الطبعة الرابعة ، 1990 .
- دراسات ادبية ، الدكتور جليل كمال الدين ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بغداد ، المكتبة العالمية ، الطبعة الاولى ، 1985 .
- دراسات في الشعر الحديث ، الدكتور عبده بدوي ، منشورات ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع ، الكويت ، الطبعة الاولى ، 1408هـ - 1987م .
- دراسات في الشعر العربي الحديث ، امطانيوس ميخائيل ، المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت ، الطبعة الاولى ، 1968 .
- دراسات في النص الشعري - عصر صدر الاسلام وبنو امية ، الدكتور عبده بدوي ، منشورات ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع ، الكويت ، الطبعة الاولى ، 1408هـ - 1987م .
- دراسات في النقد الادبي ، الدكتور احمد كمال زكي ، بيروت ، دار الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ، حزيران "يونيه" 1980م .
- دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي ، حسين مروة ، بيروت ، مكتبة المعارف ، 1972 .
- دراسات نقدية في النظرية والتطبيق ، محمد مبارك ، الجمهورية العراقية ، وزارة الاعلام ، سلسلة الكتب الحديثة "95" ، 1976 .
- دراسات ونماذج في مذاهب الشعر ونقده ، الدكتور محمد غنيمي هلال ، القاهرة ، دار نهضة مصر للطباعة .
- دلائل الاعجاز ، الجرجاني "ابو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن" ت 471 هـ "وقف على تصحيحه وطبعه وعلق حواشيه السيد محمد رشيد رضا ، بيروت ، دار المعرفة ، 1981 .

- دور الاديب في الوعي القومي العربي ، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي اعدتها ونظمها مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، شباط "فبراير" ط3 ، 1984 .
- دير الملاك ، الدكتور محسن اطيّمش ، وزارة الثقافة والاعلام ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ط2 ، 1986 .
- رسائل السياب ، جمع وتقديم : ماجد السامرائي ، بيروت ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، ط1 ، 1975 .
- رسائل ابن ماجه الالهية "ابو بكر محمد بن الصائغ ت 583هـ" ، تقديم وتحقيق : ماجد فخري ، بيروت ، دار النهار ، 1968 .
- الرمز الاسطوري في شعر بدر شاكر السياب ، الدكتور علي عبد المعطي البطل ، الكويت ، شركة الربيعان للنشر والتوزيع ، 1982 .
- الرومانتيكية ، الدكتور محمد غنيمي هلال ، بيروت ، دار العودة ، دار الثقافة ، 1972 .
- الرؤيا الفنية في شعر البياتي ، عبد العزيز شرف ، بغداد ، دار الحرية ، للطباعة ، 1972 .
- الرؤيا في شعر البياتي ، محيي الدين صبحي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1988 .
- سقوط الحضارة ، كولن ولسن ، ترجمة : انيس زكي ، بيروت ، 1971 .
- السياب ، عبد الجبار عباس ، بغداد ، دار الحرية للطباعة ، 1972 .
- سياسة الشعر ، ادونيس ، بيروت ، دار الآداب ، ط1 ، 1985 .
- سيكولوجية الابداع في الفن والادب ، يوسف ميخائيل اسعد ، مشروع النشر المشترك ، دار الشؤون الثقافية العامة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د . ت .
- شجرة الرماد ، الدكتور وفيق رؤوف ، وزارة الثقافة والاعلام ، دار الشؤون الثقافية العامة ، 1990 .
- شخصيات قلقة في الاسلام ، ل . ماسنيون ، ترجمة : عبد الرحمن بدوي ، القاهرة ، مكتبة النهضة ، 1946 .

- شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، ابو الفلاح عبد الحي بن العماد ، الحنبلي " 1089 ، بيروت ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، سلسلة ذخائر التراث العربي ، د . ت .
- شرح الصولي لديوان ابي تمام ، دراسة وتحقيق خلف رشيد نعمان ، الجمهورية العراقية ، وزارة الاعلام ، سلسلة التراث " 55 " ، الجزء الاول ، الطبعة الاولى ، 1977 .
- شرح القصائد التسع المشهورات ، صنعة ابي جعفر احمد بن محمد النحاس ، تحقيق احمد خطاب ، الجمهورية العراقية ، وزارة الاعلام ، مديرية الثقافة العامة ، كتب التراث " 23 " ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، مطبعة الحكومة ، 1393 هـ - 1973 م .
- شرح لزوم ما لا يلزم ، طه حسين وابراهيم الابياري ، الجزء الاول ، القاهرة دار المعارف بمصر ، د . ت .
- الشعر الجزائري ، صالح الخرفي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر مطابع الشروق ، بيروت ، 1970 .
- الشعر الحر في العراق منذ نشأته حتى 1958 ، يوسف الصائغ ، مطبعة الاديب البغدادية ، 1978 .
- شعر الخوارج ، تحقيق احسان عباس ، ط 1 ، بيروت ، دار الثقافة ، 1923 .
- الشعر الصوفي ، عدنان حسين العوادي ، وزارة الثقافة والاعلام ، دار الشؤون الثقافية العامة ، د . ت .
- الشعر العراقي الحديث ، مرحلة وتطور ، الدكتور جلال الخياط ، بيروت ، دار الرائد العربي ، ط 2 ، 1407 هـ - 1987 م .
- الشعر العربي الحديث وروح العصر ، الدكتور جليل كمال الدين ، بيروت ، دار العلم للملايين ، 1964 .
- الشعر العربي المعاصر قضايا وظواهره الفنية والمعنوية ، الدكتور عز الدين اسماعيل ، بيروت ، دار العودة ، ط 3 ، 1981 .

- الشعر كيف نفهمه ونتذوقه ، اليزابيث درو ، ترجمة محمد ابراهيم الشوش ، بيروت ، منشورات مكتبة منيمنة ، 1961 .
- شعراء المدرسة الحديثة ، م . ل . روزنتال ، ترجمة جميل الحسيني ، المكتبة الاهلية ، بيروت ، 1963 .
- الشعر والتجربة ، ارشيبالد مكليش ، ترجمة سلمى الخضراء الجيوسي ، بيروت ، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر ، 1963 .
- الشعر والزمن ، الدكتور جلال الحياط ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، سلسلة الكتب الحديثة '88' ، 1975 .
- الشعر والشعراء في العراق ، احمد ابو سعد ، بيروت ، دار المعارف ، 1959 .
- شو بهاور ، عبد الرحمن بدوي ، بيروت ، دار القلم ، د . ط ، د . ت .
- صحيح مسلم " ابو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري ت 261 هـ " ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ج 1 ، دار احياء الكتب العربية ، دمشق ، 1955 .
- الصورة الادبية ، الدكتور مصطفى ناصف ، بيروت ، دار الاندلس للطباعة والنشر ، ط 3 ، 1983 .
- الصورة الشعرية ، سي - دي - لويس ، ترجمة احمد نصيف الجنابي وآخرين ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، 1982 .
- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، الدكتور جابر عصفور ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، ط 1 ، 1974 .
- الصورة الفنية في شعر ابي تمام ، الدكتور عبد القادر الرباعي ، الاردن ، جامعة اليرموك ، 1980 .
- الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري ، الدكتور علي البطل ، بيروت - لبنان ، دار الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، ط 3 ، 1983 .
- الصومعة والشرفة الحمراء ، نازك الملائكة ، بيروت ، دار العلم للملايين ط 2 ، 1979 .

- ضرورة الفن ، ارنست فيشر ، ترجمة اسعد حليم ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1971 .
- ظاهرة الحزن في شعر نازك الملائكة - اسبابها وقضايا المعنوية الفنية ، الدكتور سالم احمد الحمداني ، مطبعة وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، جامعة الموصل ، 1980 .
- العبقريّة في الفن ، الدكتور مصطفى سويّف ، القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي، دار القلم ، 1960 .
- العزلة والمجتمع ، نيقولاى برد يائف ، ترجمة فؤاد كامل ، راجعه على ادهم ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سلسلة الالف كتاب ، 1960 .
- عصر البنيوية ، اديث كيزوريل ، ترجمة جابر عصفور ، دار آفاق عربية ، 1985 .
- علم الطبّاع - المدرسة الفرنسية ، الدكتور سامي الدروبي ، منشورات جماعة علم النفس التكاملّي باشراف الدكتور يوسف مراد ، دار المعارف بمصر ، 1961 .
- علم اللغة العامة ، فردينان دي سوسور ، ترجمة الدكتور يوثيل يوسف عزيز ، مراجعة النص العربي : الدكتور مالك يوسف المطلي ، بيت الموصل ، ط2 ، 1988 .
- علم النفس والادب ، الدكتور سامي الدروبي ، منشورات جماعة علم النفس التكاملّي، دار المعارف بمصر، د . ت .
- العلم والشعر ، إي . آي ، ريتشاردز ، ترجمة : مصطفى بدوي ، مكتبة الانجاء المصرية، د . ت .
- علي محمود طه الشاعر والانسان ، انور المعداوي ، وزارة الثقافة والارشاد ، مديرية الثقافة العامة ، سلسلة الكتب الحديثة "8" ، شركة دار الجمهورية للنشر والتوزيع ، بغداد 1385هـ - 1965م .
- عيار الشعر ، ابن طباطبا العلوي "محمد بن احمد - 322هـ" ، تحقيق : الدكتور طه الحاجري ومحمد زغلول سلام ، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، 1956 .
- الغربه ، ابن قيم الجوزية "شمس الدين ابو عبد الله محمد بن ابي بكر بن ايوب بن سعد بن حريز الزرعي الدمشقي - 728هـ" ، قدم لها وحققها : عمر بن محمود ابو

- عمر ، دار الكتب الاثرية للتحقيق والنشر والتوزيع ، الطابعون : جمعية عمال المطابع التعاونية ، عمان - الاردن ، ط 1 ، 1409هـ - 1989م .
- الفائق في غريب الحديث ، الزمخشري " جار الله محمود بن عمر - 538هـ " تصحيح : علي محمود البجاوي و محمد ابو الفضل ابراهيم ، ط 1 ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، 1364هـ - 1367هـ .
- الفتوحات المكية ، محيي الدين بن عربي " ت 638هـ " ، تحقيق وتقديم : الدكتور عثمان يحيى ، المجلس الاعلى للثقافة بالتعاون مع معهد الدراسات العليا في السوريين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1401هـ - 1981م .
- فن الشعر ، ارسطو طاليس ، ترجمة عن اليونانية وحقق نصوصه : عبد الرحمن بدوي ، بيروت ، دار الثقافة ، ط 2 ، 1973 .
- فنون الادب ، هـ . ب . تشارلتن ، ترجمة : الدكتور زكي نجيب محمود ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1945 .
- في الادب الحديث ، عمر الدسوقي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط 3 ، ج 2 ، 9 ، 1959 .
- الفلاكة والفلوكون ، شهاب الدين احمد الدلجي " ت 815هـ " ، مكتبة الاندلس ، بغداد ، مطبعة الاداب ، النجف الاشرف ، 1385هـ .
- في التصوف الاسلامي وتاريخه ، رينولد . ا. نيكولسون ، نقلها الى العربية وعلق عليها : ابو العلاء عفيفي ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1366هـ - 1947م .
- في الرؤيا الشعرية المعاصرة ، احمد نصيق الجنابي ، وزارة الاعلام ، مديرية الثقافة العامة ، كتاب الجماهير " 8 " ، دار الحرية للطباعة ، مطبعة الجمهورية ، د . ت .
- في الشعرية ، د . كمال ابو ديب ، بيروت ، مؤسسة الابحاث العربية 1987 .
- قضية الشعر الجديد ، د . محمد النويهي ، مكتبة الخالجي ودار الفكر ، بيروت ، ط 2 ، 1971 .
- قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملائكة ، بيروت ، دار العلم للملايين ، 1983 .

- قضايا النقد الادبي بين القديم والحديث ، د . محمد زكي العشماوي ، بيروت ، دار النهضة العربية ، 1979 .
- قواعد النقد الادبي ، لا سل ابر كرمي ، ترجمة : د . محمد عوض محمد ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط2 ، 1944 .
- كامو والتمرد ، روبير دولويه ، نقله الى العربية الدكتور سهيل ادريس ، بيروت ، قضايا الفكر المعاصر "2" ، ط1 ، نوار ، 1955 .
- كشف اصطلاحات الفنون ، التهانوي "محمد علي بن علي بعد 1158 هـ" ج2 بيروت ، مطبعة خياط ، د . ت .
- كشف الكربة في وصف حال اهل الغربه ، ابن رجب الحنبلي "ابو الفرج عبد الرحمن" ، القاهرة ، البابي الحلبي ، د . ت .
- لسان العرب المحيط ، ابن منظور "ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم - 711 هـ" ، قدم له العلامة الشيخ عبد الله العلايلي ، اعداد وتصنيف يوسف خياط ونديم مرعشلي ، دار لسان العرب ، المجلد الثاني ، بيروت ، د . ت .
- للعاصفة لا للريح ، محيي الدين اسماعيل ، وزارة الثقافة والاعلام ، سلسلة دراسات "281" ، 1988 .
- لغة الشعر بين جيلين ، د . ابراهيم السامرائي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط2 ، 1980 .
- لغة الشعر الحديث في العراق ، د. عدنان حسين العوادي ، دائرة الشؤون الثقافية والنشر ، سلسلة دراسات "275" ، بغداد ، دار الحرية للطباعة ، 1405 هـ - 1985 م .
- لغة الشعر العربي الحديث ، مقوماتها وطاقاتها الابداعية ، د. السعيد الورقي ، الاسكندرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1979 .
- اللغة في الادب الحديث ، جاكوب كورك ، ترجمة : ليون يوسف وعزيز عمانوئيل ، بغداد ، دار المأمون للترجمة والنشر ، دار الحرية ، 1989 .
- لمحات في سيرة حياتي وثقافتي ، نازك الملائكة ، اوراق مطبوعة على الآلة الكاتبة .
- الكتاب المقدس ، شتوتغارت ، ترجمة : فاندايك والبستاني ، مطبعة فنلندا ، 1991 .

- كتاب منازل السائرين ، شيخ الاسلام عبد الله الانصاري ' ت 481هـ ، حققه وترجمه
وقدم له : الأب سي . دي لوجييه بوركي الدرمنيكي ، القاهرة ، مطبعة المعهد العلمي
الفرنسي للآثار الشرقية ، 1962 .
- مبادئ النقد الادبي . إي . آي . ريتشاردز ، ترجمة وتقديم : د . مصطفى بدوي ،
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، 1963 .
- المتنبيء مالى الدنيا وشاغل الناس ، درا الرشيد للنشر ، سلسلة دراسات ، 1979 .
- مدارج السالكين بين منازل اياك نعبد واياك نستعين ، ابن قيم الجوزيه ' ابو عبد الله
محمد بن ابي بكر ايوب ت 728هـ ، وقف على طبعه وعلق عليه بعض الحواشي ،
السيد محمد رشيد رضا ، ج 3 ، ط 1 ، مصر ، مطبعة المنار ، 1333هـ .
- مذاهب الادب الغربي ومظاهرها في الادب العربي الحديث ، د. سالم احمد الحمداني ،
مطبعة التعليم العالي ، الموصل ، 1989 .
- مخطوطات 1844 ، الاقتصاد السياسي والفلسفة ، كارل ماركس ، ترجمة : الياس
مرقص ، دمشق وزارة الثقافة ، 1970 .
- المعقول واللامعقول في الادب الحديث ، كولن ولسن ، ترجمة : انيس زكي حسن ،
بيروت ، منشورات دار الاداب ، 1966 .
- مفتاح العلوم ، السكاكي ' ابو يعقوب يوسف بن ابي بكر ' مطبعة مصطفى البابي
الحلي ، مصر ، 1356هـ - 1937م .
- مفهوم الشعر ، د. جابر عصفور ، المركز العربي للثقافة والعلوم ، 1982 .
- مقالات عن الجواهري وآخرين ' د . داود سلوم ، مطابع دار النعمان ، النجف 1971 .
- مقالات في الشعر الجاهلي ، يوسف اليوسف ، مطبعة الحقائق ، بيروت ، ط 2 ،
1980 .
- المنفى والملوكوت في شعر البياتي ، شوقي خميس ، بيروت ، دار العودة ، ط 1 ، 1971 .
- منهاج البلغاء وسراج الادباء ، حازم القرطاجي ' 684هـ ، تقديم وتحقيق : محمد
الحبيب ابن الخوجة ، تونس ، دار الكتب الشرقية ، 1966 .

- طبعة بيروت ، ط2 ، 1987 .
- مواجهات الصوت القادم ، حاتم الصكر ، دار الشؤون الثقافية العامة ، كتاب الطليعة الادبية "9" ، 1986 .
- الموت والعبقريّة ، عبد الرحمن البدوي ، الكويت - وكالة المطبوعات ، لبنان - دار القلم ، 1945 .
- موسيقى الشعر ، الدكتور ابراهيم انيس ، ط4 ، مكتبة الانجلو المصرية ، المطبعة الفنية الحديثة ، 1972 . طبعة دار القلم ، بيروت ، د. ط ، د. ت .
- الموضوعات البنيوية ، الدكتور عبد الكريم حسن ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط1 ، 1983 .
- الموقف الشعري الى اين ؟ و ... حوار مع عبد الوهاب البياتي ، مالك المطليبي ، وزارة الاعلام العراقية ، دار الجمهورية للطباعة ، بغداد ، 1969 .
- ميزان الذهب ، احمد الهاشمي ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، ط15 ، 1965 .
- النار والجوهر ، جبرا ابراهيم جبرا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط3 ، 1982 .
- نازك الملائكة ، دراسات في الشعر والشاعرة ، نخبة من اساتذة الجامعات ، اعداد وتقديم واشترك دكتور عبد الله احمد المهنا ، شركة الربيعان للنشر والتوزيع بالكويت ، ط1 ، 1985 .
- نازك الملائكة ، دراسة ومختارات ، الدكتور عبد الرضا علي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1987 .
- نازك الملائكة ، الشعر والنظرية ، عبد الجبار داود البصري ، بغداد ، 1391هـ - 1971م .
- نازك الملائكة ، الموجة القلقة ، ماجد احمد السامرائي ، وزارة الاعلام ، سلسلة الكتب الحديثة "72" ، بغداد ، دار الحرية للطباعة ، 1975 .
- نظرية الادب ، اوستن وارين ورينيه ويليك ، ترجمة : محيي الدين صبحي ، دمشق ، 1972 .

- نظرية البنائية في النقد الادبي ، الدكتور صلاح فضل ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط 3 ، 1987 .
- النظرية الرومانتيكية في الشعر ، سيرة ادبية لكولودج ، ترجمة : الدكتور عبد الحكيم حسان ، دار المعارف بمصر ، 1971 .
- النظرية الشعرية عند تي . اي . هيوم ، ألن . آر . جوفز ، ترجمة : جبرا ابراهيم جبرا ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 1971 .
- النفخ في الرماد ، الدكتور عبد الواحد لؤلؤة ، بغداد ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ط 2 ، 1989 .
- النقد الادبي الحديث ، الدكتور محمد غنيمي هلال ، بيروت ، دار الثقافة ودار العودة ، 1973 .
- النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الادب واللغة ، الدكتور محمد مندور ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، د . ت .
- النموذج الثوري في شعر عبد الوهاب البياتي ، عبد المنعم الحفني وآخرون ، مطبعة الاديب ، بغداد ، 1972 .
- واقع القصيدة العربية ، الدكتور محمد فتوح احمد ، دار المعارف بمصر ، 1984 .

ثانيا : الدواوين الشعرية :

- ديوان ابي الطيب المتنبي يشرح ابي البقاء العكبري ، ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقا و ابراهيم الابياري و عبد الحفيظ شلبي ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان ، 1978 .
- ديوان بدر شاكر السياب ، المجلد الاول ، دار العودة ، بيروت ، 1971 .
- ديوان بدر شاكر السياب ، المجلد الثاني ، دار العودة ، بيروت ، 1974 .
- ديوان بلند الحيدري ، دار العودة ، بيروت ، 1974 .
- ديوان بشر بن أبي خازم الاسدي ، غني بتحقيقه الدكتور عزة حسن ، ط 2 ، وزارة الثقافة ، دمشق ، 1392هـ - 1972م .

- ديوان ذي الرمة ، شرح الامام ابي نصر احمد بن حاتم الباهلي ، حققه وقدم له وعلق عليه : د. عبد القدوس صالح ، ج1 ، مطبعة طربين ، 1972 .
- ديوان الحلاج "أبو الغيث الحسن بن منصور البيضاوي" ، صنعه واصطلحه الدكتور كامل مصطفى الشبيبي ، بغداد ، مطبعة المعارف ، 1394هـ - 1974م .
- ديوان الشريف الرضي ، دار صادر ، دار بيروت ، بيروت ، 1380هـ - 1961م .
- ديوان عبد الوهاب البياتي ، المجلد الاول ، دار العودة ، بيروت ، 1971 .
- ديوان عبد الوهاب البياتي ، المجلد الثاني ، دار العودة ، بيروت ، 1971 .
- ديوان عبد الوهاب البياتي ، المجلد الثالث ، دار العودة ، بيروت ، 1979 .
- ديوان علي محمود طه ، دار العودة ، بيروت ، 1972 .
- ديوان نازك الملائكة ، المجلد الاول ، ط1 ، دار العودة ، بيروت ، 1971 .
- ديوان نازك الملائكة ، المجلد الثاني ، ط1 ، دار العودة ، بيروت ، 1971 .
- سفر الفقر والثورة ، عبد الوهاب البياتي ، منشورات دار الآداب ، بيروت ، ط1 ، ايلول "سبتمبر" ، 1965 .
- الكتابة على الطين ، عبد الوهاب البياتي ، منشورات دار الآداب ، بيروت ، الطبعة الاولى ، كانون الثاني / يناير ، 1970 .
- لن ، انسي الحاج ، مطبعة دار مجلة شعر ، بيروت ، كانون الاول ، 1960 ، عيون الكلاب الميتة ، عبد الوهاب البياتي ، دار العودة ، بيروت ، 1969 .
- الموت في الحياة / الوجه الآخر لتأملات الخيام في الوجود والعدم ، عبد الوهاب البياتي ، منشورات دار الآداب ، بيروت ، الطبعة الاولى ، كانون الثاني "يناير" ، 1968 .

ثالثا : المجلات والدوريات :

- الاديب المعاصر ، العدد "5" ، المجلد "2" ، تموز ، 1973 .
- الاسبوع العربي ، العدد "608" ، 1971 .
- افكار ، العدد "24" ، ايلول ، 1974 .

- الاقلام ، السنة 22 ، العدد 7 ، تموز ، 1987 .
- الطليعة الأدبية ، العدد 2 ، السنة 6 ، شباط ، 1980 .
- فصول ، العدد 2 ، يوليو ، 1981 .
- العدد 2 ، يناير ، فبراير ، مارس ، 1984 .
- عالم الفكر ، العدد الاول ، المجلد العاشر . ابريل ، مايو ، يونيو ، 1979 .
- المستقبل العربي ، العدد 2 ، تموز ، 1978 .
- المورد ، العدد الرابع ، المجلد الرابع ، شتاء 1975 .

رابعا : الرسائل الجامعية :

- البنية الموضوعية والخفية في الشعر الوجداني الحديث في العراق ، عبد الكريم راضي جعفر ، رسالة دكتوراه على الآلة الكاتبة ، كلية الآداب - جامعة بغداد ، 1412هـ - 1991م .
- الزمن في شعر الرواد ، سلام كاظم الاوسي ، رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة ، كلية التربية - جامعة بغداد ، 1411هـ - 1990م .
- الصور في نقد الشعر العربي الحديث ، بشري موسى صالح ، رسالة دكتوراه على الآلة الكاتبة ، كلية الآداب - جامعة بغداد ، 1987 .
- الغربة والحنين في الشعر العربي الاندلسي ، احمد حاجم محمد ، رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة ، كلية الآداب - جامعة بغداد ، 1403هـ - 1983م .

